
Bibliotheca Alexandrina
0158238

الثورة الفرنسية ونابليون

تصانيف المؤلف الأخيرة

١ — "La Genèse de l'Esprit Nationnel Egyptien" par M. Sabry, docteur és lettres (1863 - 1882)

كتاب بالفرنسية مدعّم بالمستندات الكثيرة يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير ، يبحث فى تاريخ الوطنية المصرية منذ عصر محمد على الى آخر الثورة العرابية . يطلب من مكتبة موسكاتو ، الثمن ٤٠ قرشا .

٢ — "تاريخ مصر الحديث" ، من محمد على الى اليوم :

يستند الى مذكرات الشيخ محمد عبده وأهم الوثائق الرسمية وغير الرسمية ، الثمن ٢٥ قرشا .

٣ — "أدب وتاريخ" : الثمن ١٥ قرشا .

سفر يحتوى على أربعة كتب : (١) محمود سامى باشا البارودى ، بحث تحليلى فى حياته وشعره . (٢) اسماعيل صبرى باشا حياته وشعره . (٣) تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا . (٤) الفصول : أبحاث متنوعة فى النقد والأدب والفلسفة

٤ — "الثورة الفرنسية ونابليون" : الثمن ١٥ قرشا

تطلب هذه الكتب من «مكتبة مصر» بشارع الدواوين ومن المكاتب الشهيرة .

تحت الطبع

ابراهيم باشا

عزمنا على التفرّغ لتاريخ مصر الحديث واصداره مفصلا فى عدّة مجلدات يكون كل منها خاصا بعصر من العصور قائما بذاته مستقلا : وسنبدأ بتاريخ إبراهيم باشا بطل مصر فى أيام محمد على .

الثورة الفرنسية
ونابوليون

تأليف

الدكتور

محمد صبرى

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٤٦٧/٣١٠٠)

فهرس الكتاب

تصـــــدير

لمـا كان عصر الثورة الفرنسية ونابليون من العصور التاريخية التي كان لها أبعد أثر في حياة أوروبا السياسية والاجتماعية رأينـا أن نفرد له كتابا خاصا عنينا كل العنـاية في أن نجعله وافيا بالغرض الذي نرمي اليه : وهو تمثيـل روح الثورة خصوصا في عصر المؤتمر الوطني والإرهاب، عصر تطاحن الأحزاب والرجال، عصر العظمة والسقوط، وتحليل سياسة نابليون التي دوخت فرنسا وممـالك أوروبا والشرق .

والواقع أن إيجاز الحوادث الكبرى ايجازا علميـا شاملا من أدق واجبات المؤرّخ لأن الإيجاز يقتضي الإلمـام بالحوادث، ووزن كل دقيق وجليل فيها، ثم أداءها في أقرب لفظ الى أبعـد معنى، وما الإيجاز إلا قطعــة من عقل المؤرّخ وشخصيته ومقيـاس يبين عن ذكائه وذوقه وخبرته .

وقد يستغل المؤرّخ المـاهر مواد غيره فيخرج لنا منها صورة جديدة رائعــة لعصر من العصور أو لشخصية بارزة أو لحادثة من الحوادث، وقد يجد غيره مواد جديدة أو وثائق لم يسبق نشرها فلا يحسن استغلالها ثم يتوهم أنه أتى ببحث علمي طريف .

وهـذا المؤرّخ «مادلان» أصدر كتابه عن الثورة وأعلن في تواضع أنه لم يأت ببحث علمي جديد ولكنه اكتفى بتلخيص ما كتبه المتقدمون، وما أكثره، بعد نقده وتمحيصه .

على أن تلخيصه جاء « جديدا » في طلاوته، وبيانه ، وقدرة صاحبه على تصوير الحوادث والرجال تصويرا دقيقا . فطنت الى ذلك الأكاديميه الفرنسية فتوجت الكتاب وكافأت مؤلفه .

دفعنا الى سوق هـذه الكلمة ما نراه من ميل بعض النـاس الى الانتقاص من شأن كل موجز في الأدب والتاريخ أو بكل بحث لا يسـتند الى وثائق جديدة لأنه في نظرهم مجرّد من الصفة « العلميـــة » .

وأن أكبر مطمع لنـا في هذا الكتاب أن نكون قد حققنـا الغرض الذي نرمي اليه وهو تلخيص حوادث الثورة والامبراطورية تلخيصا شاملا تزيده الصـور الفنية أو التاريخيـة العديدة وضوحا وحيـاة .



الى الأمام . . في طريق الحرية

من تصوير الرسام رافيه Raffet (١٨٠٤–١٨٦٠) .
مصور فذ صور وقائع الثورة والامبراطورية ، وهو وان لم يرها
رأى العين فقد فاق في اجادته الكثير من شهودها

الصور مطبوعة بمطبعة المجازين اجبسيان بمصر

المصـادر

نشر هنا أهم المصادر التى يمكن الرجوع اليها

١

الثـورة الفرنسـية

Madelin. — La Révolution, I vol., 1911.

Dayot. — La Révolution (album illustré).

E. Champion—La France d'après les cahiers de 1789, 1911.

Aulard—Histoire politique de la Révolution française, 1901.

A. Sorel — L'Europe et la Révolution française.

Barthou — Mirabeau, 1913.

J. Claretie — Cam lle Desmoulins (étude sur les Dantonistes), 1875.

Thiers — Révolution française, 10 vol.

E. Lintilhac — Vergniaud (le drame des Girondins) 1920.

Aulard — Etudes et leçons sur la Révolution française.

Tocqueville — L'Ancien régime et la Révolution.

E. Borgcois — Manuel historique ds politique ètrangère, T 2.

Mathiez — Études rsbespierristes, 2 vol. (1917-1919).

٢

عصـــر نابليون

Thiers — Le Consulat et l'Empire, 20 vol.

Lanfrey — Histoire de Napoléon, 5 vol.

Lavisse et Rambaud — Histoire générale, Napoléon T, I X.

E. Bourgois — Manuel de politique étrangère T. 2.

Seignobos : Histoire politique de l'Europe Contemporaine, 2 vol.

Debidour : Histoire diplomatique de l'Europe, 4 vol.

E. Denis — L'Allemagne de 1789-1810.

V. Bash — Les Docrincs politiques des philosophes classiques de l'Allemagne, 1927.

E. Lavisse — Études sur l'histoire de Prusse, 1879.

X. Léon — Fichte et son temps 3 vol., 1922-1927.

G. Cavaignac — La formation de la Prusse centemporaine, 2 vol. (1806-1813), 1898.

الى صاحب الجلالة

فؤاد الأوّل

ملك مصر ومحيي النهضة العلمية والأدبية فيها

أقدّم كتابي

الكتاب الأول

الثورة الفرنسية

الفصل الأول

النظـــــام القـــــديم

تمهيـــــد — تتلخص أسباب الثورة البعيدة والقريبة فيما أطلق عليه المؤرّخون «النظام القديم» أى النظام السابق لعهد الثورة.

كان هـذا النظام يستند الى الحكم المطلق الاستبدادى والى الامتيازات التى يتمتع بها الأشراف والقساوسة، وكان فى جملته من الوجهتين الاجتماعية والسياسية يتنافى مع « الروح الجديدة » التى ظهرت فى أوروبا، وفى فرنسا بوجه أخص، فى القرن الثامن عشر تأييدا لمبادئ العدل والحرية والمساواة .

١

يرجع الى الملكية الفرنسية الفضل فى تكوين فرنسا ووحدتها فكان ذلك من أكبر العوامل التى تحمل الشعب الفرنسى على التعلق

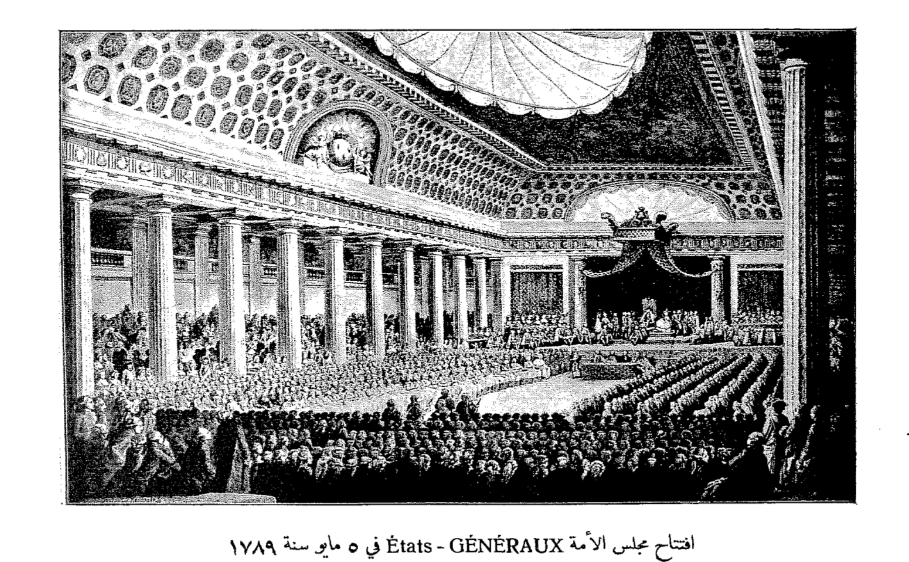
بها ولكن الحكم المطلق ومساوئه بدأت تبدو جليا منذ عصر لويس الرابع عشر أى منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر ولم توجد فى فرنسا منذ ذلك الوقت، لا فى عهد لويس الخامس عشر ولا فى عهد لويس السادس عشر، حكومة حازمة بصيرة تحدث الاصلاحات الأساسية اللازمة فى الادارة المعتلة وتقضى على نظام الامتيازات الذى ورثته عن القرون الوسطى وكان يئن من جوره الشعب .

كان لويس الرابع عشر يقول «الحكومة أنا» وقد أقام حكمه المطلق على هذه القاعدة فاستأثر بكل سلطة وقضى على الحرية الدينية (مطاردة البروتستانت) ، والحرية السياسية، والحرية الشخصية وسخر الشعب ودماءه وأمواله فى الحروب جريا وراء مجد كان فى طيه البؤس والشقاء .

قال ڤوبان مهندس استحكامات لويس الرابع عشر وقد رأى ما حل بالبلاد : « إن الشعوب معرّضة لجشع الماليين والضرائب الجائرة والمطالب الفادحة التى تنشأ عنها مضايقات مرهقة ، وقد أصبح الكثيرون بلا مأوى ، وملئت المستشفيات بالمرضى ، وأقفرت البلاد من السكان » .



لما اعلن نواب الشعب فى فرسايل انفسهم « جمعية وطنية » Assemblée Nationale رغماً من اعتراض البلاط ورجال الكهنوت والاشراف انحاز اليهم صغار القساوسة وكانوا اغلبية فى طبقتهم فذعر البلاط وقرر اغلاق غرفة الاجتماع فما كان من الجمعية الا ان اجتمعت فى ملعب التنس الشهير وكان مقفرا موحش المنظر ظل النواب فيه وقوفا طوال يومهم لا يجدون الا بعض المقاعد الخشبية ، وقد قام فى وسطهم بايلى Bailly رئيس الجمعية وتلا صيغة القسم « بان لا يبرحوا مقاعدهم حتى يضعوا للبلاد دستورا » . هذا الرسم المملوء بالحركة والحياة مأخوذ عن صورة رسمها المصور داوود David (١٧٤٨—١٨٢٥) وكان من اكبر صار الثورة والجمهورية ثم صار مصور نابليون « الرسمى » ثم اضطهده البوربون ونفوه فقصد بلجيكا فكانت منفاه ومقره الاخير



افتتاح مجلس الأمة États - GÉNÉRAUX في ٥ مايو سنة ١٧٨٩

لوحة تاريخية دقيقة رسمها مونيه Monnet (١٧٣٢ـ١٨٠٨) وهو من فناني الثورة المعدودين . في باطن الرسم يبدو الملك جالسا على عرشه والى جانبه الملكة بينما يخطب نيكر وزير المالية الشعبي وسط نواب الكهنوت على يمين العرش والنبلاء على شماله وممثلي الشعب متراصين ازاءهما في بداية الرسم

والواقع أن استبداد لويس الرابع عشر وحكومته قد ولد فى النفوس كراهية الحكم المطلق ، وأخذ هـذا الشعور يزداد فيها تأصـلا بسبب انحطاط الملكية وسقوط هيبتها فى القـرن الثامن عشـــر .

٢

لويس الخـامس عشر — كانت الملكية المطلقـة فى فرنسا ، خصوصا فى عهـد لويس الرابع عشر تستند الى نظرية الحق الإلهى فتغلو فى استبدادها الممقوت ، ولكنها كانت على شيء من القوّة والعظمة ، ثم جاء عصر فقدت الملكية المطلقة فيـه قوّتها وبهاءها وصار النساء والعشيقات فى أيام لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر يتحكمن فى سياسة الدولة ويبذرن أموالها ويكثرن من الفضائح التى ساعدت على إسـقاط نفوذ الملكية وجعلهـا موضع السخط والازدراء .

فقـدت فرنسا فى الخارج عند موت لويس الخـامس عشر نفوذها السـياسى والعسكرى وأضـاعت أسطولها ومسـتعمراتها وفى الداخل انتشر البـؤس وارتبكت الادارة وصارت الحكومة مهدّدة بالافلاس .

وكان لا بدّ من الجرى على سياسة إصلاحية تعمل على :
(١) تقييد الحكم المطلق ، (٢) تبسيط النظام الادارى ،
(٣) القضاء على الامتيازات .

الحكومة المطلقة — كان الملك مصدر السلطات جميعا فكانت له وحده السلطة التنفيذية : حق تعيين الموظفين والاشراف على الادارة، وعقد المحالفات، و إعلان الحرب وقيادة الجيوش . وكانت له وحده السلطة التشريعية لأن مجرّد صدور لائحة ملكية يكفى لتغيير نظام الحكومة أو القضاء ، وكانت القوانين الفرنسية مؤلفة من العادات القديمة واللوائح الملكية . وكانت له وحده السلطة المالية يقرّر النفقات والضرائب وجبايتها بغير رقيب . وكان الوزراء والحكام خاضعين لارادته التى تقوم مقام القانون .

وكانت إرادة الأمة ممثلة شكلا فى «البرلمان» و«مجلس الأمة» . أما البرلمان فاسم كان يطلق فى العهد القديم على محاكم عليا منشأة فى أمهات المدن للفصل نهائيا فى الأحكام المستأنفة . وكان أهمها وأقدمها «برلمان باريس» الذى كان فى بدايته محكمة عليا متنقلة تتبع الملوك أنى ذهبوا لتقضى باسمهم ثم أقرّها فيليب الرابع فى باريس (١٣٠٢) ، وكان برلمان باريس كالبرلمانات الأخرى التى أنشئت

فيما بعد، ينظر فى الدعاوى المستأنفة، ولكنه كان فوق ذلك يسجل القوانين واللوائح والأوامر الملكية، وكانت اختصاصات البرلمان فى البداية قضائية بحتة وما لبث أن انتحل لنفسه سلطة سياسية فكان كثيرا ما يرفض تسجيل القوانين التى يرى أنها تتنافى مع العدل أو يوجه الى الملك قبل الشروع فى عملية التسجيل انتقادات مرة نفى من أجلها مرارا . وقد تعب من مقاومته لويس الخامس عشر فألغاه فى سنة ١٧٧١ وأعاده لويس السادس عشر فى أوّل حكمه (١٧٧٤) فصار البرلمان فى أيامه على رأس حركة المعارضة التى تقدّمت الثورة وكانت العامل الأوّل فى إضعاف الملكية .

أما "مجلس الأمة Etats-Généraux" فكان يتألف من نوّاب الأشراف والقساوسة والطبقة الثالثة (الشعب) ، وأوّل جمعية عرفت بهذا الاسم اجتمعت فى سنة ١٣٠٢ بناء على دعوة فيليب الرابع للفصل فى النزاع الذى قام بينه وبين البابا بونيفاس الثامن، وقد أيدته أغلبية المجلس فى وجوب تحميل الاكليروس نصيبا من أعباء البلاد المالية وأكدت بذلك استقلال الملكية عن حكومة رومة فى سلطتها الزمنية، ولا ريب أن هذا الاجتماع الخطير يدل على أن الملكية بدأت تستند فى أعمالها الى الرأى العام لأن مجلس الأمة أوّل تمثيل صحيح قام على قاعدة انتخابية .

على أن هذا المجلس كان لا يجتمع بطريقة نظامية وانما يعقده الملوك حسب مشيئتهم لأخذ رأيه فى المسائل الهامة وتقرير الضرائب ، وكان يطالب أحيانا بالاصلاحات النافعة ، اجتمع لآخر مرة سنة ١٦١٤ ثم أصبح بعد ذلك نسيا منسيا لغاية سنة ١٧٨٩

وكان الفرنسيون لا يتمتعون بأية حرية ، فلا وجود للحرية الفردية لأن مجرّد صدور «إرادة ملكية» (Lettre De Cachet) يكفى لسجن أو نفى أى فرنسى دون اتباع أى إجراء قانونى أو الاستناد الى أى حكم قضائى ، وكانت هذه الإرادات تصدر فى صورة خطاب ممضى من الملك وأحد وزرائه ومغلق بختم الملك ، وكان يستعملها الملك ووزراؤه وكبار رجال الدولة[1] للانتقام من أعداء الحكومة السياسيين ثم جرى استعمالها للانتقام من الأعداء الشخصيين ، ومن ضحايا هذه الارادات «لاطود» (Latude) الذى ظل فى سجن الباستيل ٣٥ سنة (١٧٤٩ — ١٧٨٤) بناء على طلب مدام دى بومبادور إحدى عشيقات لويس الخامس عشر لأنه بلغها فى سنّ الرابعة والعشرين من عمره خبر مؤامرة وهمية طمعا فى رضاها ووقايتها .

(١) كان المركيز فكتور ميرابو (أبو ميرابو خطيب الثورة) طاغية أسرته فظا غايظ الطبع مع زوجه وبنيه ، وقد حصل من الوزراء بفضل مكانته على ٥٤ إرادة ملكية استعملها ضدّ أهله وذويه وأرهق المحاكم باشكالاته الفاضحة .

ولا وجود للحرية الدينية لأن الدين الكاثوليكى دين الدولة الوحيد المعترف به، وكان إجباريا، وقد أعلن لويس السادس عشر عند تبوئه الحكم «انه سيبذل أقصى سلطته فى مطاردة أعداء الكنيسة» وكان محرّما على البرتستانت واليهود الدخول فى المناصب العامّة .

ولا وجود لحرية النشر لأن "لجنة الرقابة" التى أنشئت فى أيام لويس الرابع عشر كانت تفحص جميع المطبوعات قبل ظهورها واذا صدرت كتب من غير اذن اللجنة صودرت، وزج بأصحابها فى الباستيل من غير محاكمة، وقد سجن «فولتير» فيه مرتين واضطر الى الرحيل عن بلاده ليتمكن من التأليف فى أمن .

وكانت معاكسة الرقابة للصحف اليومية تمنعها من الظهور فلا تصدر إلا الصحف الممالئة للحكومة أو التى تكتفى بنشر بلاغاتها الرسمية .

ومن أكبر العوامل التى بغضت الحكم المطلق الى الجميع وجود البلاط الملكى الذى اتخذه الملوك منذ فرانسوا الاوّل أداة حكومة واجتذبوا الى ساحته فى فرسايل، خصوصا فى أيام لويس الرابع عشر، الأشراف فصاروا من الموالى بوأخذت سلطتهم

تفنى فى السلطة الملكية . وكان يبلغ عدد رجال البلاط ١٨٠٠٠ فى سنة ١٧٨٩ تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات الضخمة دون أن يكون لهم عمل يؤدّونه، ولما جعلت مدام دى بومبادور مركيزة فى سنة ١٧٤٥ أجرى لها الملك ٢٠٠٠٠٠ جنيه نفقة سنوية وبلغت نفقاتها الشخصية فى تسعة عشر عاما ٣٦ مليون جنيه .

وكانت خزانة الدولة تدر على أولئك العاطلين من أصحاب الابهات المولعين بالترف وحب الظهور والملاهى والحفلات الراقصة مما دعا طورغو (Turgot) الى أن يقول للويس السادس عشر على أثر تعيينه وزيرا للمالية : «يجب أن تتسلح يامولاى ضدّ إحسانك وأن تفكر فى مصدر هذا المال الذى تنفقه على بطانتك وأن تقارن بين بؤس أولئك الذين ينتزع منهم المال أحيانا بأساليب قاسية وحالة أولئك الذين ينعمون من فيضك» .

ورغما من ذلك فان الملكية لم تقلع عن سياسة الاسراف وقد أنفق الملك فى ثلاثة أعوام(١٧٧٨ — ١٧٨١)مبلغ ٢٦٠٠٠٠٠جنيه مرتبات لبعض رجال البلاط الجديدين الذين عينوا فى وظائف لم تخل بعد .

ومما يزيد الأمر خطرا أن الملك كان لا يعرف شعبه لأن بطانته كانت حجابا بينه وبين الأمة .

النظـام الادارى — كان الملك يحكم رأسا أو بواسطة وزرائه ومديريه الذين يتمتعـون بسلطة استبدادية مطلقة مستمدة من الحاكم الأعلى .

على أن سـوء النظام الادارى لم يكن منشؤه استبداد الحكام وحده بل إرتباك الإدارة العامةبسبب تراكم النظم الجديدة على النظم القـديمة التى يرجع معظمها الى القرون الوسطى فكانت التقسيمات أو الدوائرالإدارية متدخل بعضها فى بعض ، وكانت الدوائر العسكرية ، والدوائر الدينية ، والدوائر القضائية ، والمقاطعات لا تطابق بينها ، وكانت فوق ذلك حدود كل منها مختـلة لم يراع واضعوها الحدود الطبيعية ولا مصالح السكان وعاداتهم .

ولم يكن هناك خط جمركى واحد يفصل فرنسا عن الخارج بل خطوط داخليـة كثيرة تفصـل ثلاث عشرة مديرية مجتمعة فى وسط فرنسا عن المديريات الأخرى المسماة « بالأجنبية » وهى المديريات التى ضمت الى التاج الفرنسى حديثا .

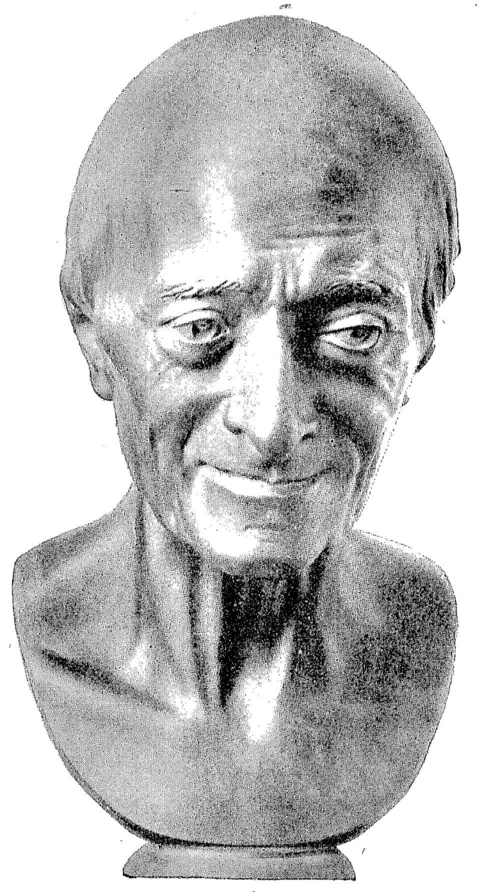
ولم تكن هناك وحدة مقاييس ومكاييل حتى فى مراكز المقاطعة الواحدة ، ولا وحدة تشريع فكان سكان الجنوب خاضعين للقانون الرومانى ، وسكان الشمال للعادات الموروثة ، وكانت بعض قوانين قاسية همجية كالتعذيب وغيره من مخلفات العصور القديمة .

وكانت الولاية القضائية متعددة بين محاكم الأشراف، ومحاكم الاكليروس، والمحاكم العامة، وكان للمدير سلطات قضائية معينة، وكانت المحاكم العليا الثلاث عشرة «البرلمانات» موزعة بين البلاد بطريقة غير عادلة، فكانت دائرة اختصاص برلمان باريس وحده ثلث المملكة، وكانت معظم الدعاوى بسبب سوء النظام القضائى لا يفصل فيها طوال سنين عديدة .

وكانت الضرائب موزعة بطريقة جائرة تشكو الطبقة العاملة الفقيرة من فداحتها وأساليب جبايتها : تقرر الحكومة فى كل عام المبلغ الذى تدفعه كل مديرية ثم يقوم الموظفون فى معظم المقاطعات من المدير الى الجابى بتوزيع الضرائب بين السكان لا بنسبة الثروة بل بنسبة المقدرة، وتلك عادة قديمة، فكان الجباة أحرارا فى تقدير ما يدفعه كل ساكن ومراعاة ذويهم .

وأهم الضرائب المباشرة «الضريبة الملكية» التى كانت تقع على الشعب وحده، على العمال والتجار والفلاحين الذين ليسوا من طبقة الأشراف، وأول من فرضها فيليب الرابع للقيام بنفقات الحرب .

وقد دفعت الحروب لويس الرابع عشر الى فرض ضريبة شخصية فوق العادة (رسم الرأس) وضريبة عشرونية ($\frac{1}{20}$ من الدخل)



فولتير كهلا (١٧٨٢)

تمثال نصفي صنع نابغة الفن المثال هودون Houdon (١٧٤١–١٨٢٠) . يرى القارىء في ذلك الوجه الابتسامة المرة التي يعدها شعاع الفكر العالى . وكان فولتير بتهكمه وتنديده بمظالم العهد القديم فى طليعة رجال الثورة ، لذلك قرر الشعب الفرنسي في ١١ يولية سنة ١٧٩١ نقل رفاته الى مقبرة العظماء في احتفال قومي مهيب

وكانت هاتان الضريبتان من الوجهة النظرية تشملان جميع الطبقات ولكن القساوسة أعفوا منهما لقاء التبرع بمبالغ معينة من المال من وقت لآخر، وكان الأشراف يدفعون مبالغ ضئيلة بالنسبة لثروتهم . (ففى شمبانيا كانت الضريبة العشرونية تقدر للأشراف بنسبة ١٠٪ ولغيرهم بنسبة ٦٠٪) فكانت الضرائب المباشرة وحدها تستنفد نصف ايراد الطبقة العاملة .

أما الضرائب غير المباشرة كضريبة المشروبات وضريبة الملح فكانت جبايتها مؤجرة لرهط من كبار الماليين أو الملتزمين الذين لا يدخرون وسيلة فى ابتزاز المال والحصول على أرباح وفيرة، وكانت ضريبة الملح أبغض الضرائب الى الفرنسيين ومثل من أمثلة الاستبداد والتحكم اذ كان حتما على كل انسان فى بعض المقاطعات شراء كمية معينة من الملح، بثمن معين، ولاستعمال معين (للطبخ مثلا فلا يجوز استعماله فى تمليح خنزير) .

وكان عمال الملتزمين يدخلون المنازل للتفتيش عن الملح المهرب ، ويقبضون على ألفين أو ثلاثة آلاف مهرب فى كل عام يجازونهم بالجلد أو بالأشغال الشاقة .

وكانت طبقة الشعب التى تتألف منها أربعة أخماس السكان تدفع ، عدا هذه الضرائب الملكية الفادحة، الضريبة العشورية

للاكليروس (عشر المحصول تقريبا أو ما لا يقل عن ١٢٥ مليون) والحقوق الاقطاعية للأشراف، وكانت هذه الحقوق متنوعة، منها الرسوم التى يتقاضاها الشريف فى مقابل ارغام الفلاحين على استعمال طاحونته، وفرنه، ومعصرته؛ ومنها حق الصيد الذى كان يرغم الفلاحين على ترك الصيد يفتك بمحاصيلهم والصائدين يدهكونها بأقدامهم .

وكانت هذه الضرائب فى جملتها تستهلك أربعة أخماس ايراد الشعب ولا بدّ له بعد ذلك أن يقنع بالدون .

النظام الاجتماعى والامتيازات — كان الاستبداد سناد الحكومة المطلقة، والظلم سناد الادارة، واللامساواة سناد النظام الاجتماعى، وقد كانت الأمة مقسمة الى طبقات ثلاث : القساوسة والأشراف والشعب .

كان لطبقة القساوسة أملاك واسعة (تقدر بربع أو خمس أراضى المملكة) معافاة من كل ضريبة، وكانت تحصل فوق ذلك الضريبة العشورية من الشعب، وتفصل محاكمها فى مسائل الزواج ولكن كان الآلاف من صغار القساوسة يشكون ضنك العيش بسبب استئثار رؤساء الاكليروس بثروة الكنيسة وأموالها .

أما الأشراف (كانوا نحو ١٥٠٠٠٠ فى سـنة ١٧٨٩) فكان لطبقتهم فى البداية ملكية الأراضى كلها تقريبا والسلطة العامة فلما قويت الملكية الفرنسية حلت سلطتها محـل سلطة الاشراف، ثم أخذ الفلاحون من ناحيـة أخرى يمتلكون تدريجـا الأراضى التى كانوا يزرعونها (ثلث أراضى المملكة تقريبا) ولكنهم ظلوا يؤدون «الحقوق الاقطاعيـة» للشريف الذى ما برح يرهقهم بالضرائب والسـخرة .

وكان للأشراف وحدهم الحق فى وظائف البـلاط ومناصب الجيش الرئيسية أما الشعب فعليه أعباء الضرائب والسخرة والتجنيد .

ولا ريب أن هذه اللامساواة كان يتألم منها الشعب حتى قال بعض الكتاب ان ظمأ الفرنسيين الى المساواة كان أشدّ من ظمأهم الى الحرية ، والواقع أن النظام الاجتماعى فى القرن الثامن عشر كان أكثر انطباقا على الحالة العمرانية والسياسية فى القرون الوسطى خصوصا وأن الأشراف قد اضمحل أمرهم واشتغل الكثيرون من أفراد الشعب ، غير الأشراف ، بالتجارة والصناعة فنالوا ثروة واسعة ورفعة وقوّة وتألفت من الشـعب « طبقة متوسطة » جديدة متنوّرة تعتز بحسبها الذى ابتنته لنفسها بكدها وتنـدّد بامتيازات الأشراف التى لا يبررها سوى الأصل والنسب . والى هذه الطبقة ينتمى فولتير

الذى روى أنه تنازع مرة مع الدوق دى روهان و بينما كان يتناول غداءه ذات يوم بعث اليه الدوق يدعوه لأمر عاجل فما كاد يخرج من البيت حتى أثخنه خدمه ضربا بالعصى ، أراد فولتير التشهير بهذا الاعتداء فسجنته الحكومة فى الباستيل ثم أطلقته بعد أن أشارت عليه بالرحيل من البلاد حتى ينسى أمره (١٧٢٦) .

والى هذه الطبقة ينتسب كبار الملتزمين والماليين ورؤساء المصارف والشركات وأرباب التجارة والصناعة (صارت الحركة التجارية أربعة أضعاف ما كانت عليه فى سنة ١٧١٥) والمحامون والأطباء ورجال القانون حتى أصبحت فى الواقع الطبقة الأولى التى عليها مدار الحياة العامة فى الدولة ، وكان بدهيا أن لا ترضى عن مركزها الاجتماعى فى ذيل الطبقات وأن تكون على رأس الحركة الثورية العاملة على تقويض نظام الحكم والادارة والاجتماع .

٣

النهضة الفكرية فى القرن الثامن عشر —

بدأ السخط يعم البلاد خصوصا طبقة الشعب ، وصغار القساوسة ، وأشراف الأقاليم لا البلاط ، ويأخذ شكلا محسوسا بفضل الروح الجديدة التى ظهرت فى القرن الثامن عشر وقيام الحركة الفكرية

وعلى رأسها مونتسكيو، وفولتير، وروسو، لتأييد مبادئ العدل والحرية والمساواة .

كان فولتير يقول « ان الحرية في الرجل صحة النفس» ويتمنى في مؤلفاته وجود حكومة قوية مستنيرة خاضعة للقوانين، تعمل لصالح المجموع ، وتسوى وتعدل بين الرعية في الضرائب والقضاء والتجارة، وتحترم الحرية الشخصية وحرية الرأى وتعين البؤساء . وهذه المطالب كانت في الواقع أهم الاصلاحات التي ستعمل الثورة على تحقيقها .

كان فولتير من ألد أعداء الكنيسة والتعصب الديني والاضطهاد ومن أكبر أنصار المظلومين الذين وقف حياته على الدفاع عنهم أمام القضاء فاكتسب بذلك شهرة واسعة ونال محبة الشعب .

وكان من أكبر العاملين على تكوين الرأى العام اذ نصب نفسه مثلا صالحا من الشجاعة والاقدام والانتصار للحق وكان يحتال في نشر كتبه وآرائه رغما من كل رقابة ، وقد توقع حدوث الثورة منذ سنة ١٧٦٤ قائلا : «إن كل ما أراه يرمى بذر ثورة آتية لا ريب فيها فلقد انتشرت الآراء الحديثة بحيث تؤدّى الى الانفجار في أوّل فرصة» ، وقد استمدّ زعماء الثورة من تعاليم فولتير وروسو المبادئ التي بنيت عليها حقوق الانسان .

كان روسو يقول «ولد الانسان حرا ولكننا نراه فى أغلال من حديد» ، وأن الناس ليسوا قطيعا من الغنم يتصرف فيهم الوالى تصرف المالك ، وأن السلطة الشرعية هى التى ترتكز على تأييد الشعب ، وعلى هذه القاعدة بنى نظرية العقد الاجتماعى التى تقرر أن الناس ما اجتمعوا سويا إلا متعاقدين فى الواقع بشروط تتلخص فى سيادة الارادة العامة فى حدود الصالح العام والحرية والمساواة بين الأفراد لأن كل فرد لم يتنازل عن ارادته إلا لأن الارادة العامة تكفل حريته وحقوقه الطبيعية .

٤

الحالة قبيل الثورة (١٧٨٧ – ١٧٨٩)

ترجع أسباب الثورة الى : (١) كراهية الحكم المطلق والنظام الاجتماعى (٢) فشل وزراء الاصلاح أمثال طورغو ونيكر فى عهد لويس السادس عشر (٣) تنبه الرأى العام (٤) ضعف الحكومة بسبب حالتها المالية والتجائها الى الشعب ضد الأشراف الذين كانوا أكبر سند لها .

كان كالون (Caloune) وزير المالية منذ سنة ١٧٨١ يجرى على سياسة عقد القروض فبلغ ما اقترضه فى ثلاثة أعوام ٤٨٧ مليونا

ثم رأى نفســه تحت دين صارخ يزيد على المـائة مليون وكان «البرلمـان» يعارض فى عمل سلفة جديدة فلم يبق إلا فرض ضريبة على جميع الأملاك بلا استثناء وفكر فى الوقت نفسه فى الاقتداء بسلفه نيـكر وانشاء مجالس مديريات وإلغاء السخرة واحداث اصلاحات متنـــوّعة .

اجتمع «مجلس الأعيان» فى أوئل سنة ١٧٨٧ ، وكان مؤلفا من كبار رجال الدولة فعارض فى مشاريع كالون بحجة الرغبة فى الوقوف على منشأ العجز الحقيق وكان فى الواقع يميل الى رفض أى مشروع يمس الامتيازات فـلم يكن من كالون إلا أن نشر « مذكراته الاصلاحية» فى الجمهور وألح فى وجوب مساواة الجميع فى الضرائب .

وقد عزل كالون بناء على أمر الملكة فى أبريل ســنة ١٧٨٧ وخلفه بريين (de Brienne) فلم يسـعه إلا الجرى على سياســية سلفه فعارض البرلمـان فى الموافقة على أية ضريبة جديدة وقال ان هذا من اختصاص «مجلس الأمة» الذى لم يجتمع منذ سنة ١٦١٤

و يمكن تلخيص الحالة بأن الحكومة كانت تريد توطيد المساواة على الأقـل ، فى الضرائب والمحافظـة على الحكم المطلق بينما كان الأشراف يريدون توطيد الحرية السياسية والمحافظة على اللامساواة .

وقد حدثت مشادّة بين الحكومة والبرلمان ونفى عضوان من البرلمان فاجتمعت برلمانات الأقاليم واحتجت على تصرفات الملكية الجائرة .

وفى ٢١ يوليو سنة١٧٨٨ اجتمع فى «جرينوبل» ٦٠٠ نائب يمثلون الطبقات الثلاث ودعوا المقاطعات الأخرى أن تنضم الى الدوفينه فى مقاومة الظلم والامتناع عن دفع الضرائب حتى يجتمع مجلس الأمة .

ولا ريب أن تنديد أصحاب الامتيازات بالملكية المطلقة والتشهير بمساوئها واعلان حق الأمة القديم فى تقرير الضرائب التى تفرضها الحكومة على الأهالى كان من شأنه تنوير الشعب واعداده للدور الثورى الخطير الذى مثله خصوصا وان «حرية الرأى» قد استفادت من النزاع الذى قام فى الفترة الأخيرة بين الأشراف والملكية فظهرت فى سنتى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ آلاف الصحف والرسائل التى تدافع عن حقوق الشعب وتندّد بالامتيازات والحكم المطلق .

لم يسع الوزير بريين ازاء هذا الموقف إلا الاستقالة (٢٥ أغسطس سنة ١٧٨٨) فأعاد الملك نيكر ارضاء للرأى العام وتهدئة للخواطر .

اجتمع مجلس الملك فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٧٨٨ ووافق على تقرير نيكر المقدم فى نفس اليوم ، وخصوصا دعوة مجلس الأمة الى الاجتماع فى ٥ مايو سنة ١٧٨٩ وكانت نقط التقرير الأساسية :

(١) رد حق الموافقة على الضرائب الى الأمة .

(٢) اجتماع مجلس الأمة بطريقة نظامية يحددها المجلس نفسه .

(٣) تحديد النفقات ومرتب جلالة الملك .

(٤) عرض مسألة «الارادات الملكية» وحرية الصحافة على مجلس الأمة .

(٥) انشاء مجالس مديريات فى جميع أنحاء المملكة .

(٦) مساواة الجميع فى الضرائب .

(٧) مضاعفة عدد نواب الشعب فى مجلس الأمة .

كانت هذه الاقتراحات فى الواقع تتلخص فى حاجة البلاد الى دستور يكفل حرياتها ويشركها فى تدبير شؤونها العامة وقد أيد الملك اقتراحات نيكر ولكن القليلين جدا أمثال ميرابو كانوا واثقين أن الملك سينكث العهد عاجلا .

جرت بعد ذلك الانتخابات وكانت العادة أن الناخبين يحررون « كراسات » لنائبيهم تشتمل على امانيهم وأوجه شكواهم بفكرة عرضها على الملك للنظر فيها .

وقد كانت « كراسات سـنة ٨٩ » (Cahiers de 89) على جانب عظيم من الأهمية لأنها خير مستند يستدل به على حالة البلاد ورغباتها فى ذلك العهد : ولا ريب أن معظم كراسات الطبقة الثالثة "الشعب" و بعض كراسات الأشراف والقساوسـة كانت تطالب بدستور يقيـد الحكم المطلق و يقرّر المساواة فى الضرائب و إلغـاء الحقوق الاقطاعية .

الفصل الثانى

الجمعيـــــة الدســـتورية

١

مجلس الأمة لغـاية سقوط الباسـتيل ـ بدأت الانتخابات فى فبراير سنة ٨٩ وكان عدد نواب الطبقة الثالثة نصف عدد نواب المجلس البالغ عددهم ١٢٠٠، وكان معظم نواب الطبقة الثا لثـة من المحامين والقضاة والموظفين، وكان بينهم بعض رجال الأشراف والقساوسة المشهورين أمثال ميرابو وسيايس الذى أصدر فى يناير سنة ٨٩ رسالته الشهيرة: «ما هى الطبقة الثالثة؟ هى الكل فى الكل ولكنها الى اليـوم لم تكن شـيئا مذكورا وتريد أن تكون شـــيئا» .

ومما يؤسف له أن الملك الذى وعد بالاصلاحات فى سنة ١٧٨٨ لم يحقق وعوده تحت تأثير امرأته النمسوية مارى أنطوانيت وبطانته وكبار القساوسة والأشراف فقام النزاع بينه وبين الطبقة الثالثة التى يمثلها الشعب ومهد بخطته طريق الثورة .

اجتمع مجلس الأمة فى فرسايل فى ٥ مايو سنة ١٧٨٩ فألقى الملك فيه خطبة مبهمة ليس فيها اشارة ما الى الاصلاحات الموعودة مما أثار الشكوك فى خطته ثم حدث نزاع بين الطبقة الثالثة وطبقة الأشراف وطبقة القساوسة اللتين تمثلان أصحاب الامتيازات على طريقة التصويت بالرأس أو بالطبقة وكان ممثلو الشعب يريدون أن يكون التصويت بالرأس وممثلو الأشراف والقساوسة بالطبقة جريا على التقاليد القديمة حتى تكون لهم الأغلبية بالمجلس .

ولما رأى نوّاب الشعب أن لا سبيل الى الاتفاق أعلنوا أنفسهم "جمعية وطنية" فى ١٧ يونيه وشرعوا فى تنظيم سلطاتها وكان ذلك فاتحة القرارات الثورية فعوّل الملك على عرقلة هذه الحركة وأرسل فى ٢٠ يونيه الجند لإغلاق أبواب غرفة الاجتماع فذهب الاعضاء واجتمعوا فى « ملعب التنس » حيث أقسموا "انهم لن ينفضوا وان يجتمعوا فى أى مكان تدعو اليه الظروف حتى يضعوا الدستور ويوطدوه" .

وفى ٢٣ يونيه اجتمعت الطبقات الثلاث وألقى الملك خطبة رجعية تؤيد التصويت بالطبقة[1] وأمر الأعضاء بالانفضاض فبقى

(١) يقتضى التصويت بالطبقة أن يجتمع نوّاب كل طبقة على حدة للمناقشة والتصويت ، ويتألف من الرأى الذى يقرره أغلبية نوّاب الطبقة صوت الطبقة أو أحد الأصوات الثلاثة فى المجلس القديم .

نوّاب الشعب مكانهم حتى جاء رئيس التشريفات ليفضهم فقاوموه وقال ميرابو كلمتــه المأثورة "ان الأعضاء لن يبرحوا مقاعدهم إلا بقوّة الأسنة" .

وفى ٢٤ يونيه انضمت أغلبية القساوسة وأقلية من الأشراف الى نوّاب الشــعب فأصــدر الملك الأمر فى ٢٧ يونيــه باجتماع الطبقات معا والتصويت بالرأس فصارت الجمعية الوطنية من ذلك اليوم تمثل الأمة تمثيلا قانونيا صحيحا .

وفى ٩ يوليه أعلنت الجمعية نفسها "جمعية دستورية" وتفرّغت لإعداد الدســتور بينما كان الباريسيون فى اضطراب ومظاهرات مستمرّة، ولكن الحزب الرجعى وعلى رأسه الملكة وإخوة الملك عوّل على القضاء على هــذه الحركة الدستورية بالقوّة وأخذ يحشد الجند والعسكر الألمــانى والسويسرى فى باريس وفرسايل فتوجس الوطنيون خيفة وقلقوا على مصير الجمعيــة والدستور ثم ما لبثوا أن فوجئوا بعزل نيكر نصير الإصلاح ونفيه فى ١١ يوليه سنة ١٧٨٩

٢

ســـقوط الباستيل — كان الشعب فى سنتى ١٧٨٨ و ١٧٨٩ فى حالة ثورة وكانت الوســيلة الوحيــدة أمام الملكية للخروج من

المأزق المالى والسياسى إحداث الإصلاحات الضرورية التى أشار بها طورغو و نيكر ووزراء لويس السادس عشر منذ بداية الحكم (١٧٧٤ — ١٧٨٨) .

ولكن الملك جرى قبل الثورة و بعدها على سياسة رجعية خرقاء فكان اذا فرض ووافق على إصلاح معين وافق مكرها ولا تلبث أن تعاوده النزعة الرجعية فيعمل على عرقلته . وكان من شأن هذه الخطة التى لا تدل على بصيرة و بعد نظر أن تراكمت أسباب الثورة حتى انفجرت عليه وانحدرت فى طريق العنف فطاحت برأسه وعرشه .

ما كاد الشعب فى باريس يقف على نفى نيكر حتى تحرّك للثورة وهجمت الجماهير المسلحة على الباستيل فى ١٤ يوليه واستولت عليه فكان هذا اليوم فاتحة الثورة وأخذ الشعب يعتد بقوّته لأن الباستيل كان حصنا يهيمن على أهم الأحياء الشعبية فى باريس وكان سجنا اكتسب شهرة عالمية بضحايا الظلم والاستبداد فكان أخذه انتصارا للثورة السياسية والحرية وكان من جهة أخرى حدّا للثورة السلمية التى ابتدأت فى ٥ مايو سنة ٨٩ وانقلب مجلس الأمة فى أثنائها الى جمعية وطنية (١٧ يونيه) ثم الى جمعية وطنية دستورية (٩ يوليه) .

ولا ريب أن انتصار الشعب جعل القوة المادية فى جانب الجمعية ، ومن ذلك الوقت أخذ «النظام القديم» الذى كانت قواعده الحكم المطلق والامتيازات يتداعى ويحل محله نظام جديد قائم على العدل والحرية والمساواة .

اعترف الملك بخذلانه فأعاد نيكر ثانية ، وتألفت فى باريس فى أثناء ثورة الشعب بلدية جديدة وحرس أهلى عهد برياسته الى القائد لافاييت (فى ١٥ يوليه) ، ثم ما لبثت جميع مدن فرنسا أن اقتدت بباريس فى إنشاء بلدية وحرس أهلى ، وتألفت فى العاصمة والمدن مجالس « كومون » وهى جمعيات ثورية قامت الى جانب البلديات وفى دارها ولعبت دورا كبيرا فى الثورة .

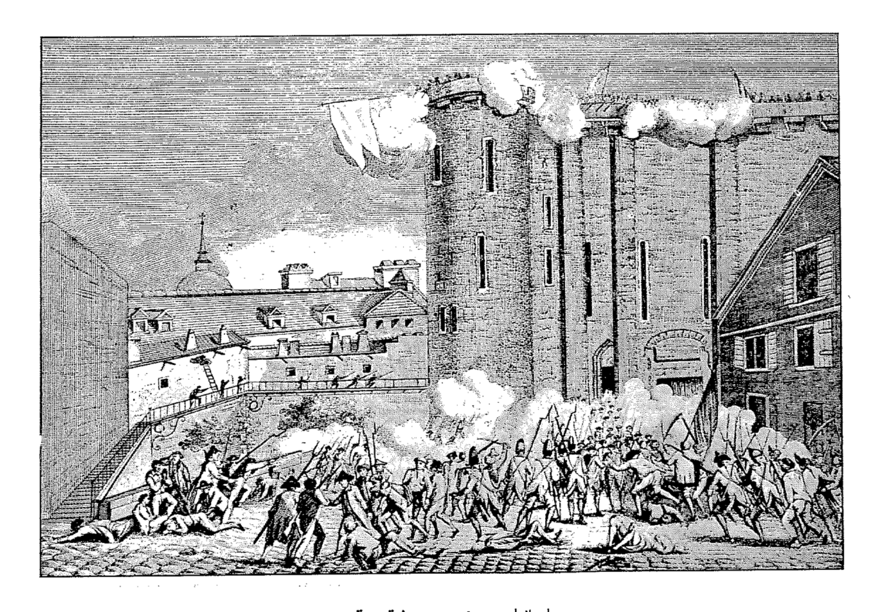
وقد اضطربت الأقاليم والبلاد على أثر سقوط الباستيل وهجم الريفيون على قصور الأشراف فى بعض الأماكن فأحرقوها وأحرقوا الصكوك القديمة التى كانت تثبت الحقوق الاقطاعية .

انتشرت الفوضى فرأت الجمعية أمام الأمر الواقع أن تسجل نتائج الثورة فقرر بعض النواب الأشراف والقساوسة فى ليلة ٤ أغسطس التنازل عن الامتيازات والحقوق الاقطاعية فوافقت الجمعية بحماسة لا توصف وقام فى تلك الليلة مبدأ المساواة وانتصرت الثورة الاجتماعية .

ثم شرعت الجمعية فى بناء المجتمع والحكومة على قواعد جديدة مقررة فى مبادئ تكون فى رأس الدستور، وقد وضعت هذه المبادئ واتفقت عليها فى ٢٦ أغسطس فى «إعلان حقوق الانسان»، وهذا أهم ما اشتملت عليه : —

(١) يولد الناس و يعيشون أحرارا متساوين فى الحقوق لا تمييز ولا تفاضل بينهم إلا فيما تقتضيه المصلحة العامة ... (٢) هـذه الحقوق هى الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم... (٣) ان الأمة مبدأ كل سيادة وأصل كل سلطة...(٦) ان القانون هو مظهر الارادة العامة ولأهل البلاد جميعا حق الاشتراك فى وضـعه والناس سواء أمام القانون وأمام المراتب والوظائف العامة لا تفاضل بينهم الا فى اختلاف الكفايات والمواهب . (٧) لا يصح اتهام انسان أو حبسه أو القاء القبض عليه الا فى الأحوال المبينة فى القانون . (١١) حرية الرأى والفكر من حقوق الانسان المقدسة بشرط أن لا يسـوء استعمال هـذه الحرية فى الحدود التى بينها القانون . (١٢) السلطة العمومية منشأة لمصلحة المجموع لا لمصلحة من يوكل اليهم ادارتها . (١٣) المساواة فى الضرائب . (١٤) تقرير الضرائب بواسطة أهل البلاد أو نوابهم . (١٥) حق الهيئة الاجتماعية فى محاسبة كل موظف عمومى ومراقبته . (١٦) الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية اهـ .

هذه هى المبادئ الأساسية التى بنى عليها الدستور وهى خلاصة فلسفة القرن الثامن عشر وقاعدة جميع الدساتير الحديثة .



حصار الباستيل في ١٤ يولية سنة ١٧٨٩

(صورة المانية ظهرت فى عصر الثورة)

٣

النظـام الجـديد ــ كان لويس السادس عشر يعارض فى الموافقة على «إعلان حقوق الانسان» وأخذت بطانته تدبر من جديد حركة عسكرية لارجاع العهد القديم وكان الشعب فى باريس يشكو الجوع وقلة الخبز فلما علم تحرّش الجنـد بالأمة ثارت ثائرته فتألفت فى ٥ أكتوبر عصابة من العمال العاطلين وسبعة أو ثمانية آلاف امرأة مسلحة يجرون المدافع وقصد الجميع فرسايل، وفى المساء ظهر وفد من النساء فى الجمعية وشكا غلو المعيشة وإهانة الأمة، فلما عاد الملك من الصـيد فى ذلك اليوم بادر بالموافقـة على القرارات التى أصدرتها الجمعية منذ ٤ أغسطس .

ولكن الشعب هجم فى صبيحة اليوم التالى على القصر الملكى وقتل الحرس ودخل على مارى أنطوانيت فى حجرتها ففـرّت الى الملك الذى قرّر فى الحال، تهدئة للشعب، الانتقال من فرسايل هو وأسرته الى قصر «التويلرى» فى باريس، وبعد أيام قلائل تبعته الجمعيـة فيها . وقـد اشتركت الكومون أو البلدية فى تدبير حركة ٥ و ٦ أكتوبر وصـار شعب باريس من ذلك الوقت صاحب القوّة الفعلية فى الثورة .

كانت مهمة الجمعية الأساسية بعد إعلان الحقوق الاشتغال بإعداد الدستور وبناء النظام الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية على قاعدة المبادئ المعلنة : كان لأثر إعلان الحرية الشخصية قلب النظام القضائى القديم الذى طالما ندد به الفلاسفة فألغت الجمعية الاستبداد القضائى وأحاطت المتهم بالضمانات الكافية وأحلت فى القضايا الاجراءات الكتابية محل الاجراءات الشفوية ، ونقلت عن انجلترا نظام المحلفين فى القضايا الجنائية ، وأنشأت محاكم الأخطاط فى الأقاليم ، ومحكمة مدنية فى كل مركز ومحكمة جنائية فى كل مقاطعة ، ومحكمة نقض وإبرام فى باريس ، وقررت انتخاب القضاة ، وشرعت فى وضع مجموعة قوانين متفقة مع المبادئ الجديدة . وتمكنت بذلك من تغيير النظام القضائى وتبسيطه ، وقررت حرية الصناعة والتجارة بعد أن كانت محتكرة فى أيدى بعض الطوائف والأفراد .

وأطلقت حرية الرأى ، وحرية الدين ، وحرية الصحافة فانتشرت الصحف : أصدر مارات زعيم الغوغاء «صديق الشعب» وبريسو زعيم الغيروند السياسى «الوطنى الفرنسى» وديمولان المحامى الذى حرّض على الثورة والاستيلاء على الباستيل « ثورات فرنسا » والميرابو خطيب مجلس الأمة «بريد الجنوب» ، وقد استمرت حرية مصحافة من غير قيد لغاية ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢

وعنيت الجمعيــة بتنظيم المساواة فصارت الوظائف من حق الجميع ، واكتسب البروتستانت الحقوق السياسية ــ وكانوا لا يملكون إلا الحقوق المدنيــة منذ سـنة ١٧٨٧ ــ وصار اليهود فى عداد الوطنيين وكانوا فى عداد الغرباء ، وكانت بعض المناصب تبـاع فيستأثر بهـا الغنىّ ويحرم منها الفقير فألغى البيع ، وأصـبح جميع الوطنيين سواء فى الضرائب فسقط الامتياز، ولمـا كان لا يجوز لطائفة من الوطنيين أن تفرض ضرائب على وطنيين آخرين ألغيت الحقوق العشورية التى كانت تتقاضاها الكنيسة من الأهالى وألغيت التكاليف التى كان الأشراف يضربونها على الفلاحين ، وتقرر أن يحاكم جميع الفرنسيين طبقا لقانون واحد يجزى على الجريمة بعقوبة واحدة، وألغى امتياز الأكبر سنا من الأبناء فى الميراث .

ومن أعمال الجمعية إيجاد الوحدة الادارية بعد الوحدة القانونية فقد كان لكل مقاطعــة قوانين وعادات ومحاكم خاصــة ، وكانت التقسيمات الادارية لا تراعى فيها مصلحة السكان ولا طبيعة البلاد، وكانت فرنسا شعوبا متفرقة تغار على ذاتيتها فكانت هناك « الأمة البريتانيــة » وكانت بريتانيا واللورين ومقاطعات فرانسا الجنوبية يطلق عليهـا « المقاطعات الأجنبية » : قسمت الجمعية فرنسا الى ٨٣ مقاطعة مقسمة بدورها الى مراكز وأخطاط وعهد بالادارة،

لا الى موظفين تعينهم الحكومة المركزية ، ولكن الى نواب تنتخبهم المجالس المحلية فى الأخطاط "كومون" و "المجالس المركزية" فى المراكز و"مجالس المقاطعات" فى المقاطعات .

ولا ريب أن وجود هذه الوحدة الادارية والسياسية والقانونية من أجل مفاخر الثورة . كان رابو سانت إتيان ، الذى نص فى دستور سنة ١٧٩١ « أن المملكة واحدة لا تتجزأ » ، يقول : « ان اجتماع جميع المقاطعات تحت قانون واحد وإدارة موحدة فكرة خيالية » .

ولا ريب أن الوحدة الروحية التى أوجدتها الثورة فى ظل مبادئها كان من شأنها إحكام الوحدة المادية التى ربطت البلاد فأحس الفرنسيون أنهم أفراد أسرة واحدة وأنهم أمة .

وقف تاليران النائب فى فبراير سنة ١٧٩٠ يعدّد مآثر الجمعية الوطنية فقال : « كانت حقوق الانسان مجهولة فأعلنت ، وكانت الأمة فقدت حق إبداء الرأى فى القوانين والضرائب فردّ اليها ، وكانت هناك امتيازات لا عدد لها يتألف منها قانوننا العام فألغيت ، وكان فى طول البلاد وعرضها حقوق إقطاعية مرهقة فمحيت ، وكنتم تريدون القضاء على بيع المناصب فألغى البيع ، وطالبتم باصلاح القوانين الجنائية فتقرّر إصلاحها ، وستؤلف مجموعة قوانين مدنية

تحل محل تلكم القوانين المختلطة، الغامضة، المتناقضة . وأنجزت الجمعية تقسيم المملكة الجديد الذى محا البقية الباقية من آثار الخلاف القديمة واحل حب الوطن مكان الحب الذاتى فى المقاطعات ،. وسنختم أعمالنا بوضع قوانين للتربية والتعليم تجعل الدستور فى حراسة الأجيال الناشئة » .

ومن أعمال الجمعية ما كان له أثر كبير فى حياة البلاد الاجتماعية والسياسية : كانت الكنيسة تملك فى فرنسا خمس الأرض تقريبا وكان منشأ هذه الثروة الأراضى التى يتركها أصحابها وقفا على أعمال البرّ والتقوى ثم تقادمت السنون فتصرف رؤساء الكنيسة فى الأرض تصرف المالك يترفون ويبذرون بينما لا يجد عشرات الآلاف من صغار القساوسة فى الأقاليم مسكة الرمق (كان أولئك القساوسة من أكبر أنصار الثورة) وقد رأت الجمعية الوطنية أن السبيل الوحيد لتفريج الضائقة المالية وضع أملاك الكنيسة تحت تصرف الأمة و بيعها (٢ نوفمبر سنة ١٧٨٩) وأن تتولى الحكومة إعانة الفقراء والانفاق على العبادة وأن تبدأ باصدر قراطيس مالية بقيمة أربعمائة مليون مضمونة برهن تلك الأملاك ، ومن ذلك الوقت بدأت تتكوّن طبقة ملاك جديدة فى الريف تؤيد النظام الجديد وليد الثورة حتى جاء نابليون فأقرّ قواعده الاجتماعية .

دستور سنة ١٧٩١ — اشتغلت الجمعية منذ يوليه سنة ١٧٨٩ بوضع الدستور وفرغت من المواد الأساسية فى فبراير سنة ١٧٩٠ فأقره الملك ثم أدخلت فيه تعديلات وصدر فى صيغته النهائية فى سنة ١٧٩١ وأهم قواعده الفصل بين السلطات (نظرية مونتسكيو) فعهد بالسلطة التنفيذية الى «ملك الفرنسيس» الذى صار له الحق فى قيادة الجيوش وتعيين الموظفين واختيار الوزراء (خارج هيئة المجلس) ومنح حق الاعتراض "الفيتو" المحدود، لا المطلق كما كان يطلب ميرابو، وهو يحول دون تنفيذ القانون إلا اذا وافقت عليه ثلاث هيئات تشريعية متتابعة فانه يصير نافذا رغم اعتراض الملك .

وعهد بالسلطة التشريعية الى جمعية واحدة (٧٤٥ نائبا منتخبا لمدّة سنتين)، ولم يجر انتخاب الجمعية الجديدة على قاعدة «التصويب العام» الديموقراطية أى بواسطة جميع الوطنيين، ولكن قام الانتخاب على قاعدة النصاب بشروط معينة يجب أن تتوافر فى الناخبين والنوّاب .

الحركة السياسية والأحزاب — لم يكن فى داخل الجمعية الأهلية أحزاب بالمعنى الصحيح وكل ما فى الأمر انه كان هناك طائفة من أنصار الملكية، وكانت الأكثرية فى الشمال يطلق

عليهم «الوطنيون» وهم درجات : منهم القسيس سيايس ، والقائد لافاييت ، والمطران تاليران ، والقانونيون كاموس وطورات وطرنشات و برناف والخطيب السياسي ميرابو الذى كان يريد ملكية قوية شعبية ، وكان فى أقصى الشمال الديموقراطيون روبسبيير ، وبيزو ، وبسيون ولكن لم يكن لهم فى الجمعية نفوذ يذكر (١) .

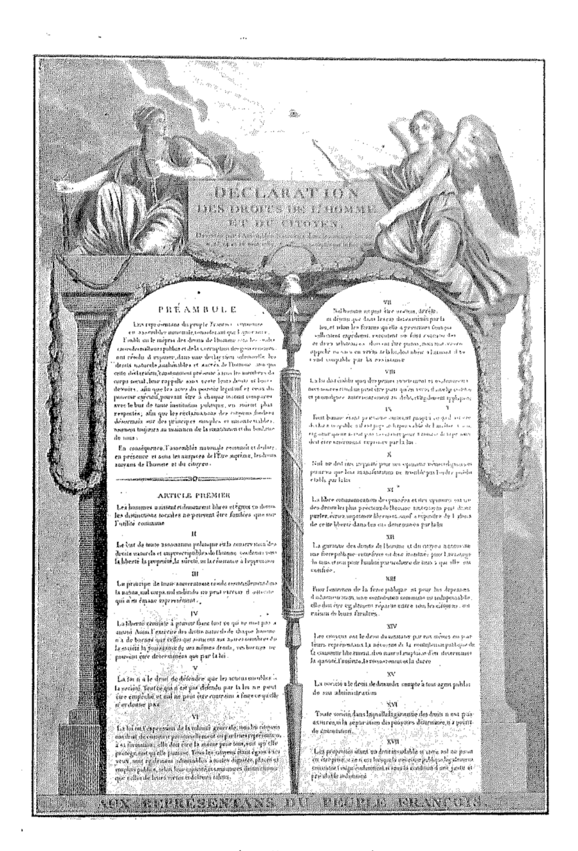
(١) كان أهم أعضاء الجمعية الوطنية سيايس وميرابو ، وكلاهما لعب دورا كبيرا فى بداية الثورة منذ الحركة الانتخابية حتى ظهر الغلاة فى الوطنية والمتطرفون الذين بدأ الشعب يلتف حولهم خصوصا عند ما أحس بخطر الروح الرجعية من ناحية البلاط .

سيايس (١٧٤٨ — ١٨٣٦) — كان سيايس من رجال الأكليروس وقد أظهر قبيل اجتماع « مجلس الأمة » رسائل عديدة يدافع فيها عن الآراء الجديدة وحقوق الشعب كان لها أثر كبير فى تكوين الرأى العام ، وقد انتخب فى المجلس نائبا عن الطبقة الثالثة فى باريس فصار العامل الأكبر فى إظهار أهمية هذه الطبقة وحمل الجمعية على اتخاذ اجراءات ثورية كان لها الفضل الأول فى تقويض الاستبداد ، فهو الذى اقترح على الطبقة الثالثة فى ١٧ يونيه أن تعلن نفسها جمعية وطنية «باعتبارها مؤلفة من نواب يمثلون ٩٦ فى المائة من الأمة» ، وهو الذى حرّر اليمين الدستورية (يمين ملعب التنس) فى ٢٠ يونيه ، واشترك فى صوغ اعلان حقوق الانسان ، وتقسيم فرنسا الجديد الذى قضى على التفرقة بين المقاطعات وامتيازاتها . وكان أحد مؤسسى « النادى البريتانى » ، وهو من أكبر مشرعى الثورة وساستها وقد عاش فى عزلة فى عصر الارهاب ثم دخل مجلس الخمسمائة وحكومة الادارة وساعد نابليون فى قلب الحكومة و إنشاء القنصلية و وضع دستور جديد (١٧٩٩) ولكنه فقد نفوذه الحقيقى الذى تجلى فى عصر الثورة الأوّل .

ميرابو (١٧٤٩ — ١٧٩١) — كان ميرابو أخطب خطباء الثورة ومن ساستها المعدودين ، واسع العلم والتجارب ، فاسد الخلق أنفق المال والحياة فى التهالك =

وكانت جلسات الجمعية يومية يحق للجمهور حضورها فكان كثيرا ما يقوم بمظاهرات عنيفة تدبرها الكومون أو بعض الزعماء للتأثير فى الجمعية وحملها على إصدار قرارات أو اتباع خطة معينة .

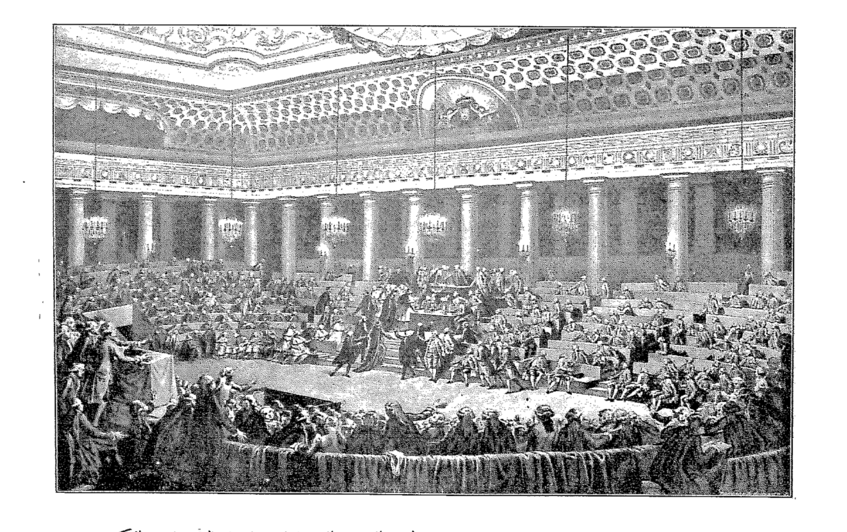
= على اللذات حتى أفنته وهو فى ضحوة العمر . كان شبابه مملوءا بالعواصف والآثام وقد تراكمت عليــه الديون فسجنه أبوه زمانا ثم هرب الى هولندة مع عشيقته فألقى القبض عليه وأعيد الى السجن ، وأخيرا كافه الوزير كالون بمهمة سياسية فى بروسيا (١٧٨٧) وظهرت له كتابات سياسية كثيرة حملت الطبقة الثالثة فى مدينة إكس على انتخابه نائبا عنها فصار زعيم الشعب المتنوّر وخطيبه فى المجلس ، وهو صاحب الكلمة المأثورة فى ٢٣ يونيه ، وكانت له مواقف خطابية جليلة تدل على واسع علمه وخبرته بالشئون التى يعالجها حتى لقب « بديموستين الفرنسى » ، وكان فى بداية الثورة أجرأ مصلح وألد خصوم البلاط ولكنه اتصل به وبالملكة ابتداء من ٣ يوليه سنة ١٧٩٠ وأخذ من الملك مبالغ كبيرة ولكنه كان يعمل عن عقيدة لتوقعــه حدوث كارثة عاجلة بسبب تطرف الثورة وخروجها عن الجـادة وكان يريد ملكية قوية تستند الى الشعب ويترك فيها نصيب كبير من المسئولية للسلطة التنفيذية ولذلك كان فى الجمعيــة من أكبر أنصار منح الملك حق السلم والحرب وحق الفيتو (الاعتراض على قرارات الجمعيــة أو وقفها) ولعل غلطة ميرابو الأساسية أنه نسى أن الملك كان منذ البداية عدو الثورة وعدو الدستور وكل إصلاح فكان لا يمكن والحالة هذه أن تجد الأمة « ملاذها فى ظل التاج بدلا من الجمعيــة » . على أن بطانة الملك كانت لا تثق بميرابو ولا تعمل بمشورته ، كتب لهــا خمســين مذكرة تدل فى مجموعها على بعــد نظر وفطنة أدلى فيها بالوسائل التى تعلى من شأن الملكية فى أعين الشعب ولكن الملكة أعرضت عن آرائه ، ظهرت عليــه عوارض تسمم الدم فى ٢٧ مارس وعاجلته المنيــة فى ٢ أبريل سنة ١٧٩٠ وهو يقول : « انى أحمل معى حداد الملكية التى ستصير بقاياها فريسة الشيع » وقد جزع لفقده الشعب وجميع الطبقات .



اعلان حقوق الانسان

فى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٨٩ قررت الجمعية الوطنية بعد مناقشات طويلة الموافقة على اعلان حقوق الانسان فكانت « قانون المشرع » على حد قول تاليران وفتحا جديدا فى تاريخ الانسانية

يرى القاريء في اعلى الصورة لوحة مكتوب عليها « اعلان حقوق الانسان والوطن التى قررتها الجمعية الوطنية فى ٢٠و٢١و٢٣و٢٤و٢٦ اغسطس سنة ١٧٨٩ ووافق عليها الملك » وعلى يمين اللوحة فرنسا وقد كسرت اغلالها ، وعلى اليسار صورة رمزية تمثل القانون مشيرا باصبعه الى حقوق الانسان وبصولجانه الى عين العقل الرفيعة « التي جاءت تبدد سحب الضلالة »



جلسة ليلة ٤ اغسطس سنة ١١٨٩ فى فرسايل : هي الجلسة الشهيرة التى تنازل فيها ممثلو الأشراف والكهنوت عن امتيازاتهم وسط حماسة لامثيل لها . قال المؤرخ ميشليه : « لم يتجل الخلق الفرنسي قط في صورة أروع من هذه الصورة . حساسية سريعة التأثر وسماحة وكرم فى حماسة تفوق كل وصف » . على ان هذه السماحة التى كانت وليدة الحماسة الوقتية لم تدم طويلا

واضع هذا الرسم مونيه Monnet

وقد جرى الساسة فى خارج الجمعية على العادة الانجليزيه فى انشاء النوادى السياسـية وأهمها "نادى اليعاقبة" : كان هذا النـادى فى البداية مكونا من نواب مقاطعة بريتانيا وكان اسمه « النـادى البريتانى » فلمـا انتقلت الجمعيـة من فرسايل الى باريس استأجر أعضاء النادى مكانا فى دير اليعاقبة فسموا باليعاقبة (Jacobins) ثم انضم اليهم الكثيرون من غير النوّاب من وجهاء الطبقة المتوسطة ورجال الأدب والقانون، وتألفت جمعيات فرعية كثيرة فى الأقاليم تبلغ الأربعمائة فتمكن النادى بفضل هيئاته المنظمة فى أنحاء المملكة من نشر الدعوة وتأييد النظام الملكى الدستورى الجديد، وقد انضم روبسبيير فى أواخر سنة ١٧٩١ الى اليعاقبـة وما لبث أن أصبح الزعيم الذى تنقاد له الجماهير فألقت الثورة اليه زمامها .

أنشئ "نادى الكرادلة" (Cordeliers) بعـد نادى اليعاقبة (١٧٩٠ — ١٧٩٤) فكان أعضاؤه من أكثر الفرنسـيين تطرفا فى الديموقراطية وكانوا ينعون على الدستور التفرقة بين الوطنيين فى الانتخابات وامتياز الأغنياء فيها، وهـذا النـادى منشأ الحركة الديموقراطية الجمهورية فى سـنة ١٧٩٢ وأشهر أعضائه دانتون، وديمولان، وفابرد جلنطين، ومارات، وهيبرت، وكلوتز، وڤنسان، وكانوا فى نزاع مستمر مع الجمعية الدستورية وهم أوّل من جرى على

خطة المزايدة فى المطالبة بتحقيق «الثورة الكاملة» وتطبيق مبادئها ، وكان الكثيرون من أعضاء النادى فى الوقت نفسه أعضاء فى نادى اليعاقبة .

وكانت أغلبية الجمعية مؤلفة من الدستوريين أو حزب الوسط الذين وضعوا دستور (٨٩ — ٩١)، ومن زعمائهم القسيس سيايس وكثيرون من كبار الأشراف والعلماء الذين كان يحترمهم الشعب حتى حدثت القطيعة بينه وبين الملك على أثر شروعه فى الهرب .

٤

النزاع بين الثورة والملك — كانت أغلبية الجمعية الوطنية معتدلة تعمل باخلاص منذ أواخر سنة ١٧٨٩ على تطبيق المبادئ الجديدة ولكن سوء تصرف الملك والقوى الرجعية كان من شأنه اضعاف الحزب المعتدل وتقوية المتطرفين الذين ما لبثوا أن قضوا على الملكية فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٢

وكانت القوى الرجعية تتألف من أصحاب الامتيازات والكهنة والملكة ورجال البلاط وجميع أولئك الذين كانوا يتمتعون بمزايا العهد القديم، وكانت طائفة من الأشراف هاجرت تؤلب الدول على فرنسا لتعيد الأمن وسلطة الملك فيها .

وكان دأب الرجعيين فى صحفهم التنديد بالفوضى الإدارية التى ظهرت فى عصر الثورة الأول ، عصر الانتقال ، وتحريض الملك على إلغاء الجمعية الدستورية أو على الأقل استعمال حق الاعتراض "الفيتو" على قوانينها .

وكان الكثيرون لغاية منتصف سنة ١٧٩٠ لا يزالون يرجون بقاء الثورة فى دائرة الاعتدال و إمكان التوفيق بينها و بين الملكية : وآخر مظهر لإتحادهما فى تأييد النظام الجديد الاحتفال فى ١٤ يوليه سنة ١٧٩٠ بذكرى سقوط الباستيل وهو ما يسمونه "عيد المؤاخاة" وذلك أن الأحراس الأهلية فى المقاطعات المختلفة بعد ثورة يوليه سنة ١٧٨٩ إعتادت أن تتآخى فى الأعياد المحلية ، ومن هنا نشأت فكرة عيد قومى يتآخى فيه نوّاب المقاطعات الفرنسية جميعها ، رمزا الى الوحدة والحرية والاخاء ، وقد احتفل بهذا العيد فى ساحة شان دى مارس فى يوم مشهود حضر فيه ١٤٠٠٠ مندوب عن الأحراس الأهلية وأقسموا يمين الولاء للأمة والقانون والملك ، وأقسم لافاييت قائد الحرس الأهلى والملك بين تهليل الشعب وتكبيره يمين المحافظة على الدستور .

ولكن هذا الوفاق بين الأمة ومليكها لم يدم طويلا لأن الثورة قيدت سلطته وجرت مع الإكليروس على سياسة جرحت

عاطفته الدينية وأدت الى القطيعة : وذلك أن الجمعية الدستورية منذ نوفمبر سنة ١٧٨٩ استولت على أملاك الكنيسة وتعهدت مقابل ذلك بمنح الكهنة مرتبات متناسبة فلم يبال صغار القساوسة بهذا القرار الذى أثار حفيظة الرؤساء، ثم أصدرت الجمعية فى يوليه سنة ١٧٩٠ "لائحة الإكليروس المدنية" التى حدث من جرائها إنقسام فى الكنيسة وسخطت الأكثرية فيها على الجمعية لأن اللائحة الجديدة تجاهلت سلطة البابا فى تعيين رؤساء الإكليروس وجعلت الكنيسة مستقلة عنه وانقصت دوائر المطارنة بطريقة تتلاءم مع النظام الإدارى الجديد فاحتج المطارنة على الجمعية لأنها فى الواقع حرمتهم من الأملاك والامتيازات فلم يكن منها إلا أن حتمت على جميع القساوسة يمين الطاعة للدستور (نوفمبر سنة ١٧٩٠) فرفض آلاف منهم واضطر البابا فى أبريل سنة ١٧٩١ الى اعلان عدم موافقته على هذه اللائحة ومن ثم حدثت اضطرابات دينية منشؤها النزاع بين القساوسة الدستوريين والقساوسة الذين لم يقسموا اليمين وازداد من ذلك الوقت حنق الوطنيين على القساوسة باعتبارهم أعوان الحزب الرجعى وأخذوا يضطهدونهم، وقد تأثر الملك، وكان تقيا دينا، باعلان البابا فقاطع الجمعية وعوّل على الهرب واعلان الحرب المدنية .

٥

هرب الملك — كان الملك منذ أواخر سنة ١٧٩٠ يفكر فى الهرب ويدبره سرا مع بطانات الحكومات الأجنبية وأخيرا عوّل على إنفاذ خطته فى ليلة ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١ بالاتفاق مع بويل (Bouillé) قائد جيش الموزيل الذى كان ينتظره فى متز ولكن الملك انكشف أمره فى الطريق فألقى القبض عليه فى ثارين وأعيد الى باريس فقرّرت الجمعية الدستورية وقفه عن العمل وحلت محله مؤقتا فى تصريف الشؤون العامّة (من ٢١ يونيه لغاية ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١) .

كان لهذا الهرب أثر سيئ فى الرأى العام الذى رأى فيه خروجا من الملك على الأمة فى محنتها وخيانة صريحة فظهرت الحركة الجمهورية فى نادى الكرادلة وأخذ زعيمها كوندرسيه يطالب بإلغاء الملكية ، وكان رؤساء اليعاقبة أمثال روبسبيير ودانتون يقتصرون على المطالبة بعزل الملك ومحاكمته .

ومن الثابت أن هرب الملك ذكر الفرنسيين كافة بأخطاء الملكية منذ عهد لويس الرابع عشر وسوء تصرفها ، وحدث من ذلك

الوقت النزاع بين الأحزاب والزعماء والجمعية على السلطة التى يجب أن تحل من الآن فصاعدا محل السلطة الملكية التى فقدت هيبتها .

كانت الجمعية تخشى تسلط العناصر المتطرفة على الثورة فحاولت تبرئة الملك وإلقاء مسؤولية هربه على أعوانه ولكن أعضاء حزب الشمال المتطرف المؤلف من اليعاقبة والجمهوريين أو أعداء الملكية أمثال بيزو ، وروبسبيير ، وبسيون ظهروا بعد فارين فى الصف الأول وطالبوا بخلع لويس السادس عشر فلما لم يفلحوا شنوا الغارة على السلطة التنفيذية واتهموا أكثرية الجمعية بالتآمر مع السراى وأخذوا يطالبون بتعديل الدستور طبقا لمبادئ سنة ١٧٨٩ فاشتهروا بين العامة .

ومما ساعد على توسيع الهوة بين الدستوريين المعتدلين الذين كانوا الحزب الغالب فى الجمعية وبين الجمهوريين الديموقراطيين الذين كانوا الحزب الغالب فى نادى الكرادلة أن دانتون وروبيرلند ونفرا من الديموقراطيين دفعوا الشعب فى يوم ١٧ يوليه سنة ١٧٩١ الى القيام بمظاهرة فى ساحة الشان دى مارس للمطالبة بخلع الملك فأعلنت الجمعية الأحكام العرفية وأمرت الجنود باطلاق النار على جموع المتظاهرين والقاء القبض على بعض الكرادلة واغلاق

الصحف المتطرفة وما لبثت أن أحدثت تعديلا فى الدستور أدّى الى زيادة النصاب الانتخابى والسلطة الملكية، ثم ردت الى الملك فى ١٤ سبتمبر وظيفته بعد أن أقسم يمين المحافظة على الدستور .

وفى ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩١ أعلنت الجمعية أن مهمتها قد انتهت وكانت قررت من قبل أنه لا يجوز انتخاب أى عضو من أعضائها فى الجمعية التشريعية الجديدة .

الفصل الثالث

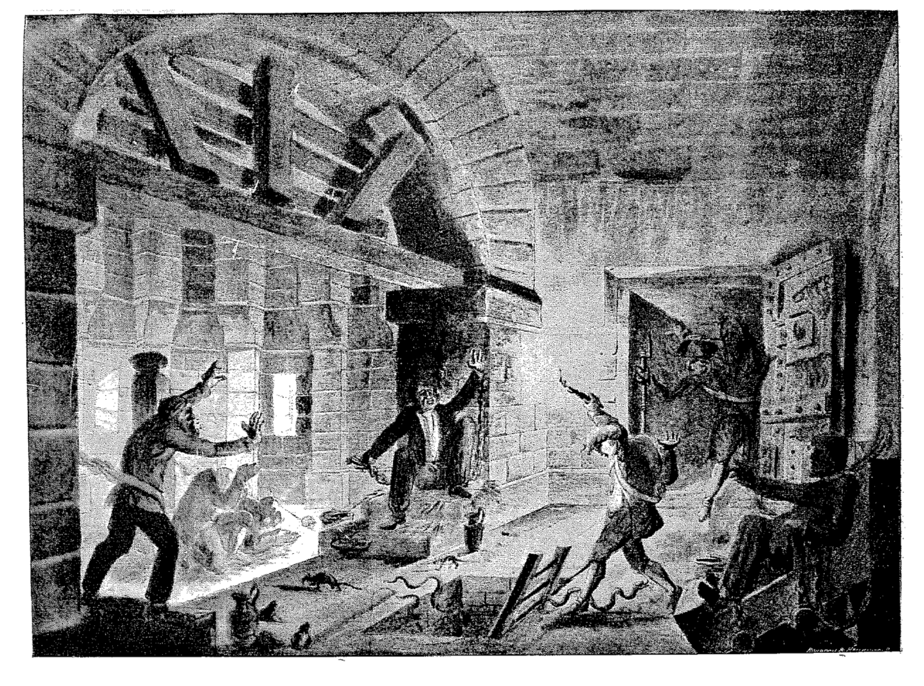
الجمعيـــة التشريعيـــة

(أول أكتوبر سنة ١٧٩١ — ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢)

أ

الجمعيـــة والأحـــزاب والملك — حدثت انتخابات الجمعية التشريعية على قاعدة النصاب طبقا لدستور سنة ١٧٩١ فلم يدخل فيها روبسبيير، ومارات، ودانتون زعماء اليعاقبة الذين كانوا أعضاء فى الجمعيـــة السابقة وكانت أغلبية النواب لا يتجاوز عمرهم الثلاثين بينهم أربعمائة محام (أكثر من نصف الأعضاء) .

كان حزب اليمين فى الجمعيـــة مؤلفا من الملكيين الذين يريدون انفاذ الدستور بدقة وحصر الثورة فى دائرة الاعتدال، وكان يؤيدهم فى الخارج "نادى الفيّان" وهم طائفة من اليعاقبة انفصـــلوا عن زملائهم على أثر هرب الملك والقاء القبض عليه، وأشهرهم لافاييت، بايلى، برناف، ولاميت وظل هـــذا النادى حتى ســـقوط الملكية (يوليه سنة ١٧٩١ — ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢) .



(منظر الباستيل من الداخل)

وكان حزب الشمال مؤلفا من اليعاقبة الذين لا يثقون بالملك ويعملون على تقييده وتوسيع سلطة الجمعية : زعيمهم السياسى بريسو، وخطيبهم فرنيود، وفيلسوفهم كوندرسيه، وأكثرهم نواب عن مقاطعة الغيروند، وكانوا يسمون "الغيرونديون" (Girondins)

وكان فى الشمال الأقصى أعضاء من نادى الكرادلة الجمهورى يطلق عليهم "الجبل" لأنهم كانوا يجلسون فى أعلا المقاعد وأشهرهم شابو وكوتون وبارير .

والواقع أن اليعاقبة كانوا أقلية (نحو ١٥٠) ولكنهم كانوا يستندون الى الأندية والبلديات والقوى الشعبية ويتمكنون كثيرا بفضل نفوذهم من حمل حزب الوسط على الانضمام اليهم وتكوين أغلبية فى الجمعية خصوصا وأن خطة الملك كانت تبعث على السخط .

على أن الشعب لم يهتم بهذه الألوان الحزبية المختلفة وقسم النواب الى طائفتين : الوطنيين والارستوقراطيين .

كان شغل الأحزاب الشاغل سياسة البلاط الذى كان يدبر الدسائس فى الجمعية ويؤيد كل حركة رجعية فى الداخل والخارج : عمل القساوسة فى الداخل على بث الفتن والقلاقل فى مقاطعات غرب فرانسا حيث كان الأهالى شديدى التعلق بالاكليروس

والدين الكاثوليكي . وكانت حركة المهاجرة قوية بين الأشراف وضباط الجيش مما أزعج الجمعية لأن الأمير كونديه ألف على الرين فى « قوبلنسية » جيشا من المهاجرين تحت قيادته وأخذ يحرض مع أخوى الملك (لويس الثامن عشر وشارل العاشر فيما بعد) الأمبراطور وملك بروسيا على الدخول فى الحرب ضدّ الثورة .

فى ٩ نوفمبر سنة ١٧٩١ أصدرت الجمعية مرسوما تعلن فيه أن المهاجرين الذين لا يعودون الى بلادهم لغاية أوّل يناير سنة ١٧٩٢ يحاكمون بتهمة التآمر على الوطن ويكون جزاؤهم الموت ومصادرة أملاكهم، ولكن الملك لم يوافق على هذا المرسوم وأعلن فى ١٢ نوفمبر اعتراضه عليه .

وفى ٢٩ نوفمبر أصدرت الجمعية مرسوما آخر يحتم على القساوسة الذين لم يقسموا اليمين الوطنية أن يقسموا وإلا اتهموا بالتآمر وكان جزاؤهم السجن، فاستعمل الملك حق الفيتو ضدّ مراسيم الجمعية وحجته أنها مخالفة لاعلان حقوق الانسان والدستور، وأخذ يزيد من الحرس الملكى الذى قرّرت الجمعية الدستورية أن لا يزيد عدده عن ١٨٠٠ فبلغ ٦٠٠٠ فى بداية سنة ١٧٩٢

أيقن الرأى العام أن الملك وامرأته النمسوية على وفاق مع أعداء الوطن، وتحرّجت الأمور فوقفت جباية الضرائب ، ونزلت

قيمة القراطيس المالية، وانتشر الغلاء بينما كانت أوروبا تمعن في سياستها العدائية فأحست البلاد أن ريحا عاتية تسوقها الى الحرب والخروج من هذا الموقف الغامض .

٢

مقدمات الحرب — بدأت فكرة الحرب تختمر بينما كان الملك يعمل جهده فى اكتساب الوقت وعرقلة سياسة الجمعية بالفيتو اعتمادا على تدخل النمسا التى كانت الحاشية تفاوضها سرا .

وقد حدثت مناقشات كبيرة فى نادى اليعاقبة بخصوص الحرب فى أواخر سنة ١٧٩١ أو وائل سنة ١٧٩٢ فانقسموا على أنفسهم وكان بريسو وأصدقاؤه نواب الغيروند يريدون محاربة النمسا التى تمد المهاجرين بالمساعدة و يروّجون مبدأ نشر الدعوة الثورية وتحريض الشعوب على الملوك وكان روبسبيير يخشى أن يكون فى الحرب القضاء على الثورة .

و يظهر أن الغيرونديين أرادوا ، تحت ستار الحرب و إعلان الأحكام العرفية ، أن يقبضوا على السلطة و يضربوا بيد من حديد القوى الرجعية التى تزيد الاحوال الداخلية ارتباكا وتهدد الثورة .

بدأ نوّاب الغيروند فى الجمعية يندّدون بسياسة الحاشية فى خطبهم ويحملون عليها حملة شعواء حتى اضطرّ الملك الى تأليف وزارة غيروندية (١٢ مارس سنة ١٧٩٢) أهم أعضائها : ديمورييز وزير الخارجية، ورولان وزير الداخلية وزوج مدام رولان التى اشتهرت بالعلم والذكاء والميل الى الحرية وكان يجتمع عنـدها الغيرونديون للمناقشة فى الشؤون العامة .

على أن الملك لم يؤلف هذه الوزارة الا تحت ضغط الحوادث وكانت الملكة ضـد كل تنازل عن السلطة فى أى شكل كان حتى أنها دعت ديموريبز، وكانت تتوسم فيه إيثاره المصالح الشخصية على الصالح العام، وقالت له : «أصارحك القول بالاصالة عن الملك وعن نفسى أننا لا نطيق احتمال الدستور وهذه البدع الجديدة فتذكر ذلك ووطن نفسك عليه» .

ويمكن تلخيص أسباب النزاع بين الثورة وأوروبا فيما يأتى : (١) العداء الطبيعى بين الثورة والملكيات المطلقة فى اوروبا . (٢) وقف الملك بعد فارين أقلق الحكومات الملكية . (٣) نظرية نشر الدعوة التى ظهرت مع بريسو وأعضاء الغيروند وخوف أوروبا وخصوصا النمسا من انتشار الثورة ومبادئها بين شـعوبها . (٤) مساعى لويس السادس عشر الذى كتب فى ٣ ديسمبر

سنة ١٧٩١ الى ملك بروسيا يحرّضه على إخماد الثورة بالقوّة المسلحة ومنع انتشارها . (٥) شكوى النمسا من فرنسا ومطالبتها بالغاء مرسوم ٤ أغسطس الخاص بالحقوق الاقطاعية وذلك لأن الألزاس وان كانت فرنسية منذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلا أن الأمراء الألمان احتفظوا فيها بمقتضى المعاهدة بأملاكهم وكانوا باعتبارهم أشرافا يتمتعون بالحقوق الاقطاعية التى ألغتها الثورة فى سنة ١٧٨٩ (٦) شكوى فرنسا من الأمبراطور الذى كان يحرّض الأمراء الألمان على عدم قبول أى تعويض مالى عن حقوقهم والتمسك بالمعاهدة . كان فى الوقت نفسه الأميران الناخبان فى تريف ومايتسه ومطران أشبير على ضفاف الرين يتركون المهاجرين الفرنسيين يؤلفون فى أرضهم عصابات مسلحة تهدد الحدود الفرنسية .

فى أثناء ذلك مات أمبراطور النمسا ليوبولد الثانى وخلفه فرنسوا الأوّل الذى كان من أنصار الحرب (مارس سنة ١٧٩٢) وظهر فى فرنسا الديماجوجيون (الزعماء الشعبيون) فأخذت الثورة من ذلك الوقت تندفع فى العنف والتطرّف وانتشرت الدعوة للاستيلاء على الحدود الطبيعية وإعلان الحرب على الملوك لتحرير الشعوب .

كانت الحكومة الفرنسية لا تنفك تطلب الى حكومة فينا إيضاحات عن خطتها وما لبثت هذه الحكومة فى عهد فرنسوا الأول أن أجابتها صراحة بأنها « توجب عليها أن تعيد نظام الملكية الفرنسية الى القواعد التى أشار اليها الملك فى خطبة ٢٣ يونيه سنة ١٧٨٩ » : ومعنى ذلك أن النمسا تتدخل فى شئون فرنسا الداخلية وتأمرها بالقضاء على الثورة ونتائجها والرجوع الى العهد القديم .

لم يكن من الملك إلا أن ذهب بالاتفاق مع وزارته ، الى الجمعية التشريعية فى ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢ مقترحا إعلان الحرب على النمسا دفاعا عن « كرامة الشعب الفرنسى وسلامة البلاد المهدّدة » .

٣

الحرب — أعلنت الحرب فى ٢٠ أبريل وكانت خطة ديموريز وزير الخارجية المكلف بادارة الحركات الحربية ، مهاجمة النمسا فى بلچيكا التى كانت تشكو زيرها منذ سنة ١٧١٤ ، وحمل بروسيا على الانفصال من النمسا عدوّتها القديمة ، والحصول على حيدة انجلترا .

ولكن خطط ديموريز السياسية والعسكرية فشلت لأن كاترين الثانية امبراطورة روسيا كانت تحرّض السويد وبروسيا والنمسا على

محاربة فرنسا حتى تنشغل عنها فى بولندة والشرق، وكان البلاط الملكى والمهاجرون والأمراء الألمان يستنجدون النمسا وبروسيا معا؛ فلما دخلت الأولى فى الحرب انضمت اليها بروسيا — وكانت منذ فردريك الثانى فى مقدّمة دول أوروبا العسكرية — وصار قائدها برونسويك قائد الجيوش النمسوية والبروسية .

أصاب الجيوش الفرنسية فى البداية فشل كبير منشؤه الحالة التى كانت عليها مع تفوّق القوات الأجنبية فان معظم الضباط الفرنسيين (٦٠٠٠ من ٩٠٠٠) كانوا فى صفوف المهاجرين وكانت الثورة أفسدت روح النظام والطاعة بين الجند والرؤساء ، وكانت الملكة أرسلت الى العدوّ الخطط التى وضعها قوادها .

ولا ريب أن الحرب أصبحت العامل الأساسى فى الثورة منذ هذه الآونة فصارت السياسة الداخلية خاضعة لها ، والحرب هى التى أخرجت الثورة من حدودها الطبيعية ووطأت أكناف الارهاب والدكتاتورية .

وصلت أخبار الهزائم الأولى فنسبها الشعب للخيانة وازداد حنقا على الرجعيين وأصدرت الجمعية ثلاثة مراسيم : أوّلها فى ٢٧ مايو بنفى القساوسة الذين لم يقسموا اليمين ، ثانيها فى ٢٩ مايو بتسريح الحرس الملكى ، وثالثها وهو أهمها فى ٨ يونيه بانشاء معسكر وطنى

فى صواسون (بالقرب من باريس) مؤلف من ٢٠٠٠٠ جندى الغرض منه وجود جيش احتياطى ضدّ الغارة الأجنبية وإرهاب الحزب الرجعى الذى كان يخشى من حركاته فى الداخل .

فهم الملك أن هذه الاجراءات الثورية تجرّد حاشيته من كل قوة فعلية فعارض فى الأول والثالث وعزل الوزارة الغيرونديه (١٣ يونيه) وألف وزارة من أنصاره وظهر للجمعية فى جلد الاسد .

وكان بعض الدستوريين فى ذلك الوقت يتجاهلون المفاوضات السرية المستمرّة بين الملك والبلاط النمسوى والبروسى ويبررون خطة الملك بالقاء التبعة على الثورة التى خرجت من حدود القانون : كتب لافايت قائد جيش الوسط فى ١٨ يونيه الى الجمعية يقول : « إن اليعقوبية أصل كل ارتباك وأنه لا بدّ من القضاء على هيمنة الأندية لتحل محلها هيمنة القانون » .

حركة ٢٠ يونيـــه — لم ير اليعاقبة والغيرونديون فى هذه الخطة بدا من إرهاب الملك . وصرحت إحدى صحفهم : «ان الأمة ليست فى حرب مع الملوك الأجانب وحدهم ولكنها فى حرب مع لويس السادس عشر فيجب البدء بهزيمته أوّلا اذا أردنا أن نهزم حلفاءه الطغاة» .

قام الشعب ، بحجة الاحتفال بذكرى «يمين ملعب التنس» فى ٢٠ يونية بمظاهره كبرى ، سار الثوار يحملون الحراب وعلى رؤوسهم القبعات الحمراء الى دار الجمعيـة وقدموا عريضة يقولون فيها «ان ارادة خمسة وعشرين مليونا لا يجب أن تعرقلها ارادة فرد . واذا كنا نوفيه حقه من الاحترام ونستبقيه فى وظيفته فبشرط أن يؤديها بما يتفق مع الدستور وإلا سقط كل اعتبار له فى أعين الشعب الفرنسى» .

ثم سار المتظاهرون الى قصر التويلرى واقتحموا أبوابه مهددين "مسيو فيتو" و"مدام فيتو" مطالبين بالموافقة على مراسيم الجمعية وإرجاع الوزراء المخلصين ولكن الملك أبى أن يجيب الشعب الى مطالبه .

وعلى أية حال كان يوم ٢٠ يونيه من الأيام الثورية المشهودة التى دبرت حركاتهـا الأندية والكومون : فيـه أهين الملك وخذل الشعب ، ففكر اليعاقبة فى إعداد "يوم" جديد وحركة حاسمة يتخلصون فيها من الملك لأنهم أيقنوا أن الوفاق بينه وبين الثورة أمر عسير وانهم اذا أبقوا عليه بيتوا الخنجر فى صدرها .

٤

سـقوط الملـكية ــ كان الكثيرون من رجال الثورة يرون أن الملك بمحاولته الهرب من البلاد فى ٢٠ يونيه سـنة ١٧٩١

تنازل عن سلطته ومع ذلك فقد ردّت اليه ولكنه لم تعلمه الحوادث ووضع « الفيتو » هذه الاداة الدستورية فى أيدى القوى الرجعية فى الوقت الذى كان فيه العدوّ يهدّد الثورة، والدستور، والبلاد .

ورغما من اعتراض الملك على مراسيم الجمعية شرعت البلديات فى المقاطعات المختلفة ترسل الأجناد لتاليف المعسكر الوطنى بينما كان ديمور ييزقائد الجيوش الفرنسية يرسل الأخبار المقلقة عن زحف الأعداء وتوغلهم فى البلاد .

أعلنت الجمعية فى ١١ يوليه سنة ١٧٩٢ أن «الوطن فى خطر» وكتب هذا الاعلان على رايات يحملها فرسان الحرس الأهلى فى الطرق ودقت الطبول فتوافد المتطوعون من كل حدب، وكان الشعب يزداد حنقا على الخونة وأعداء الوطن ويطالب بخلع الملك خصوصا حين أصدر برنسويك قائد الحلفاء فى ٢٥ أغسطس من قوبلنسية بيانه الذى يهدّد فيه باريس «بسحقها كلها اذا اقتحم قصر التويلرى وأهين الملك وأسرته» .

احتج الملك فى الجمعية على هذا البيان والواقع أنه لم يكن يتوقع هذه اللهجة حين أشار على الحلفاء، بواسطة رسوله ماليت دوبان، باصداره، ولكن الجمعية صارت لا تثق به بعد أن ظهر جليا أن البلاط يسوّف ويخادع .

وصل باريس فى ٣٠ يوليه خمسمائة حرس من مرسيلية من خيرة الجمهوريين وكانوا يهتفون بالنشيد الذى وضعه الضابط روجيه دى ليل ، وهو المرسلييز الذى صار من ذلك الوقت نشيد فرنسا الوطنى : وقد أكرم الباريسيون وفادتهم وأخذ بعض زعماء الشعب يستندون الى هذه القوة ويطالبون الجمعية بخلع لويس السادس عشر ولكن الجمعية وقفت حائرة بين الملك وقوى الثورة المنظمة .

فى أثناء ذلك ألفت لجنة ثورية يشرف عليها بسيون رئيس بلدية باريس ، ودانتون زعيم الكرادلة ووكيل نائب الكومون العمومى ، وكان أكثر الغيرونديين مع اعترافهم بمسئولية الملك ، لا يميلون بطبيعتهم ، وهم من ذؤابة أهل العلم والفلسفة والقانون والذكاء الهادئ ، الى الحركات الديماجوجية التى تنساب فيها الغوغاء وتنتشر الفوضى ، وعبثا حاولوا إيقاف هذه الحركة الثورية التى كان بدء ظهورها فى ٢٠ يونيه وكانوا هم من مدبريها .

حركة ١٠ أغسطس — تجمعت فى باريس وفود الأحراس الأهلية المختلفة ففكرت اللجنة الثورية المهيمنة على أخطاط الكومون فى باريس — كان ٤٧ خطا من ٤٨ تطالب الجمعية بعزل لويس السادس عشر — أن تستخدم هذه الجنود فى الحركة الجديدة .

وفى ليلة ٩ أغسطس ذهب مندوبو الأخطاط الى دار البلدية وأسقطوا مجلس الكومون أو البلدية القانونى وأنشأوا مكانه مجلسا ثوريا صاروا هم أعضاءه ولم يبقوا من المجلس القديم إلا بسيون ، ومنيويل ، ودانتون الذى أصبح رئيس المجلس الجديد ثم عين المجلس بعد ذلك صنتير الديماجوجى ، الذى ظهر فى حركات الشان دى مارس و ٢٠ يونيه ، رئيسا للثوار والحرس الأهلى .

فى صبيحة ١٠ أغسطس هجم الثوار والحرس على قصر التويلرى واقتحموه بعد أن تغلبوا على قوات الحرس الملكى السويسرية التى أبلت بلاء حسنا ، ومنه ذهبوا الى الجمعية وكان الملك لجأ اليها ، فأعلنت فى الحال وقف الملك وانتخاب « مؤتمر وطنى » لوضع دستور جديد .

صار الملك بعد ذلك سجينا فى حراسة الكومون ، وتألفت سلطة تنفيذية أطلق عليها "المجلس التنفيذى المؤقت" كان مؤلفا من أعضاء وزارة الغيروند الأولى ودانتون الذى صار على رأس وزارة الحقانية والمجلس .

٥

سلطة الكومون والجمعية — لا ريب أن حركة ١٠ أغسطس قضت على الملكية الدستورية ورفعت دانتون الى

رياسة الحكومة الفعلية وأن الجمعية بترددها واصدار قرارها الخطير تحت تأثير الارهاب، لا عفوا، ألقت الى الكومون أو الى الحزب الجرئ من اليعاقبة والكرادلة أو الى الديماجوجية زمام الثورة .

وقد قررت الجمعية التشريعية أن يكون انتخاب المؤتمر الوطنى على قاعدة ديموقراطية فسقط شرط النصاب وحل محله التصويت العام على درجتين ، وكانت السلطات الحكومية النظامية الممثلة فى الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى، وسط الاضطراب السياسى الذى أعقب يوم ١٠ أغسطس ، لا تبرم أمرا الا بالاتفاق مع السلطات الثورية الممثلة فى مجلس الكومون .

حاول لافاييت أن يقاوم المجلس فلم يطاوعه جيشه فلجأ الى الهرب (٢٠ أغسطس) ودخل البروسيون اللورين واستولوا على لونجوى فى ٢٣، وحاصروا فردان فى ٣٠ أغسطس وهى آخر حصن فى طريقهم الى باريس فدقت الكومون نواقيس الخطر ورفعت الراية السوداء على دار البلدية وأخذت تحشد وفود المتطوعين الى الحدود وألقى دانتون فى الجمعية خطبته الشهيرة التى صاح فيها : «ليس الناقوس أذان الخطر ، وانما هو حملة على أعداء الوطن ، فاذا أردتم أن تغلبوهم فأقدموا ، ثم أقدموا ، ثم أقدموا فان فى الإقدام خلاص البلاد» .

وطلب دانتون الى المجلس الإذن بتفتيش المنازل فى باريس وإلقاء القبض على الخونة والأسلحة فسجن المئات من « الملكيين » وأنشأت الكومون فى صبيحة ٢ سبتمبر "لجنة رقابة" أغلب أعضائها من رؤساء الضابطة، وكان مارات رئيسها يحرّض الشعب على ذبح الخونة قبل السير الى العدوّ، وهنا بدأت « مذابح سبتمبر » المريعة فقصد مائة من المشعوذين الذين أصابهم الذعر الى السجون وأعملوا القتل فى أكثر من ١١٠٠ سجين وفى مقدّمتهم القساوسة بعد أن أذاقوهم ألوان العذاب (٢ — ٦ سبتمبر) .

ومما يؤخذ على الجمعية وبوجه خاص على دانتون أنه لم يحرّك ساكنا لإيقاف المجازر، على انه تدخل حين أتهم روبسبيير ومارات بعض رؤساء الغيرونديين بأنهم ملكيون تخلصا منهم ضمن هذه المجازر، فأنقذهم ولكنهم صاروا بعد هذه التهمة من ألد أعداء اليعاقبة والكومون .

جرت فى أثناء ذلك انتخابات المؤتمر وكان العدوّ يتقدّم الى باريس بعد اجتيازه فى شمبانيا غابات الأرجون المملوءة بالمضايق الوعرة ولكن ديمورييز قائد الجيوش الفرنسية وصلته النجدة من القائد كيلرمان فلم يتقهقر الى باريس وفضل البقاء خلف القوّات البروسية النمسوية فاضطرها الى التريث للتخلص منه على مرتفعات «ڤالمى»

حيث أطلقت مدافعهم نارا حاميـة ولكن الجيش الفرنسى ثبت فى موقفه ، وكان كيلرمان وجنوده يحملون على البروسيين وهم يهتفون «لتحى الأمة» فلما رأى الأعداء أن الانتصار ليس بالأمر السهل كما أوهمهم أعوانهم من المهاجرين تراجعوا فى زحفهم فكانت موقعة فالمى (٢٠ سبتمبر) فاتحة انتصارات الثورة ، وقد قال عنها الشاعر الألمـانى جوت الذى صحب الجيش البروسى ورأى حماسة الجنود الفرنسية وحسن بلائها من كثب : «فى هذا اليوم وفى هذا المكان يبتدئ عصر جديد فى تاريخ العالم» .

وفى هذا اليوم نفسه انفضت الجمعية التشريعية وحل مكانها المؤتمر الوطنى .

الفصل الرابع

المؤتمـــــر الوطـــــنى

(٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ — ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥)

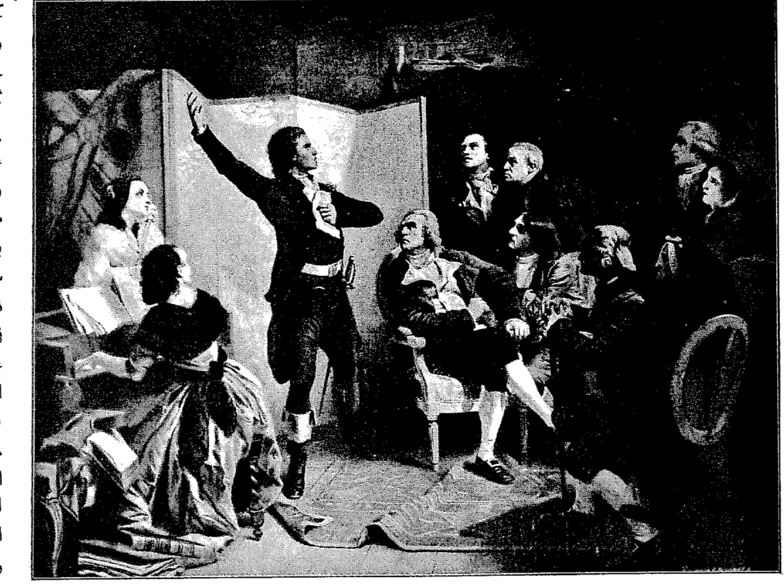
ينقسم تاريخ المؤتمر الوطنى الى ثلاثة عصور : الأول عصر الغيرونديين (سبتمبر سـنة ١٧٩٢ — يونيه سنة ١٧٩٣) والثانى عصر روبسبيير وحكم الارهاب (يوليه ١٧٩٣ — يوليـه ١٧٩٤) والثالث عصر الاعتدال (يوليه ١٧٩٤ — أكتوبر ١٧٩٥) .

١

العصــر الغـــيروندى — كان يبلغ أعضاء المؤتمر ٧٥٠ اجتمع منهم نحو الثلاثمـائة فى ٢١ سبتمبر وأعلنوا إلغـاء الملكية ، وفى الغد تقرّر أن تؤرّخ الأعمال من «السنة الأولى من الجمهورية» .

بدأ بعد ذلك بين الأحزاب النزاع الذى سيكون مصرع الجمهورية : كان حزب اليمين مؤلفا من الغـيرونديين (أما الفيان الملكيون الذين كانوا يمين الجمعيـة التشريعية فقـد أغلق ناديهـم وانقرضوا بعـد ١٠ أغسطس) ، وكان حزب الشمال مؤلفـا من

روجيه دبليل مؤلف النشيد الخالد ضابط فرنسى اتفق وجوده مع فرقته في ستراسبورج وقت اعلان الحرب على النمسا (ابريل ١٧٩٢) بينما كان يتناول العشاء ذات ليلة فى منزل عمدة ستراسبورج الح عليه صاحب الدار في نظم نشيد وطني فارتجل انوره في ساعات قلائل ذلك النشيد العالي الذى ظهر لاول مرة في احد مكاتب ستراسبورج



تحت عنوان « اغنية حرب لجيش الرين » ثم اخذ النشيد ينتشر وكان قد عرف في مرسيليا وقت ارسال فرقة من المتطوعين الى باريس في يونية سنة ١٧٩٢ فاخذوا ينشدونه فى طريقهم فاطلق عليه من ذلك الوقت المرسيليز (نسبة الى مرسيليا) وصار النشيد الوطني الذى تتجاوب اصداؤه فى فرنسا والعالم اجمع

روجيه ديليل ينشد لاول مرة النشيد الوطنى « المرسيليز » في منزل عمدة ستراسبورج

الصورة رسمها المصور Pils (١٨١٣–١٨٧٥) فى سنة ١٨٤٩ فاظهرت براعته وفتحت له طريق المجد خصوصا فى عهد نابليون الثالث

« الجبليين » أو اليعاقبة ، والكرادلة (الذين دخل معظمهم فى نادى اليعاقبة على أثر خروج الغيرونديين منه فى أكتوبر سنة ١٧٩٢) .

وكان فى الوسط حزب « السهل » الذى كان موقفه مع الحزبين الآخرين موقف سابقه فى الجمعية التشريعية : كان فى اعتداله يميل الى اليمين ولكن الخوف كثيرا ما كان يميـل به الى الجانب الأيسر الذى يستند الى الكومون و « الثورة فى الشارع » التى تغزو الجمعية صاخبة مهدّدة .

كان الغيرونديون فرنيود ، بريسو ، إسنار ، بيزو ، كوندرسيه ، وغيرهم من أصدقاء مدام رولان فى الواقع جمهوريين ديموقراطيين ولكنهم كانوا فلاسفة خياليين يعلنون الحرب «لتحرير الشعوب» ، وكانوا قانونيين ينفرون من وسائل العنف والخـروج على السلطات الشرعية ، وكثيرا ماسيطر خطباؤهم على الجمعيـة بقوّة البيان ، وكانوا ساخطين ، وهم مندوبو المقاطعات ، على استبداد باريس والكومون خصوصا بعد مذابح سبتمبر .

كان الجبليون وعلى رأسهم روبسبيير ، ودانتون ، ومارات ، رجالا ذوى عزيمة وبأس وإقدام لا يحفلون بالأشكال القانونية ، ورجال ثورة وحرب من أنصـار الدكتاتورية الباريسـية والقبض

على السلطات كلها بيد من حديد باعتبار ان هــذه الخطة وحدها تكفل الظفر .

كان روبسبير خطيبا مقتــدرا يجمع بين الســياسة والنزاهــة المطاقة حتى لقب با « المعصوم » ،وكان حربا على مخالفيه فى الرأى شــديد التعصب لمذهبــه ، يحلم بجمهورية فاضــلة يقصى منهــا الارستوقراطيون والملاحدة، وفاقدو النزاهة .

وكان دانتون خطيبا شعبيا جهورى الصوت، سياسيا محنكا اشتهر بالجرأة والاقدام وبعد النظر، وكان وهو وزير الدفاع الوطنى منــذ أغسطس يضع المصلحة القومية فوق كل شىء ويعمل على التوفيق بين الأحزاب المتناحرة وتوجيه القوى كلها ضدّ العدوّ المهاجم .

على أن هــذا الجمهورى الصميم كان غريب الخلق فانه مع وطنيته العالية كان متصلا بالملك أول الأمر مثل ميرابو ينفق من أموال البلاط، ولمــا ولى الحكم بعد ١ أغسطس أنفق الملايين من أموال الحكومة دون أن يقدّم عنها حسابا دقيقا ، وقد وضع ثقته فى أعوان فاسدى الذمّة مثل سكرتيره الشاعر فابر دجلنطين الذى تراكمت عليــه الديون وتعاقد مع سرڤان وزير الحربية على توريد الأحذية للجيش وكان المتصرف فى الأموال السرية .

وكان مساعد فابردجلنطين كاميل ديمولان الجمهورى المتطرّف الذى صار صنيعة دانتون بعـد أن كان بطانة لميرابو فروبسـبيير، واشتهر بخلقه الفاسق وتجرده من النزاهة .

وكان مارات « صـديق الشعب » مبنيا على سـوء الظن ، يرى الخونة فى كل مكان ، ولا يفتأ يحرّض الشـعب على العنف وإهراق الدماء .

اجتمع المؤتمر فى جوّ من الشحناء الحزبية وكان الغيرونديون مهيمنين عليه فى البداية، وقد أعلنوا فى الاجتماعات الأولى وجوب جعل نفوذ باريس بنسبة $\frac{١}{٨٣}$ من نفوذ المقاطعات كلها، وتأليف حرس خاص من المقاطعات للمؤتمر يحوطه بالأمن، ولكن الجبليين، وهم نوّاب باريس وضواحيها، أعلنوا ان باريس هى التى أنقذت البلاد من القوى الرجعية وألحوا بوجوب إنشاء حكومة قوية فيها خصوصا بعد الفوضى التى سريت فى البـلاد منذ سـنة ١٧٩١، وسرعان ما اتهموا الغيرونديين بأنهـم يفضلون «النظام الاتحادى» وتقسيم فرنسا الى ٨٣ جمهورية صغيرة ، وعلى أثر ذلك أعلن المؤتمر فى ٢٧ سبتمبر بنـاء على اقتراح دانتون «ان الجمهورية الفرنسـية واحدة لا تتجزأ» .

كان تناحر الأحزاب فى مسألتين : مصير الملك والحرب، تمكن الجبليون فيهما من التغلب على الغيرونديين والقضاء عليهم .

موت الملك — كانت أخطاط الكومون فى هذه الفترة تسير المظاهرات فى الشوارع للطالبة «بالانتقام من الطاغية... وإرساله الى المقصلة » مما حمل المؤتمر على النظر فى مصير الملك المعزول .

وكان روبسبيير والجبليون من رأيهم اعدام لويس السادس عشر دون محاكمة واجراءات قانونية باعتبار هذا الاعدام من الاجراءات العامة التى يستدعيها انقاذ الوطن وتبرير الثورة والجمهورية، ولكن هذا الرأى عدل عنه، وكانت اللجنة المؤلفة لفحص أوراق الملك التى عثر الثوار على أغلبها يوم ١٠ أغسطس فى قصر التويلرى، فى دولاب سرى مغلق بباب من حديد، أتمت فى أثناء ذلك تقريرها و رفعته الى المؤتمر فقرر أن يتولى محاكمته .

وفى ١١ ديسمبر حرر باربارو الغيروندى عدو روبسبيير ومارات ورقة الاتهام، وأهم وقائعها : « محاولة الملك افساد ميرابو، وهرب فارين ، واستعمال مبالغ ضخمة فى اعانة المهاجرين واسقاط قيمة القراطيس المالية، وحض رؤساء الجيش والفرق على الفرار، والاتفاق السرى بين الملك وأخويه» .

ردّ الملك ومحاموه على هـــذه التهم ودامت مناقشات المؤتمر فى القضـــية لغاية ١٥ يناير، ثم أجمع المؤتمر على أن لويس «مدان لتآمره ضدّ الحرية العامة وسلامة الدولة» وحكم عليه المؤتمر بأغلبية ٥٣ صوتا بالاعدام، وحاول عبثا أكثر من ثلاثمائة عضـو استفتاء الشعب فى الموافقة على الحكم، أو تأجيل النفاذ .

وفى ٢١ يناير سـنة ١٧٩٣ سـيق لويس السادس عشر من السجن الى ميدان لويس الخامس عشر (الكونكورد) حيث نصبت المقصلة فصـعد اليها بكل شجاعة وأعلن على رؤوس الملأ «أنه برئ وأنه يعفو عن أعدائه ويرجو أن ينفع دمه الفرنسـيين ...» ولكـن صنتير رئيس الحرس الأهلى قاطعه بدوى الطبل قبل أن يتم كلامه .

كان موت الملك ايذانا بالتفانى بين الجبليين والغـيرونديين الذين أرادوا انقاذ «الطاغيـة» أو بين الوطنيين و «الخونة»، وكان ايذانا بكوارث فى الداخل والخارج وحرب طاحنة عامة بين أوروبا والثورة .

الحـــــرب ــ تحمس الفرنسيون للقتال على أثر انتصار فالمى (٢٠ سبتمبر سـنة ١٧٩٢) وأخذوا يهاجمون الأعداء شمالا،

وشرقا، وجنوبا خصوصا وأن بروسيا كانت فى ذلك الوقت منشغلة عن فرنسا ببولندة التى كانت معرضة لقسمة جديدة، ففى الشمال هزم ديموريز النمسويين فى موقعة « جاماب » الشهيرة (٥ نوفمبر سنة ١٧٩٢) التى مكنته من فتح بلجيكا كلها فى مدّة وجيزة .

وفى الشرق استولى القائد كوستين على أشبير وماينسه والضفة الغربية من نهر الرين .

وفى الجنوب الشرقى انتزع الفرنسيون مقاطعة سافواى وكونتية نيس من ملك سردانية وجرى الثوار بحجة تحرير الشعوب على سياسة الغزو والضم بدلا من حصر الحرب فى حدود الدفاع الوطنى .

كانت الجمعية الدستورية أعلنت فى ٢٢ مايو سنة ١٧٩٠ أن فرنسا لا تريد الدخول فى حرب ما طمعا فى فتوحات ، وانها تستعمل قواتها ضدّ حرية أى شعب» . وقد أيدت الجمعية التشريعية فى اعلانها الحرب على النمسا هذا المرسوم وزادت اليه « أنها ما حملت السلاح إلا للدفاع عن حريتها واستقلالها» (٢٠ أبريل سنة ١٧٩١) .

ولكن المؤتمر أثملته الانتصارات فأعلن بعد موقعة جاماب فى ١٩ نوفمبر أنه «يرسل النجدة الى جميع الشعوب التى تريد استرداد

حريتها» وتقرر أن تقوم البلاد المحتلة بالانفاق على الجيوش الفرنسية التى تعمل على تحريرها وذلك بوضع موارد معينة كأملاك الأمراء والكنيسة وغيرها «فى حراسة فرانسا» .

وكان دانتون، وكارنو، وجريجوار من كبار المدافعين عن نظرية الحدود الطبيعية واسترداد كل ما اغتصب قديما بين الألب والرين والبرنات أو بعبارة أخرى ضم بلجيكا، ومقاطعــة الرين، ونيس، وسافواى الى فرانسا .

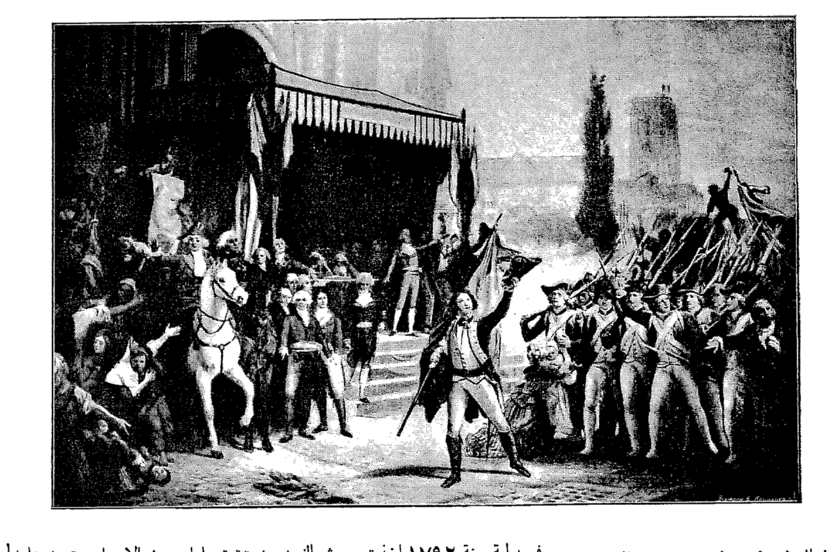
خشى الملوك من هذه السياسة الجديدة الغازية على نظام التوازن الأوروبى القديم فتحركوا لدرء الخطر خصوصا حين قطعت الثورة رأس الملك وتحدت بها أوروبا جمعاء .

أخذت حكومة بت (Pitt) رئيس الارستوقراطية الانجليزية فى أوائل سنة ١٧٩٣ تؤلب الدول كلها على فرنسا وقد انضمت الى النمسا وبروسيا وتبعتها هولاندة وأسبانيا واجتمع للحلفاء على الحدود ٣٧٥ ألف عسكرى يهددون البــلاد فقرر المؤتمــر تأليف جيش جديد من ٣٠٠٠٠٠ رجل وكان دانتون والجبليون يرون أن الطريقة الوحيدة لانقاذ الوطن حصر السلطة الدكتاتورية فى أيديهم وانشاء محكمة ثورية (١٠ مارس سـنة ١٧٩٣) مؤلفـة من مدع

عمومى ووكيلين وخمسة قضاة يعينهم المؤتمر لتصـــدر أحكامها من غير استئناف على الرجعيين وأعداء الحرية ، وقد فطن الغيرونديون الى أن إنشاء هذه المحكمة سيكون فاتحة عصر الارهاب والمظالم وكان فرنيود يقول «ان هذه المحكمة ستكون أخطر ألف مرة من محكمة التفتيش فى البندقية» ، وكل ما أمكنهم عمله حرصا على العدل ادخال نظام المحلفين فيها ولكنه لم يفد فى الواقع شيئا .

والحقيقة أن سلطة الغيرونديين اضمحلت منذ ٢١ يناير ، ومع ذلك كان الجبليون يلقون على حزبهم فى الحكومة تبعة الكوارث العامة .

فى هذه الآونة تقرر إرسال نواب الى المقاطعات لشد العزائم وتنظيم المقاومة ولكن الحال لم تزدد إلا ارتباكا فان مرسوم ٢٤ فبراير الخاص بانشاء جيش جديد أوقد الحرب المدنيـــة غربا فى مقاطعة « فنـــديه » الكاثوليكية التى كانت الخدمة العسكرية أبغض شىء اليهـــا ، فدقت النواقيس فى أكثر من ستمـــائة قرية « للدفاع عن الكنيسة والعرش » فى يوم ١٠ مارس المعين لحشد الجنـــد ، وانتشرت العصابات المسلحة من الفلاحين بقيادة زعماء من الشعب تنكل بالأحراس الأهلية والجنود المرسلة فاشـــتد حنق الجمعية على الأشراف والقساوسة وقررت أن كل مهاجر يعود الى البـــلاد يعدم فى مدة أربع وعشرين ساعة وبدأت محكمة الثورة عملها .



اعلان الوطن في خطر — وفود المتطوعين : فى يولية سنة ١٧٩٢ اخذت جيوش الفرنسيين تتقهقر امام جيوش الاعداء وقدتلي على الجمعية في جلسه ١٧ يولية خطاب من احد القواد يقول فيه ان مائتي الف جندي اجنبي واثنين وعشرين الفا من المهاجرين زاحفون ولايوجد امامهم جهة الرين الا اربعون الف فرنسى . فى اليوم التالى وصل خطاب من القائد ديموريز ينبيء بنفاد الزاد والمال وبحرج الحال فلم يكن من الجمعية الا ان اعلنت ان «الوطن فى خطر» : فى ٢٢ يولية كان يطلق المدفع فى باريس من آونة لاخرى وكانت الطبول والابواق الفاجعة تدعو الوطنيين الى ترك دورهم بينما يسير ضباط البلدية في الطرق يتبعهم فرسان من الحرس حاملين رايات مكتوب عليها «الوطن فى خطر» وقد نصبت فى الساحات العمومية ثمانية مدرجات يجلس فى اعلاها احد موظفى البلدية وامامه دفتر لتقييد اسماء المتطوعين الذين كانوا يفدون من كل صوب



جنود الثورة — « فلتحيا الجمورية ! »

احدى آيات المصور رافيه Raffet، فيها اشارة الى موقعة فالمي الشهيرة التي كانت معجزة حروب الثورة كما كانت موقعة المارن معجزة الحرب الكبرى.

وفى الوقت نفسه فشل ديمور ييز فى غزو هولندة وكان الجبليون فى المؤتمر ينقمون عليه خطته المـالية والسياسية : فانه كان متصلا بدسـبانياك من كبار المـاليين والمتعهدين الذين ثبت منـذ نوفمبر سنة ١٧٩٢ أنهم يقدّمون الأحذية والأغذية من أسوأ نوع و بأثمان مضاعفة للجيوش بالاتفاق مع مأموريها و بعض النوّاب والقوّاد .

وكان كامبون النائب الجبـلى المعروف بأبحاثه المـالية يطالب وبعض الصحف باجراء عمليـة « تطهير » ومحاكمة دسـبانياك ومأمورى الجيش الذين كانوا فى وقاية ديمور ييز ، وشرعت الجمعية تحقق معهم فعلا رغما من تدخل القائد .

روى كامبون أنه التق بديمور ييز أثناء وجوده فى باريس (بين ١ و ٢٦ يناير سـنة ١٧٩٣) فى منزل دسبانياك فحاول ديمور ييز أن يجتذبه الى مشاريعه المـالية والسياسـية « اذ كان يريد دسـتورا لا يتولى فيه الرأس أو الذنب حكومة البلاد» أى ملكية دستورية ، ولكن كامبون أبى أن يسايره .

عاد ديمور ييز الى بلجيكا وجنوده فى حالة فوضى وارتباك فهزمه النمسويون فى موقعـة نيروِند فى ١٧ مارس فحاول الاتفاق مع الأمير كوبورج قائد القوات النمسوية على إرجاع الملكية فى فرنسا .

علم المؤتمر بمفاوضات ديموريز فأرسل يطلبه فعصى ثم بعث اليه بأربعة نوّاب لإيقافه فألقى القبض عليهم وحاول أن يزحف بجيشه على باريس « لتوطيد دستور سنة ١٧٩١ وانقاذ الجزء النقى المغلوب على أمره فى الجمعية » ولكن لم يطاوعه جيشه فتسلل منه الى الخطوط النمسوية فى ٤ أبريل سنة ١٧٩٣ .

أعلن المؤتمر أن ديموريز « خائن » وطلب رأسه وأخذ الجبليون يلفون الغيروندين أصدقاء ديموريز فى تهمة الخيانة ويدبرون القضاء عليهم : ففى ٥ أبريل تقرّر أن النوّاب الذين ترى الجمعية اتهامهم يحالون على محكمة الثورة .

لجنة إنقاذ الوطن — لم تكن للمجلس التنفيذى المؤقت سلطة فعالة ، إذا استثنينا دانتون ، وقد تألفت فى أول يناير « لجنة دفاع عام » من ٢٤ نائبا أغلبهم غيرونديون لمراقبة هذا المجلس وإيجاد الوحدة فى إدارة الشئون السياسية والعسكرية ، وتجدّد تأليف لجنة الدفاع فى ٢٥ مارس ، بعد هزيمة نيروند ، فدخل فيها رؤساء الجبل ولكنهم مازالوا أقلية وكانت اللجنة ، بسبب كثرة أعضائها ، لا تأتى عملا يذكر فلما ظهر عجزها على أثر خيانة ديموريز وفقد الغيرونديون نفوذهم قرّرت الجمعية فى ٦ أبريل سنة ١٧٩٣

انشاء "لجنة إنقاذ الوطن" (Comitè de salut public) وكانت مؤلفة من تسعة أعضاء من النواب للمداولة سرا ، ومراقبة المجلس التنفيذى وإنجاز أعماله ، واتخاذ اجراءات فى سبيل الدفاع العـام فى الخارج والداخل يكلف المجلس التنفيــذى بانفاذها ، وكان أهم أعضائها باريز، وكامبون ، ودانتون الذى صار رئيس اللجنــة الفعلى (ترك وزارة الحقانية بعد انتخابه عضوا فى المؤتمر) .

وكانت هــذه اللجنة مهيمنة على المجلس التنفيذى ، و" لجنة الأمن العام" (Comité de sûretè générale) المكلفة بالبوليس (أنشئت فى سنة ١٧٩٢) ، و"اللجان الثورية" التى كانت الأخطاط تعين أعضاءها لمراقبــة المشبوهين وإلقاء القبض عليهم وتقديمهم «لمحكمة الثورة» وكان فى فرانسا ٢١٥٠٠ لجنة من هذا النوع تشرف عليها كلها لجنة الأمن العام .

وكانت لجنة إنقاذ الوطن من أبريل سـنة ١٧٩٣ لغاية يوليه سـنة ١٧٩٤ تسيطر على جميع الشئون العامة وتمثل الحكومة الدكتاتورية وعصر الارهاب .

وما برح روبسبير ومارات لا يهدآن أو تفنى قوة الغيروندين التى ما زال يحسب لها حساب فى المؤتمر فكان مارات فى جريدته

يندد بالمؤتمر الذى أصبح يأوى «طائفة من المتآمرين الذين اشترتهم الحكومة الانجليزية بالمال» ، وقد أرسل من نادى اليعاقبة الذى كان يرأسه فى هذه الآونة دعوة الى الحرب المدنية والقبض على الغيروندين فلم يكن منهم إلا أن حملوا المؤتمر على تقرير اتهام مارات (١٢ أبريل) ولكن محكمة الثورة برأته وعاد الى الجمعية وسط المظاهرات مكرما .

طلب عندئذ پاش وزير الحربية السابق ورئيس بلدية باريس فى سنة ١٧٩٣ تقرير اتهام اثنين وعشرين عضوا من حزب الغيروند فقام جواديه الغيروندى واقترح بدوره «كسر السلطات الفوضوية فى باريس» وفعلا عينت الجمعية فى ١٨ مايو «لجنة فوق العادة» مؤلفة من اثنى عشر عضوا لفحص مسلك البلدية ، وألقت هذه اللجنة القبض على كثيرين من محركى الفتن ومنهم هيبرت مدعى الكومون العمومى فاحتجت الكومون وأخذت ترسل العصابات المسلحة الى الجمعية حتى حملتها على اطلاق سراحه وإلغاء اللجنة (٢٧ مايو) .

أخذت بعد ذلك السلطات الثورية تنظم نفسها وعينت هنريو رئيسا للقوة المسلحة وكانت توزع أجرا يوميا على جميع الوطنيين الفقراء الذين تقوم بتسليحهم واتفق روبسبير ومارات

والكومون على استصدار مرسوم من المؤتمر يقرر اتهام « أنصار ديموريز » .

وفى ٢ يونيه سنة ١٧٩٣ قامت الحركة ضد المؤتمر وسوّره هنريو بالجنود والمدافع ودخل الثوار يطلبون إلقاء القبض على «المتآمرين» أى الغيرونديين ، وكن دانتون وبعض الجبليين العقلاء ساخطين على هذه الحركة التى تستخف « بالجلالة القومية » وعبثا حاول النوّاب اقناع الشعب «بخفض الحراب المحيطة بهم» اذ كان جواب هنريو تصويب المدافع الى هيئة المؤتمر والمطالبة بالكف عن الثرثرة وتسليم الاثنين وعشرين غيرونديا . حاول النواب الخروج فسدّت فى وجوههم المسالك وأمرهم مارات أن يعودوا الى مراكزهم التى هجروها جبنا وأكرههم على تقرير «إيقاف» تسعة وعشرين عضوا من زعماء الغيرونديين تمهيدا لمحاكمتهم فصار المؤتمر منذ ذلك اليوم جبليا وأصبح روبسبيير زعيم الثورة والمهيمن على حكومة البلاد .

المؤتمـــر الجبـــلى وحكم الارهاب — تمكن الجبليون فى ٢ يونيه من القضاء على حزب الغيرونديين فى المؤتمر فوضع فرنيود وبريسو وجنسونيه وغيرهم أنفسهم تحت تصرف السلطات وذهب بسيون وجواديه وبيزو وآخرون فى مقاطعة « نورمانديه » يدبرون حركة المقاومة وتأليف جيش يزحف على العاصمة .

وفى أثناء مقامهم قصدت شارلوت كورديه الى باريس ودفعتها الرغبة فى اخماد الفتن والقلاقل الداخلية الى قتل مارات فى ١٣ يوليه ، وقد لقيت حتفها فى ١٧ وأظهر الشعب الباريسى جزعه على فقد وليه وزاد حنقه على الغيرونديين وأنصارهم .

كانت الحالة العامة فى الداخل والخارج على أسوأ ما كانت عليه منذ حرب المائة العام لأن عشرين مقاطعة ثارت على باريس بسبب حادثة ٢ يونيه وتحركت المقاطعات الأخرى للثورة خصوصا فى الجنوب والغرب ، وكانت ليون أول مدينة ثائرة استولى حزب المقاومة فيها منذ ٢٩ مايو على البلدية وأعدم شالييه أحد اتباع مارات ورئيس نادى اليعاقبة ومحكمة الثورة فيها .

وكان الثوار فى ليون ينتظرون ٢٠٠٠٠ جندى من بيمون و ١٠٠٠٠ من مرسيليا وما لبث الملكيون فى نورماديه وبريتانيا أن انضموا الى أنصار الغيرونديين ونظموا حرب العصابات .

أما فى الخارج فقد كان الحلفاء اجتمعوا عقب خيانة ديموريز فى أنفرس (٧أبريل) وصرح اللورد أوكلاند «أن انجلترا تريد القضاء على كيان فرنسا السياسى قضاء مبرما » وكانت تطمع فى دنكرك ومستعمرات فرنسا ، وتريد النمسا بعض المقاطعات الواقعة على

حدود بلچيكا، وبروسيا الألزاس واللورين . وكانت أوروبا على العموم تفكر فى تقسيم فرنسا وتوطيد ملكية ثابتة فى الجزء الباقى بعد اطفاء بركان الثورة الذى كان يتهدّد الممـالك كلها .

حاصر الانجليز سواحل فرنسا ومنعوا توريد الغلال اليها، وسلمت لهم طولون، وخضعت قورسقة وكان اقليم الڤنديه فى الشمال الغربى يفتح للمهاجرين والانجليز طريق أواسط فرنسا .

وفى شهر يوليه ضاعت الفتوحات كلها ودخلت خمسة جيوش أجنبية فى الأرض الفرنسية بينما كانت الحرب المدنية شائعة فى كل مكان ، وكانت فرنسا محصـورة برا وبحرا ، مهدّدة بالمجاعة وممزقة بالحروب الداخلية والخارجية حتى قال القائد جومينى فى كتابه عن حروب الثورة : «ان جميع الشواهد التى تقع تحت ادراك العقـل البشرى كانت تدل على سقوط الجمهورية العاجل ، ولكن أعضاء المؤتمر وحدهم لم ينل منهـم اليأس ، وكانت تزداد عزيمتهم مضاء وتغتلى نفوسهم كلما بان لهم خطر جديد أوكوارث جديدة» .

كان شـغل الجبليين الشاغل إنقاذ الوطن والسبيل الى ذلك فى رأيهم إتخاذ اجراءات تضع تحت تصرفهم «دم الأمة وثروتها» ، وحصر السلطة كلها فى أضيق دائرة ممكنة ، وتنظيم الدفاع بحيث

تصبح فرنسا كلها أشبه بمدينة محاصرة تسخر جميع القوى فيها للذود عن سلامتها .

وقد بدأوا بمحاولة منع الحرب المدنية أن تنتظم المقاطعات كلها فابتدعوا « دستور سنة ١٧٩٣ » وأصل ذلك أن كوندرسيه كان وضع وقدم للمؤتمر دستورا قبل ٣١ مايو فجاء الجبليون وقدموا دستورا آخر فى ١٠ يونيه لا يخرج فى أساسه عن الدستور الأوّل وعجلوا بتقريره فى ٢٣ منه : وهذا الدستور متناه فى الديمقراطية وتأييد حكم الشعب وسيادته المباشرة لأنه خوّل جميع الفرنسيين (بشرط أن لاتكون سنهم أقل من ٢١ سنة) حق الانتخاب ، وقرر أن يجتمع الناخبون فى جمعيات ابتدائية لانتخاب ممثليهم والمناقشة فى القوانين .

وتقرّر انتخاب مجلس تشريعى لمدّة سنة فقط لاقتراح القوانين وعرضها على الجمعيات الابتدائية التى تقرر قبولها أو رفضها ، وكان اذا اتفق ولم يبد أى اعتراض من عشر الجمعيات فى نصف المقاطعات ومقاطعة اعتبر القانون مقبولا .

وحل محل الوزارة مجلس تنفيذى مؤلف من ٢٤ عضوا يعينهم المجلس التشريعى من قائمة تعدّها الجمعيات الابتدائية .



من باريس الي فرسايل، في ٥ اكتوبر سنة ١٧٨٩

كان ضباط الحرس الملكي في فرسايل اجتمعوا في وليمة فدارت برأسهم الخمر فتناولوا الثورة بالقدح والتشهير وداسوا باقدامهم الوانها الثلاثة ووضعوا في قبعاتهم الشارة البيضاء الملكية فلما علم بذلك شعب باريس الجائع الهائج قامت المظاهرات على قدم وساق للمطالبة « بالخبز وعودة الملك » وسطشعبه، ثم انطلقت النسوة يجررن المدافع في طريق فرسايل يقودهن مايار احد الثوار الذين استولوا على الباستيل.

في الوقت نفسه تحركت فرق الحرس الوطني الستون برياسة لافاييت الذي حاول التخلص عبثا واندفعت وراء الشعب المسلح لغسل الاهانة التي الحقها الحرس الملكي بالثورة، وقد اضطر الملك والجمعية، على اثر هذه المظاهرة، الى الانتقال الى باريس والاقامة فيها

والواقع أن هذا الدستور كان يلغى الحكومة المركزية والجمعية ويدعو جميع الوطنيين الى مقاومة السلطات القانونية لأنه يقرّر «اذا خرقت الحكومة حقوق الشعب كانت الثورة للشعب، ولكل طائفة من الشعب، من أقدس الحقوق والواجبات» .

نشر دانتون هذا الدستور على البلاد فهبطت المقاومة الداخلية فى معظم المقاطعات لأنها توهمت انه إيذان بانتهاء دكتاتورية باريس، ثم طوى الجبليون الدستور بعد أن أحسنوا استغلاله وكان لهم فى الحرب وحالة البلاد الاستثنائية العذر الواضح .

أخذ روبسبيير وأنصاره من الجبليين يعملون فى الوقت نفسه على التفرد بالسلطة وتنظيم الدفاع ضدّ أعداء البلاد فى الداخل والخارج، فاقترح روبسبيير فى ١٠ يونيه ضم ثلاثة أعضاء سانجوست، وسانتندريه، وكوتون الى "لجنة إنقاذ الوطن" . واقترح فى ١٠ يوليه إنقاص عدد الأعضاء من ١٦ الى ٩ فخرج دانتون وتمكن روبسبيير بهذه الوسيلة من التخلص من مزاحمه .

ولما وثق روبسبيير من أغلبية اللجنة دخل فيها فى ٢٧ يوليه مكان أحد الأعضاء فهيمن عليها، بعد أن هيمن عليها دانتون من أبريل الى يوليه، وصار رئيس السلطة التنفيذية التى بيدها مقاليد

الشؤون السياسية والعسكرية ، ثم دخل كارنو « منظم النصر » فى اللجنة فى ١٤ أغسطس وتبعه آخرون فى ٦ سبتمبر فتألفت اللجنة الكبرى التى كانت تمثل «الحكومة الثورية» والإرهاب ومبدأ الحرب الى النهاية .

جرت الحكومة الجديدة على سياسة الإقدام التى رسمها دانتون وتقرير التجنيد الإجبارى (١٦ أغسطس) حتى تتمكن البلاد من إعداد أربعة عشر جيشا : خطب بارير العضو فى لجنة إنقاذ الوطن فى ٢٣ أغسطس فقال : « منذ هذه اللحظة حتى يطرد الأعداء من أرض الجمهورية سيكون جميع الفرنسيين وقفا على الخدمة العسكرية يذهب شبانهم الى مواطن القتال ، ويشتغل المتزوجون بعمل الأسلحة ونقل الأغذية ، والنساء بصنع الخيم والملابس وخدمة المستشفيات ، ويقصد الشيوخ الى الميادين العامّة لشحذ العزائم وبث كراهية الملوك وأعداء وحدة الجمهورية ، وسيكون التجنيد عاما وتؤلف فى كل مركز فرقة يكتب على رايتها « الشعب الفرنسى واقف ضدّ الطغاة» .

وكان كارنو يقول «سننظم عسكريا غضب الشعب» وهو الذى كان يبث فى القوّاد روح الإقدام ويختار الشبان الأكفاء أمثال هوش وغوردان ومورو فيرقيهم الى مراتب القيادة .

وكان القائد شانسل يقول لجنده وقد أضواهم الجوع «تعلموا ان بالآلام والصبر على الحوجاء والجلد على الشـدائد يشترى شرف القتال والموت فى سبيل الوطن» .

وكانت تدبر نفقات الجيش من بيـع أملاك المهاجرين ، وقد أوجب باراس مندوب المؤتمر فى الجنوب على ٢٠٠٠٠ وطنى موسر فى ليون أن يسلم كل منهم قميصين .

على أنه رغما من هذه الوطنية العالية كان الكثيرون من أفراد الشعب سئموا الحرب وسوء الحالة الاقتصادية العامّة حتى ان طائفة منهم قامت بمظاهرة داخل الجمعية فى ٥ سبتمبر فوجه دانتون اللوم الى المحكمة الثورية وتباطئها فى الحكم على المسئولين الحقيقيين قائلا : «يجب أن نرى الأرستوقراطيين والآثمين يدفعون كل يوم برؤوسهم ثمن جرائمهم» .

ومعنى ذلك أن دانتون والجبليين رأوا الإمعان فى سياسة الإرهاب ليتقوا سخط الساخطين ويقرّبوا القرابين للشعب ، والى ذلك أشارت مدام رولان فى قولها : «يطلب الشعب خبزا فيعطونه جثثا»

وفى نفس يوم ٥ سبتمبر تقـرّر تأليف جيش ثورى متنقل فى الأقاليم تتبعه محكمة لنشر الإرهاب وتأييد اللجان الثورية فيها .

وفى ١٧ سبتمبر صدر قانون إرهابى فى منتهى الشدّة « قانون المشبوهين » الذى قرّر إلقاء القبض على « جميع أولئك الذين يظهرون ، سواء بمسلكهم أو بعلاقاتهم أو بكتاباتهم ، أنصار الاستبداد أو النظام الاتحادى » فكان كل وطنى من غير الجبليين المتطرّفين مهدّدا بهذا القانون الذى يمهد سبيل الانتقام والشهوات .

وفى ١٠ أكتوبر أعلنت «الحكومة ثورية لغاية السلم» أى أن دستور سنة ١٧٩٣ والقوانين الرسمية يوقف تطبيقها وتحل محلها القوانين والاجراءات الاستثنائية التى تبررها حالة البلاد وتتلخص فى نظام الدكتاتورية المؤقتة .

وفى ١٤ أكتوبر وقفت الملكة مارى أنطوانيت أمام محكمة الثورة وأعدمت بعد يومين ، وفى ٢٤ جرت محاكمة أحد وعشرين غيرونديا (فرنيود ، بريسو ، جنسونيه) ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم بفضل تدخل اليعاقبة فى المؤتمر فاعدموا فى ٣١ أكتوبر ، أما الباقون فطوردوا فى الأقاليم وأعدم البعض ، وانتحر البعض الآخر ووجد بيزو و بسيون فى إحدى الغابات صريعين بالعراء افترستهما الذئاب .

خفت فى ذلك الوقت وطأة الحروب المدنية الخارجية وأحرز الجبليون بقوّة العزيمة والايمان انتصارات باهرة تخلل نظام الارهاب

وفظائعه، وعرفت الأقاليم عهد الارهاب الأكبر فى شتاء سنة ١٧٩٣ ولم تعرفه باريس إلا فى سـنة ١٧٩٤ ، ويقدّر عدد من أعدموا فى الأقاليم من سبتمبر سـنة ١٧٩٢ لغاية يولية سـنة ١٧٩٤ بنحو ٢٠٠٠٠ .

اسـتولى الجبليون على مرسيليا فى ٢٥ أغسطس، وليون فى ٩ أكتوبر، وطولون بعد حصار طويل فى ٩ ديسمبر، واشتهر بفظائعهم بعض مندوبى المؤتمر المكلفين باخماد الفتن فى المقاطعات : منهم "كارييه" فى نانت (الواقعة على نهر اللوار بالقنديه) فانه كان يختصر المحاكمة باعدام المئات والآلاف دفعة واحدة رميا بالرصاص أو إغراقا فى النهر، ومنهم "طاليان" فى الجنوب الغربى حيث كان يغذى المقصلة كل يوم فى بوردال بالملكيين والاتحاديين ، ولولا طرازيا الحسناء التى فتنته بمالها وجمالها لمـا سلمت رؤوس كثيرة، وحدثت فى ليون ومرسيليا وأراس وغيرها مجازر بشرية كان يفاخر بها مندوبو المؤتمر أو مأموروه ولا تزال تشوه الثورة ومبادئها .

أما فى الخـارج فان الحلفاء كانوا فى الواقع مختلفين فى تقسيم الغنيمة وكانت كل دولة تخشى أن تفوز الأخرى بالشـطر الأوفى فتعظم قوتها ولذلك لم تكن هناك وحدة حقيقية فى الهجوم، وكان قوّاد الحلفـاء من ناحية أخرى يسيرون على خطط القتال القـديمة

فلا يتقدّمون فى طريقهم حتى ينتهوا من حصار الحصون والاستيلاء عليها ، فأعطوا الجبليين فرصة يعدّون فيها الجيوش وأدوات القتال وكان كارنو منظم الدفاع فى لجنة إنقاذ الوطن ابتدع خطة حربية جديدة تتفق مع حالة جيوش الثورة من حيث مبلغ استعدادها وحماستها فقرّر إدماج الجنود الجديدة فى صفوف الجنــود المدرّبة ومواجهة جيوش الاعداء النظاميــة بجيوش تعتز بكثرتهــا وشجاعتها وتهجم جموعها الكثيفة على العدوّ ولا تهادنه ، وقد حضر كارنو موقعــة واطجنى الشهيرة (Wattignies) فى شمــال فرنسا بين النمسويين بقيادة الأمــير كوبورج والفرنسيين بقيادة غوردان (١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣) فلما رأى تردّد القائد الفرنسى وطول إعماله الروية أمره بالهجوم قائلا «لاتبالغ فى الحيطة أيها القائد» ، وكانت هذه الموقعة فاتحة انتصار الجيوش الجمهورية الأولى .

وفى ٢٦ ديسمبر ســنة ١٧٩٣ انتصر القائد الجمهورى هوش على النمسويين والبروسيين فى فيسمبورج بالألزاس ، فزال الخطــر الأكبر على الحدود فى الثلاثة الأشهر الأخيرة من سنة ١٧٩٣

كان هــذا العصر مملوءا بالأمثلة العالية من الوطنيــة والبطولة والتضحية فتمكنت الحكومة الثورية من المحافظة على سلامة البلاد ضدّ الدول العادية وأتت جلائل الأعمال العمرانية رغما من المصاعب

والأهوال العــديدة التى كانت تكتنفها . ففى ٢٢ أغسطس وضع المؤتمر بنــاء على تقرير المشرع قمباسيرس قواعد القانون المــدنى ، وفى نفس الشهر وافق على اقــتراح كامبون القاضى بتوحيــد جميع الديون العامة بفائدة ٥ ٪ ، وفى ١٣ سبتمبر أصــدر قرارا بتنظيم التعليم ونشر التعليم الاجبــارى فى جميع البــلاد لأن التعليم كما كان يقول دانتون «حاجة الشعب الأولى بعــد الخبز» ، وأنشأ مدرسة الهندســة العليا ، ومدرسة المعادن ، ومدرسة الملاحة ، ومدرســة اللغات الشرقية ومعهد الموسيقى ، ومدرسة الفنون والصنائع ، ومتحف التــاريخ الطبيعى وأوجد وحدة المقــاييس والمكاييل واصلاحات أخرى كثيرة .

دكتاتورية روبسبيير — كان روبسبيير واسع الطماح والطماعية لا يفكر إلا فى تطهير المؤتمر والبلاد من عناصر الفساد وتوطيــد حكم الفضيلة ، والحرية ، والجمهورية التى كانت تتمثــل فى شخصه ، وكانت آراؤه تنزل من نفسه بمنزلة العقائد الدينيــة التى لا تقبل نقــدا أو اعتراضا فكانت الخيانة وألوان التهم تلف كل من عارضه فى الرأى ولو كان أخا حميا فيضحى به غير راحم ولا هياب ، ومن هنا اجتمعت الاضداد فى شخصه من أنانية ، ورياء ، وتعلق

بالفضيلة واختلف الناس فى تقديره بحسب الناحية التى ينظرون اليه منها .

وقد تألفت فى حزب الجبل فى أواخر سنة ١٧٩٣ شيعتان ضدّ لجنة إنقاذ الوطن ولجنة الأمن العام هما شيعة الدنتونيين وشيعة الهيبرتيين ، الأولى منهما فى رأى روبسبيير تدعو الى التفريط ، والأخرى الى الافراط .

عمل روبسبيير أوّلا على التخلص من هيبرت وأنصاره بمساعدة دانتون ثم القضاء على دانتون وشيعته : كان شومت مدعى الكومون العمومى ووكيله هيبرت يعملان بالاستناد الى الكومون ، والأخطاط والجيش الثورى المتنقل فى القنديه الذى كان يرأسه رونسان أحد الكرادلة ، على نشر الديماجوجية فى الشعب . وكان شومت يخطب فى الميادين العامة ويحرّض على محو العبادات كلها وهدم آثار الدين الكاثوليكى القيمة فى الكنائس ، واخترع «أعياد العقل» التى كان يحتفل بها فى كنيسة نوتردام حيث كانت إحدى ممثلات الأوبرا تمثل الآلهة ، وكثيرا ما كانت تنقلب هذه الأعياد الى مساخر لادينية .

حل الهيبرتيون محل الكرادلة الأوّلين فى ناديهم وكانوا أشدّ عناصر الثورة تطرّفا وهم الذين دفعوا المؤتمر الى تأليف الجيش

الثورى وإصدار قانون «المشبوهين» وكانوا يريدون أن ينتزعوا من الجمعية سلطتها لأنها أصبحت فى نظرهم معتدلة وتوطيد الديموقراطية المطلقة وعبادة العقل والطبيعة .

اختلط بالهيبرتيين كثيرون من الأجانب المجهول أمرهم جروا على سياسة المزاد فى تطبيق المبادئ الجمهورية حتى خشى روبسبيير على سلطته من منافسة هيبرت وشومت، وأعلن فى المؤتمر «أن رسل أعداء فرانسا الذين يعرفون كيف يصوبون أسلحة أعداء الحرية نحو الحرية نفسها يعملون اليوم على قلب الجمهورية باسم المبادئ الجمهورية... فيجب عليكم أن تمنعوا هذه الأعمال الحرقاء» .

وفى أواخر سنة ١٧٩٣ وأوائل سنة ١٧٩٤ اشتد الشتاء وقل الخبز فقرر المؤتمر فى فبراير « يوم صيام وطنى » فى الشهر لاقتصاد الأغذية فانتهز المتطرفون تململ الشعب وقرروا إحداث «ثورة كاملة» وانقلاب اجتماعى يعطى الفقراء أملاك الأغنياء فحمل عليهم كاميل ديمولان صديق دانتون بالاتفاق مع روبسبيير وألقى القبض عليهم وأعدموا فى ٢٤ مارس سنة ١٧٩٤

بقيت أمام روبسبيير شيعة دانتون وقضيتها أرفع شأنا من الأولى وأكثر خطرا لأن دانتون من زعماء الثورة الذين عملوا على

إنقاذ البلاد وخدموها أيام محنتها : كان دانتون محاميا فى البلاط الملكى فلما قامت الثورة اعتنق مبادئها وأسس نادى الكرادلة فى سنة ١٧٩٠، وكان من أكبر العاملين فى حركة ١٠ أغسطس على إسقاط الملكية، ثم عين وزيرا للحقانية فى المجلس التنفيذى المؤقت فلما دخل البروسيون شمبانيا فى سبتمبر صاح صيحة الاقدام المشهورة وكان منظم الدفاع الوطنى، ثم عين عضوا فى المؤتمر الوطنى فظل محتفظا بوظيفته مع العضوية زمانا وكان يعمل جهده للتوفيق بين الغيرونديين واليعاقبة وتوجيه جميع القوى ضدّ العدو الخارجى، ولما أنشئت «لجنة إنقاذ الوطن» فى أبريل سنة ١٧٩٣ عينه المؤتمر عضوا فيها فكان رئيسها الفعلى، وهو الذى حمل بقوّة بيانه وعزيمته المؤتمر على نشر سياسة الارهاب وإنشاء محكمة الثورة واتخاذ الاجراءات الاستثنائية للقضاء على عوامل الفتن الداخلية .

ولكنه كان يعاف استخدم الارهاب وسيلة للانتقام من الخصوم الشخصيين فحاول إنقاذ الغيرونديين الذين هم نخبة رجال الثورة فى ٢ يونيه فأخفق ونقم عليه روبسبيير هذه الخطة فاحتال فى إخراجه من لجنة إنقاذ الوطن فى يوليه سنة ١٧٩٣

بدأ دانتون من ذلك الوقت يعتريه الملل من الفظائع التى كانت ترتكب باسم المصلحة العامة وكثرة تقلب الرجال مع الأهواء

والشهوات وجبن الأكثرين حتى كان يقول : « لقد شبعت من الرجال ورويت» وانزوى فى بلده زمانا طلبا للراحة وعاد الى باريس وكانت الثورة فى أواخر ســنة ١٧٩٣ ردّت الغارة بانتصاراتها ففكر وقتئذ فى إنهــاء الحرب فى الخارج بالوسائل السياســية ، والجرى فى الداخل على خطة التسامح « و إعادة حكم العــدل والقانون بين الجميع » لأن الخطر الخارجى وحده كان يبرر سياسة الارهاب .

وكان كاميل ديمولان فى جريدته يندّد بالاستبداد «الذى يرى فى مجرّد النظرات ، والحزن، والعطف على المنكوب ، والزفرات ، وفى السكون نفسه جرائم ضدّ سلامة الدولة» ولكن روبسبيير كان يعتقد «أن مبادئ الحكومة الثورية فى الفضيلة والارهاب» ويخشى على هذه الحكومة أن تمزقها سياسة الاعتدال، ويرى وقايتها فى المحافظة على «استبداد الحرية» .

قرّر المؤتمر ، بناء على اقتراح باربر صديق روبسبيير، استمرار الحرب الى النهاية لأن الطغاة لا يزالون يهـدّدون البلاد ، ونادى روبسبيير بوجوب القضاء على الأعداء الداخليين الذين يريدون « تفكيك الحكومة الثورية » و « التآمر مع الطغاة » .

وعلى أثر ذلك ، فى ٣٠ مارس ، أودع السجن دانتون وديمولان ووسترمان وغيرهم فقال دانتون : «فى مثل هــذا الزمن من العام

الماضى أشرت بانشاء المحكمة الثورية ، وانى أطلب العفو عن ذلك من الله والناس ، فما كنت أحسب أنها ستكون بلاء على الانسانية » .

وكان الكثيرون من أعضاء المؤتمر يطلبون سماع دانتون وأصدقائه فأبى روبسبيير ، ولما أصدرت محكمة الثورة حكمها بالاعدام صاح دانتون مزعجا « اننى أجذب روبسبيير ، وروبسبيير يتبعنى » وكان ديمولان يقول وهم أمام المقصلة : « هذا جزاء ولى الحرية وناصرها » وفى ٥ أبريل سنة ١٧٩٤ أعدموا ظلما فتم لروبسبيير القضاء على زعماء الثورة وأعلامها ، وتألفت منه ومن سانجوست وكوتون حكومة ثلاثية فى حزب الجبل بسطت سلطتها الدكتاتورية على البلاد وأوجدت فى باريس باسم الفضيلة وسياسة التطهير عهد "الأرهاب الأكبر" .

وقد أرسلت زوجة ديمولان وكانت غضة ناعمة الصبا كتاب احتجاج الى روبسبيير فلم يرأف بها وكان جوابه إرسالها الى المقصلة فى ١٣ أبريل ، وأعدم لافوازييه العالم الكيمائى وأندريه شنييه الشاعر ، وكانت تقطع كل يوم مئات الرؤوس فى باريس والأقاليم وتملأ السجون بالأبرياء ، وبلغ من أعدموا فى باريس وحدها فى ٤٩ يوما ١٣٧٦ وكان بها فى ٧ يوليه (قبيل سقوط روبسبيير) سبعة آلاف سجين يرصدهم الموت لتنتصر "الفضيلة" .

عمل روبسبيير فى الوقت نفسه على تدعيم جمهوريته الفاضلة وكان مقتنعا أنه لا تقوم ثورة اجتماعية كاملة على قواعد ثابتة لا تتزعزع إلا اذا قطعت كل اتصال بالماضى، وأنه لا يمكن تبديل الأخلاق العامة تبديلا جوهريا إلا اذا ارتكزت الحياة الاجتماعية على دين جديد وأعلنت المبادئ الأخلاقية التى تسير عليها الحكومة الثورية وتقررت "عبادة الكائن الأعلى" واحتفل الناس بأعياد الطبيعة، والعدل، والحياء، والصداقة وغيرها من الفضائل .

وكان روبسبيير يتقرب الى الشعب بمحاربته الالحاد ويظهر انه خشى أن يتهم بالتقرب الى الأكليروس فخطب المؤتمر فى مايو قائلا : «ليس هناك أى ارتباط بين الله والقساوسة، فمثلهم فى الأخلاق مثل الدجالين فى الطب ، وما أوسع الهوة بين آله الطبيعة وآله القساوسة وما أكبر الشبه بين الالحاد والأديان التى اصطنعوها ، هم الذين شوهوا الكائن الأعلى إذ كونوه على صورتهم وأبعدوه فى السماء ولم يدعوه على وجه الأرض إلا طمعا فى المنفعة والثروة والشرف والجاه .

« ان الكون معبد الكائن الأعلى ، والفضيلة عبادته ، وأما أعياده فانها تتجلى فى غبطة شعب عظيم يجتمع فى صعيد واحد تحت ناظره لتوثيق أواصر الاخاء وتقديم خضوع القلوب الطاهرة» .

والواقع أن روبسبيير كان كأستاذه روسو يحلم باقامة النظم السياسية على دعائم من الاعتقاد بالله وخلود الروح ، وكان ينفر من «الفلسفة» وعبادة العقل التى لا ترسم حدا لحرية الفكر .

وفى ٧ مايو سنة ١٧٩٤ قرر المؤتمر رسميا "عبادة الكائن الأعلى" فاحتفل روبسبيير فى ٨ يونيه بالدين الجديد وسار هو وزملاؤه ، وكان يتقدمهم ، الى ميدان الشان دى مارس تتبعهم عربة تحمل آلات الفنون وتجرها ثيران مذهبة القرون حتى وصلوا الميدان وصعدوا فيه على جبل صناعى تزينه الأشجار وتتخلله الكهوف فألقى روبسبيير هناك خطابا ، وختم العيد وسط المظاهرات الوطنية والدعوات .

كان المأمول أن يضع هذا العيد حدا للدكتاتورية الثلاثية ولكن كوتون ابتدع وسيلة جديدة تزيد من فظاعة النظام الارهابى فصدر مرسوم ١٠ يونيه الذى قرر أن « كل بطء جريمة » و « كل تسامح فى الاجراءات خطر عام » وألغى سماع الشهود وحق الدفاع عن المتهمين ، وأحل الأدلة الأدبية محل الأدلة المادية فخشى أعضاء المؤتمر وأعضاء «لجنة الأمن العام» على أنفسهم واتفقوا مع أنصار دانتون القدماء على اسقاط روبسبيير وحكم الارهاب خصوصا وان الفرنسيين بقيادة غوردان انتصروا على النمسويين والهولانديين فى موقعة فليروس (٢٦ يونيه) ودخلوا بلجيكا فى يوليه .

ذهب روبسبيير الى المؤتمر فى ٢٦ يوليـه يشكو «الائتلافيين المجرمين الذين يبثون الدسائس فى المؤتمر» وندّد بشركائهم فى لجنتى « الأمن العام » و « انقاذ الوطن » وطلب مجازاة الخونة وتطهير اللجنتين من المفسدين فاجترأ كامبون وكثيرون من الأعضـاء على الاحتجاج على روبسبيير « الذى يشل إرادة المؤتمر» .

قصد روبسبيير عندئذ نادى اليعاقبة، وقد احتواه الألم، فقال «انى أريد، اذا دعت الحال، أن أشرب كأس سقراط » وعمل هو وأعوانه فى الكومون على تدبير حركة ثورية فأخذ المؤتمر أهبته .

وفى ثانى يوم (٢٧ يوليه أو ٩ ترميدور) خطب سانجوست نصير روبسبيير فقاطعه الأعضاء ونددوا بالدكتاتورية، ولما حاول روبسبيير الصعود الى المنبر صاح النوّاب : « ليسقط الطاغية ! ليسقط الدكتاتور! » وأنزلوه ثم تقرر القاء القبض عليه وعلى زميليه فى الحكومة الثلاثية .

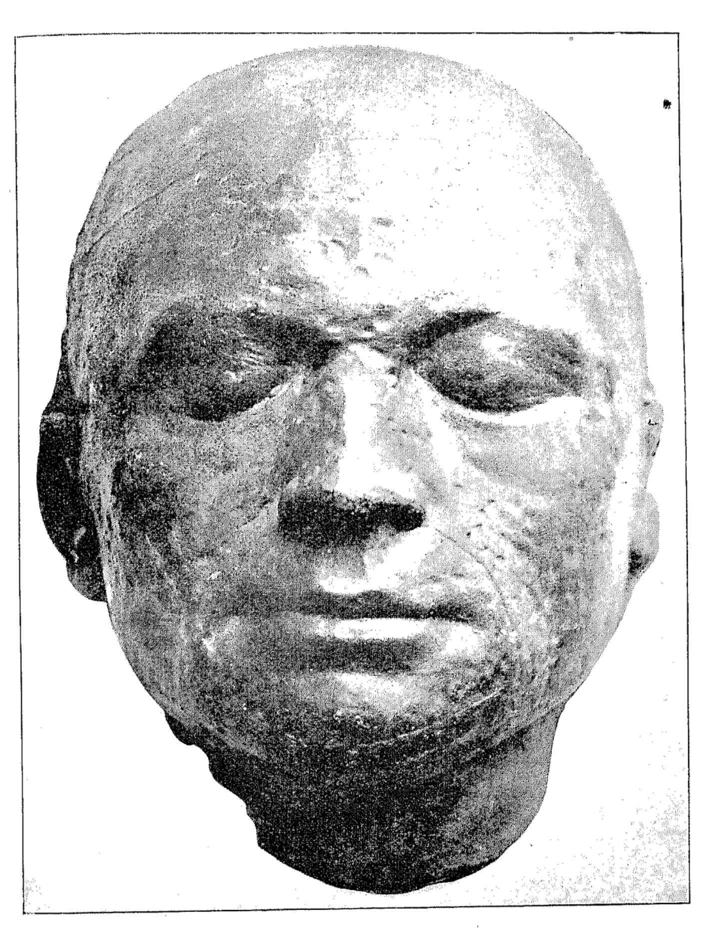
وفى المساء انتزعت الكومون السجناء بالقوة وتحصن روبسبيير ومن معه فى دار البلدية فأعلن المؤتمر «ان الكومون ورئيس الحرس خارجان على القانون » وتمكن من اجتذاب الأخطاط اليه، وسار باراس على رأس الفرق المختلفة التى انضمت الى الجمعية وحاصروا

البلدية فانتحر أخو روبسبيير وآخرون وسيق الى السجن روبسبيير واحد وعشرون رجلا من أعضاء الكومون ومحكمة الثورة أعدموا جميعا فى ٢٨ يوليه سنة ١٧٩٤

٣

حكومة الوسط — حكم فرنسا مدة خمسة أعوام (١٧٩٤ — ١٧٩٩) رجال الوسط أعداء الملكية والإرهاب ، والواقع أن عظمة الثورة انتهى عصرها بمقتل روبسبيير ، وإذا أردنا أن نفهم نفسية الحكومة الجديدة وجب علينا أن نذكر أن غلطة الملكية والثورة كانت فى الافراط فان الملك مدفوعا بامرأته النمسوية وحاشيته أبى أن يستمع لوزرائه المخلصين ويحدث الإصلاحات الأساسية التى كانت تمنع الثورة ، ثم حدثت الثورة فأبى أن يسايرها واستعمل " الفيتو " فى محاربتها ووضع نفسه على رأس الحركة الرجعية التى تريد القضاء عليها من الخارج والداخل فأضعف العنصر المعتدل الذى كانت له الغلبة فى الجمعيتين الأهلية والتشريعية ، ووجد المتطرفون فى الشعب أنصارا وأتباعا .

وأفرط الغيرونديون فى سوق البلاد الى الحرب التى جلبت الارهاب والدكتاتورية ، وربما كان من الميسور اجتنابها والتوفر على تنظيم الثورة وتوطيد نتائجها الاجتماعية والسياسية .



صورة تمثل وجه « جبار الثورة » روبسيير في جلال الموت . وهى رسم طبقة من (المصيص الابيض) يغطى بها وجه الميت فتكون له قالبا يبين عن ملامحه وتماصيله بالدقة — moulage d'aprée nature .

وأفرط روبسبيير فى دكتاتوريته وإرهابه لأنه لم يكتف بقطع رأس الملكيــة بل قطع رأس الثـورة نفسها بارتكابه الفظائع التى أرخت ستارا كثيفا على مبادئها ، وجزره دانتون والغيرونديين وزعماء الثورة فمهد بخطته الطريق لبونابارت .

ومهما كان من الأمر فان الثـورة خلقت فرنسا خلقا جديدا وحسبها أنها جعلت كرامة الإنسان والوطن مبـدأ ساميا ظهرت آثاره فى حياة أوروبا الإجتماعية والسياسية فى القرن التاسع عشر ، وقد كانت الثورة فى مجموعها رغما ممـا تخللها من حوادث مريعة ، من أجمل مظاهر العـزيمة البشرية التى ظهرت فيهـا قوّة المبادئ ففى الداخل قلب الشـعب النظام القـديم الذى خلفتـه عصور الاستبداد وأظهر الزعماء الجبليون من دانتون الى روبسبيير إقداما أنقــذ البلاد من أحرج المواقف بين الفوضى الداخلية والغارة الأجنبية .

وفى الخارج ظهرت الثورة الجديدة فى شكل حرب فتبدّلت الخطط وكانت الحماسة الوطنية الثورية تدفع الصفوف فتحمل على العـدوّ بقوّة وهى تنشــد « المرسيلييز » وبذلك انتصرت جيوش الجمهورية على جيوش أوروبا فى فالمى (٩٢) وواطجنى (٩٣) حتى قال جندى : « انتصرنا وكان المرسيلييز يقاتل الى جانبنا » .

كان من الصعب أن يكتب النجاح لحكومة الوسط لأنها نشأت فى وقت فسدت فيه مبادئ الأكثرين وأنتجت فوضى الإرهاب بعد استبداد الملكية شيعا ومذاهب متناقضة وقعت الحكومة بينها فى مضطرب واسع فكانت تارة تستند الى أعدائها فى اليمين ضدّ الشمال ، وتارة الى أعدائها فى الشمال ضدّ اليمين ، وأخرى تناصبهما العداء معا فسقطت هيبتها حتى جاء نابليون فدانت البلاد لحكم القوى .

حدث فى البلاد على أثر سقوط دكتاتورية روبسبيير ردّ فعل عام فأخرج من السجون مئات الوطنيين وأعدم الكثيرون من أعضاء الكومون والمحكمة الثورية ، وحدث تعديل جديد فى تأليف لجنتى إنقاذ الوطن والأمن العام وفى نظام محكمة الثورة ، وألغيت بعض القوانين الارهابية الظالمة وأغلق نادى اليعاقبة ، وقضى على الكومون التى دامت دكتاتوريتها الشعبية من ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ الى ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٤ ، وعاد الى المؤتمر بقية الأحياء من الغيرونديين والدانتونيين ، وألغى دستور سنة ١٧٩٣ وتقرّر بقاء الحكومة الثورية ، وانحصرت السلطة الفعلية فى المؤتمر .

كانت خطة المؤتمر محاربة «الملكيين والارهابيين» فنقل رفات مارات من مقبرة العظماء "البنتيون" وكسرت أو رفعت تماثيله

التى كانت منتشرة فى الأندية والأحياء الشعبية، ولكن المؤتمر تطرّف فى إدانة حكومة الثورة والجبليين الذين كانوا فى لجنة انقاذ الوطن والمؤتمر ينظمون الدفاع الوطنى .

واتفق فى الوقت نفسه أن الحالة الاقتصادية كانت تزداد سوءا وتدهورت القراطيس المالية، التى صدر منها ما يعدل أكثر من ثمانية مليارات، الى $\frac{1}{15}$ من قيمتها الاسمية فقامت حركة فى أول أبريل سنة ١٧٩٥ وهجم سكان الأحياء الشعبية على الجمعية للمطالبة «بالخبز، ودستور سنة ١٧٩٣، والافراج عن الوطنيين» فظهرت الجمعية بمظهر الخاضع واتخذت بعض الاجراءات ولكنها ألفت فى الحال جيشا بقيادة منو واستعانت به وبالملكيين الذين هيمنوا على الأخطاط(١) بعد سقوط الكومون فى الاستيلاء على أهم الأحياء الشعبية والتنكيل باليعاقبة حتى فنى حزبهم ولم تقم له قائمة .

وكان من علائم « ردّ الفعـل » الذى أعقب الارهاب ظهور حركة دينية كاثوليكية وحركة ملكية علنية فى وقت واحد، كانت

(١) كانت الأخطاط التى أنشأتها الجمعية الوطنية فى سنة ١٧٩٠ جمعيات ابتدائية يدخلها الفرنسيون الذين لا تقل سنهم عن خمسة وعشرين عاما ويدفعون نصابا معينا، وكانت هذه « الاخطاط» تجتمع كثيرا فى الكنائس ويحضر مناقشاتها الجمهور، وقد ظلت يعقوبية ثورية لغاية سنة ١٧٩٤ وقامت بحركات كثيرة منها حركة ٢ يونيه التى تمكنت فيها فرقها المسلحة من ارغام المؤتمر على اسقاط الغيرونديين .

الحركة الثانية ، بوجه أخص ، خطرا على الجمهورية لأن الملكيين بثوا عصاباتهم المسلحة في الجنوب في إكس ، ومرسيليه ، وترسكونه وأعادوا ذكرى مذابح سبتمبر، ونكث زعماء الڤندية عهودهم فثاروا من جديد في مايو ويونيه سنة ١٧٩٥ وأنزل الأسطول الانجليزى على الشاطئ البريتاني ألفا من المهاجرين أبادهم القائد هوش وألقاهم في اليم .

وأرسل لويس الثامن عشر (كان المهاجرون أعلنوا لويس السابع عشر ابن لويس السادس عشر ملكا بعد موت أبيه ولكنه مات في هذه الأثناء) من مدينة فيرونه في فينيسيا نداء يعلن فيه عزمه على الانتقام وإرجاع العهد القديم أى القضاء على الثورة ونتائجها .

دستور سنة ١٧٩٥ — لم يقتصر ردّ الفعل على النزعة الدينية أو السياسية بل تناول الناحية الاجتماعية أيضا في عصر المؤتمر الأخير وفي عصر حكومة الادارة التي كانت خاتمة الثورة : جرى الحكام وأولو الأمر المسئولون على سياسة الوسط لا حبا في الجمهورية المعتدلة ولكن خوفا من انتقام الملكيين أو الارهابيين المتوقع ، وحرصا على الولاية والاستمتاع بالحكم وما اليه من رشوة

ورى شهوات[١] . وما كان أولئـك الطامعون حديثو النعمة ليرضوا بدستور ســنة ١٧٩٣ فعوّلوا على وضع دستور جديد يمنح الأغنياء وحدهم حق الانتخاب «حتى يحكم الملاك البلاد» وكان أكبر همهم منع الملكيين من تقلد السلطة .

كان الانتخــاب فى دستور سنة ١٧٩٥ على درجتين ، وكانت مهمة الجمعيات الابتدائية اختيار الناخبين الذين ينتخبون النوّاب ، وكان يشترط فى النوّاب أن تكون لهم أملاك ذات دخل معين .

---

(١) اشتهر من أولئــك الولاة طاليان فى حكومة المؤتمر وباراس فى حكومة الادارة : كان طاليان Tallien موظفا صـغيرا فى المكاتب المـالية والتجارية حين أعلنت الثــورة فاعتنق مبادئها وأصدر جريدة «صديق الوطنيين» وعين بعد حركة ١٠ أغسطس سكرتير الكومون القضائى ، ثم دخل عضوا فى المؤتمر الوطنى و لجنة انقاذ الوطن وكان من ألد خصوم الغيرونديين . وفى ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٢ انتدبه المؤتمر فى بوردال فأسرف فى الارهاب والتقتيل ولكنه أثرى على حساب « المشبوهين » وما لبث أن وقع فى حب غانية فاتنة المركيزة طرازيا التى ألقى القبض عليها وهى تهم بالرحيل الى اسبانيا فأطلقها وعمرت مودتهما فلانت عريكته ، ولمـا عاد الى باريس فى سنة ١٧٩٤ انقلب ثوريا أحمسا ليكفل سلامته وسلامة المركيزة بينما كان يعمـل خلسة على اسقاط روبسبير ودكتاتوريته (٢٧ يوليه) فنجح فى خطته وسيطر بعد ذلك على « لجنــة انقاذ الوطن» والمؤتمر فأغلق نادى اليعاقبة وألغى محكمة الثورة وأعدم رؤساءها وأنصاره الأوّلين ، وتزوّج فى هذه الآونة بالمركيزة ، وفى عهد حكومة الادارة صار عضوا فى مجلس الخمسمائة وذهب مع البعثة العلمية التى رافقت بونابرت فى مصر .

وتقرر انتخاب مجلسين "مجلس الخمسمائة" أو مجلس النوّاب و"مجلس الشيوخ" المؤلف من ٢٥٠ عضواً، الأوّل يقترح القوانين والثانى يوافق عليها، ولا ينفذ قانون إلا باتفاق المجلسين .

ومنعا لحدوث تغييرات فجائية رؤى أن لا يجدّد سنويا إلا ثلث الأعضاء بالانتخاب ، ولما كان المؤتمر يريد أن يكفل بقاء الحزب الجمهورى فى الولاية تقرر أن يكون الثلثان فى الدور التشريعى الأوّل أى فى العام الأوّل من أعضاء المؤتمر الخارجين .

وآلت السلطة التنفيذية الى مجلس إدارى (حكومة الادارة) مؤلف من خمسة أعضاء ينتخبهم الشيوخ من عشرة يقترحهم مجلس الخمسمائة، وكان يتعين سقوط عضو بالاقتراع وانتخاب آخر مكانه فى كل عام .

وكان أعضاء حكومة الادارة يعينون الوزراء، الذين كانوا فى الواقع وزراء اداريين خاضعين لهم، والقوّاد والسفراء .

ويؤخذ على هذا الدستور أنه فصل بين السلطات ولكنه لم يمنع اصطدامها وفض النزاع المحتمل بالوسائل القانونية فلم يخوّل السلطة التشريعية حق اسقاط الوزراء أو اعضاء الحكومة الادارية

ولم يخوّل السلطة التنفيذية حق حل المجلس عنـد حدوث خلاف كما هو الحال فى معظم الدساتير الحديثة .

والذى يعنينا الآن أن قرار المؤتمر القاضى بانتخاب خمسمائة من أعضائه فى الهيئة التشريعية الجديدة أثار حنق البـلاد وخصوصا الملكيين الذين دبروا فى الأخطاط حركة ثورية فى ٥ أكتوبر هجم فيها ٢٠٠٠٠ ثائر على المؤتمر فما كان من باراس الذين عهد اليـه المؤتمر بانقاذه إلا أن دعا الضابط الجرىء بونابرت وكان عزل من وظيفته باعتباره من اليعاقبـة أو الارهابيين رغما من حسن بلائه فى تخليص طولون من الانجليز .

تردّد بونابرت قليـلا لانه كان يخشى أن يخفق فى مهمته فيذهب «ضحية جرائم المؤتمر» ثم قبل ولكنه رفض رقابة ثلاثة من النوّاب وتفرّد بالقيادة المطلقة ، وسرعان ما استولى على الأخطاط وأخمد الفتنة بفرقه ومدافعـه ، وشرع المؤتمر فى مقاضاة الملكيين وأعاد القوانين الخاصة بالمهاجرين والقساوسة ، ثم انفض بعـد أن أنقذ الجمهورية فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ .

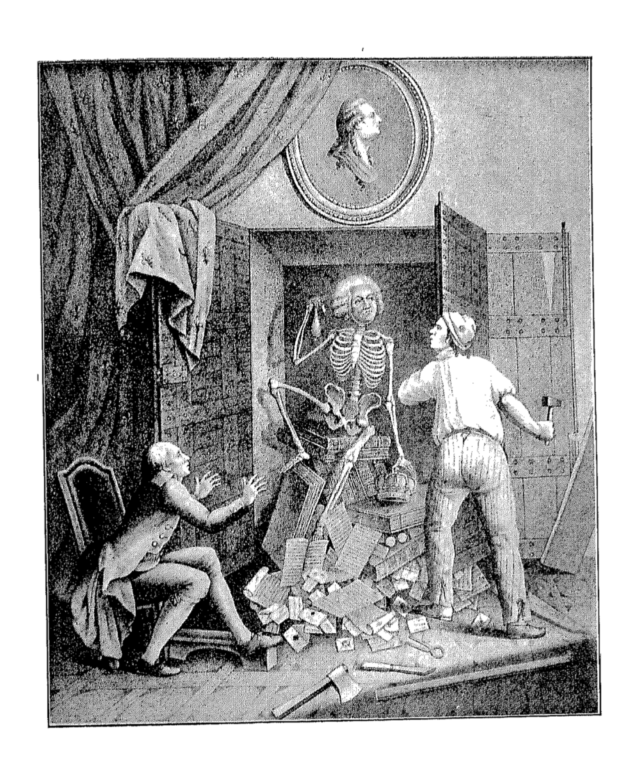
الفصل الخامس

حكومة الادارة

١

اجتمع المجلسان لانتخاب أعضاء حكومة الادارة فاختارا راوبل، و باراس وكارنو (مكان سيايس الذى رفض العضوية)، وليبو، ولتورنير، وكانوا جميعا ماعدا كارنو من سقط الحكام، واشتهر باراس بالتهالك على اللذات والرشوة فى غير احتشام فى وقت كانت البلاد أحوج ما تكون فيه الى حكومة قوية نزيهة .

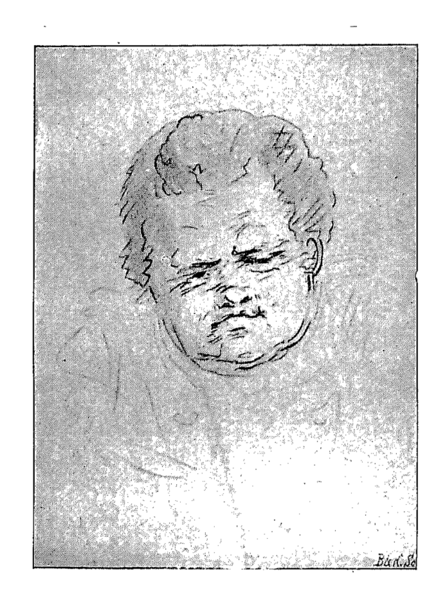
كانت خطة الحكومة الجديدة التوسط بين الملكيين و «الفوضويين» ، وتوطيد النظام الدستورى بعد الدكتاتورية ، واصلاح الحالة المالية قبل كل شيء فقد أحدث سقوط القراطيس المالية التى كان يوردّها دافعو الضرائب عجزا فى ميزانية الدولة ، ونضب المال فى الادارات العامة حتى أصبح الموظفون والجنود فى حالة يرثى لها .



خيال ميرابو

في بدء سنة ١٧٩٢ رأى لويس السادس عشر ان الحكمة تقضى باخفاء اوراق كثيرة خاصة بسياسة الملكية والبلاط فاستعان بالعامل جامان فى تركيب دولاب حديدى داخل حائط فى قصر التويلري ، ولكن لما سجن الملك تمهيداً لمحاكمته بعد ١٠ اغسطس ذهب العامل الى رولان وزير الداخلية واطلعه على السر فانطلق الوزير لساعته الى القصر واستخرج الاوراق من مخبئها وفحصها ثم عرضها فى اليوم التالى (٢٠ نوفمبر) على المؤتمر الوطنى (كونفنسيون) . كشفت هذه الاوراق عن حقيقة العلاقات التى كانت بين البلاط ومترنيخ وديموريز وبارناف وجارات ورؤساء المهاجرين وغيرهم وعن الاعانات السرية المختلفة ، التى بينها المبالغ التى كان يتقاضاها ميرابو مقابل تقاريره ومجهوداته في سبيل تأييد العرش واضعاف الجمعية الوطنية والكيد لها

الرسم يمثل وزير الداخلية رولان ، وهو يحاول بواسطة العامل جامان فتح الدولاب الحديدي حيث يبدو خيال ميرابو فى صورة هيكل عظمى يحمي التاج باحدى يديه ويمسك بالاخرى صرة من المال بينما تتساقط الاوراق الكثيرة التى اضعفت مركز الملك وانصاره



دانتـــون

الرسم وضعه المصور البارون دينون Denon (١٧٤٧ــ١٨٢٥) داخل محكمة الثورة في احدى جلسات قضية الدنتونيين ، وهو مأخوذ من مجموعة كيمنسو ويعد من اهم صور دانتون. يرى القارىء الكآبة مرتسمة على وجه ذلك الرجل الذى كان خطيب الثورة وسياسيها ووزير الدفاع الوطني وكان منافس روبسبير في الزعامة فعمل على التخلص منه باخراجه من « لجنة انقاذ الوطن » اولا ورميه بالضعف والخيانة وتقديمه لمحكمة الثورة بسبب قيامه في وجه سياسة الارهاب التى كان روبسبير يرى فى بقائها بقاء سلطانه وتوكيده

وقد نجح روبسبير في افناء جميع خصومه ومزاحميه من غير وندبين ودانتونيين وهيبرتيين وغيرهم من الرجال الذين قامت الثورة على اكتافهم : استولت عليه حين حمى وطيس الثورة نزعة دينية شبيهة بنزعة المتصوفين Mysticisme تجلت فى عبادة الكائن الاعلى . وفي اعتقادنا ان هذه النزعة خير مايفسر مسلك هذا الرجل الغريب الذى جزر زعماء الثورة جميعا حتى تفرد بالامر ، فانها اذا تمكنت من زعيم اعتقد في نفسه العصمة والقدرة على شيء وخلط بين قضية البلاد وقضيته فاصبح لايحتمل اقل معارضة وصار حكمه حكم الدكتاتورية والارهاب ، ومن هنا يتبين سر عظمة الرجل وضعفه

بدأت الحكومة بانقاص القراطيس المالية الى واحد فى المائة من قيمتها الأصلية ، وأصدرت أوراقا مالية جديدة ، وعقدت قروضا بضمانات معينة فرجت الأزمة الى زمن .

وكانت الحكومة فى سنة ١٧٩٦ قلقة من جراء اليعاقبة الذين أعادوا فتح النادى تحت اسم « نادى البنتيون » وأخذوا يروّجون المبادئ الاشتراكية و يطالبون بدستور سنة ١٧٩٣ وتقسيم الأرض ، وكان زعيمهم «غراكوس بابيف» ينادى فى جريدته بانقاذ الشعب من « الفاسدين » و يدبر مؤامرة لقلب حكومة الادارة ودستور سنة ١٧٩٥ ، فالتف حوله نحو ١٧٠٠٠ من الاتباع ولكن الحكومة عجلت باعتقاله وتقديمه للقضاء الذى حكم عليه بالاعدام (مايو سنة ١٧٩٦) .

عاود الأمل الملكيين على أثر فشل اليعاقبة فاستعانوا بالغساوسة فى بث الدعوة فى انتخابات سنة ١٧٩٧ وكان أكثر الفلاحين والملاك الذين قنوا ثروتهم من أملاك الاكليروس والمهاجرين فى قلق من قانون الأراضى الجديد الذى فكر فى وضعه اليعاقبة فحملهم ذلك على انتخاب أغلبية من المعتدلين الذين يميلون الى الملكية فى المجلسين .

خشى أعضاء الادارة من عودة الملكيين الى السلطة خصوصا وأن القائد بشجرو ، ظهير لويس الثامن عشر ، عين رئيسا لمجلس

الخمسمائة، وانتخب برطلمان الملكى عضوا فى حكومة الادارة مكان لتورنير، وألغى المجلسان القوانين الخاصـة بالمهاجرين والقساوسـة الذين بدأوا يفدون الى باريس مركز الحركة الرجعية .

أخذ الوطنيون والدستوريون ينشئون الأندية المختلفة لتأييـد الحكومة وكانت الكاتبة مدام «ستايل» ابنـة نيكر من أعوانها ، وهى التى أدخلت تاليران فى وزارة الخارجية . وقد وجدت الحكومة خير سـند لها فى القوّاد وخصوصا فى بونابرت الذى عرض جيوشه التى يقودها فى إيطاليا ضـدّ النمسا ، احتفالا بذكرى ١٤ يوليـه فأقسم « على الألوية أن يشنّ على أعداء دستور سـنة ١٧٩٥ حربا عوانا » والحقيقة أن بغيته الأساسية كانت القضاء على حزب الأسرة الملكـية .

أوفـد بونابرت الى باريس فرقة من جيشه برئاسـة الضابط أوجرو ودعا باراس القائد هوش من الرين فغضب بشجرو واقترح إعادة انشاء أحراس أهليـة فى الأخطاط ، ولكن أغلبيـة أعضاء حكومة الادارة عوّلت على إحداث انقلاب بالقوّة وعهـدت الى أوجرو برياسـة الجيش فى باريس ، وكان كارنو يعتقد فى إمكان ضبط الحركة فى حدود الدستور ويأبى الاشـتراك فى أى عمل غير قانونى ومن ثم صار إخراجه أمرا لا بد منه .

وفى ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ حاصر أوجرو قصر التويلرى مقر السلطة التشريعية، وألغيت الانتخابات فى ٤٩ مقاطعة، ونفى نواب وقساوسة كثيرون، وأوقفت حرية الصحافة، وأبطل إلغاء قوانين المهاجرين والاكليروس، وانتخب عضوان جديدان فى حكومة الادارة مكان كارنو الذى انسحب فى ألمانيا و برطلمان .

والواقع أن الفلاحين والملاك الكثيرين فى الأقاليم أصبحوا حانقين من جديد على الملكيين، كما حنقوا من قبل على اليعاقبة، لأن لويس الثامن عشر كان يعد المهاجرين والكهنوت فى بياناته المختلفة برد أملاكهم اليهم وكان فريق المتنورين لا يرضى عن عودة العهد القديم ومساوئه .

وفى سنة ١٧٩٨ كانت الانتخابات جبلية فألغت حكومة الادارة انتخاب ستين نائبا، على أن البلاد سئمت الانقلابات المتناقضة فى السياسة الداخلية، وسئمت الادارة الفاسدة بعد ان فقدت القراطيس المالية ٩٨ فى المائة من قيمتها، وفرضت الحكومة ضريبة جديدة على النوافذ والأبواب، وألغت ثلثى الدين "إفلاس الثلثين"، وتكاثر المضاربون وارتفع شأنهم، وظهرت المترفات من ذوات الدلال أمثال مدام طاليان، ومدام ريكامييه، وجوزفين، وكان متعهدو الجيش وغيرهم، بالاتفاق مع بعض الحكام، يعبثون بمصالح الدولة

وأموالها ولا هم لهم إلا ارتياد اللذات فى المراقص ، والمسارح ، والمطاعم ، والمقامر حيث انحلت الأخلاق وخلع الناس العذار .

وليس أدل على هذا الانحلال من الاندفاع فى الطلاق الذى كان المؤتمر الوطنى جوّزه بمرسوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ : كان فى باريس فى أواخر سنة ١٧٩٣ ، ٥٩٩٤ طلاقا ، وكانت النساء فى عهد حكومة الادارة تنتقل شرعا من رجل الى رجل فى زمن وجيز حتى تفككت الأسرة ، وبلغ عدد اللقطاء فى سنة ١٧٩٧ فى باريس وحدها ٤٠٠٠ وفى الأقاليم ٤٤٠٠٠ ، وانتشرت الكتب الساقطة التى تصوّر الرذيلة فى ألوان مختلفة بين أيدى الفتيات ، وكان الملكيون ينظرون بعين الرضى الى تدهور الأخلاق فى جميع الطبقات حتى تفسد الروح الجمهورية ويتداعى البنيان .

وكان القساوسة ينسبون هذه الفوضى الى فقدان الزاجر الدينى ، واستمر اليعاقبة وبعض النوّاب يطالبون « بالتطهير » والتخلص من حكومة الرشوة والفساد .

على أن البلاد فى مجموعها كانت تحس أنها مدفوعة الى الهاوية ولا تتمنى إلا الراحة من النزاع الداخلى والحرب التى كان أعضاء الحكومة يعملون على إطالتها حرصا على مناصبهم وحبا فى الملايين

التى كان القوّاد يمدّونهم بها ، والواقع أن الجيش وحده هو الذى كانت تتمثل فيه حيوية البلاد .

٢

الحرب (١٧٩٤ – ١٧٩٩)

أعلنت الحرب فى أبريل سنة ١٧٩٢ فأراد الجيش الفرنسى غزو بلجيكا فهزمه النمسويون ، ثم انضمت بروسيا الى النمسا ودخل الجيش البروسى النمسوى فى اللورين (١٩ أغسطس) واستولى على لونجوى (٢٣ أغسطس) وفردان (٢ سبتمبر) واتجه الى سهول شمبانيا التى تحميها سلسلة من التلال المغطاة بغابات الأرجون وكان لا يمكن اجتيازها إلا من خمسة مضايق أو ممرّات . عين ديموريز فى أثناء ذلك قائدا على جيش الشمال (بعد ١٠ أغسطس) فلما علم بتقدّم النمسويين والبروسيين غادر سيدان الى المضايق ولكن الحلفاء اقتحموا ممرّا ودخلوا شمبانيا ولم يبق بينهم وبين باريس إلا مسافة ٢٠٠ كيلومتر . ظل ديموريز ينتظر مددا من جيش الوسط وكان فى أثناء ذلك يهدّد الجيش الفاتح بقطع خط الرجعة عليه فلم ير البروسيون بدا من رضخ شوكته وحدثت موقعة فالمى الشهيرة (٢٠ سبتمبر) التى انتصر فيها الفرنسيون وأرغموا العدوّ على التقهقر .

جرت الجيوش الفرنسية بعد فالمى على خطة الهجوم فاحتلت فى مدّة شهر (٢٠ سبتمبر — ٢١ أكتوبر) فى الجنوب الشرقى سافواى وكونتية نيس التابعتين لملك سردانية[1]، وفى الشمال الشرقى أشبير، وورمز، وما ينسه على ضفة الرين الغربية .

وفى شهر نوفمبر دخل ديموريېز بلجيكا واستولى عليها بعدموقعة جاماب (٦ نوفمبر) فتحرّكت أطماع الفرنسيين وتحوّلت سياستهم الخارجية من روح الثورة التى تعمل على تحرير الشعوب ونشر مبادئ العدل والحرية الى روح التقاليد القديمة التى صار يمثلها دانتون بعد ريشليبه باسم « الحدود الطبيعية » .

وعلى ذلك أعلن الفرنسيون فى أوائل سنة ١٧٩٣ ضم الفتوحات الجديدة (فبراير ومارس) لأجل « بناء العظمة الفرنسية » ، كما قال دانتون، وكان إعدام الملك (٢١ يناير) وإمتلاك بلجيكا فى هذه الآونة سببا فى دخول انجلترا (آخر يناير) فى حرب تفانى فيها الفريقان ولم يهدأ الإنجليز إلا بعد أن انتزعوا بلجيكا من فرنسا (١٨١٥) .

---

(١) مملكة سردانية كانت مؤلفة من جزيرة سردانية ، وبيمون فى الشمال الغربى من ايطاليا ، ونيس وسافواى فى جنوب فرنسا .

ألبت انجلترا الدول على فرنسا وكونت "الائتلاف الأول" من هولاندة، وسردانية، ونابل، والبرتغال، وإسبانيا، وروسيا التى انضمت كلها تحت لوائها مع بروسيا والنمسا وكان الإنجليز يمدّون هذه الدول بالمال حتى يتمكنوا من القضاء على فرنسا برا وبحرا .

دخلت الثورة من جديد فى عصر هزائم بين مارس وأكتوبر سنة ١٧٩٣ فانتصر النمسويون بقيادة الأمير كوبورج على ديموريز فى نيروند (٨ مارس سنة ١٧٩٣) واستردوا بلجيكا ، واسترد البروسيون ضفة الرين الغربية وبدأ الإئتلافيون سياسة الهجوم على الحدود فتقدّم الاسبانيون فى أطراف جبال البرنات، وسلم الملكيون ثغر طولون للانجليز (٢٧ أغسطس)، ودخل النمسويون والبروسيون الالزاس فى الشمال الشرقى ، وصار النمسويون يهدّدون باريس من الشمال باستيلائهم على بلنسيان وحصار موبيج (سبتمبر)، ولكن الفرنسيين فى هذه الساعات العصيبة إنتفضوا خفافا وتدفقت جموعهم بقوّة الوطنية والعزيمة والإقدام على العدوّ فردّت غارته الشعواء .

وكانت فاتحة الإنتصارات فى الشمال حيث هزم كارنو، مندوب لجنة إنقاذ الوطن، والقائد غوردان النمسويين بقيادة كوبورج

فى ١٦ أكتوبر ، ونجح هوش الجمهورى الصميم من تخليص الالزاس من النمسويين فى ديسمبر (واقعة فيسمبورج فى ٢٤) .

وفى سنة ١٧٩٤ اتخذت الجيوش الفرنسية خطة الهجوم من جديد لإسترداد بلجيكا وضفة الرين : هزم غوردان النمسويين فى فليروس (٢٦ يونيه سنة ١٧٩٤) فأزاحهم عن بلجيكا وتبعهم الى الرين حيث إحتل كولونيا وقوبلنسية (أكتوبر) .

وفى الوقت نفسه تعقب بيشجرو الانجليز شمالا وردهم فى يوليه الى أنفرس وفى هولاندة التى استولى عليها فى مدة ثلاثة أشهر (نوفمبر سنة ١٧٩٤ — يناير سنة ١٧٩٥) .

ولما كانت بروسيا تخشى أن تشرع كاترين الثانية امبراطورة روسيا وفرنسيس الثانى امبراطور النمسا فى تقسيم بولندا عوّلت على إنهاء الحرب مع فرنسا ، وجرت مفاوضات الصلح فى بال (بسويسرا) حيث عقدت معاهدة ٥ أبريل فاعترفت بروسيا باحتلال الجيوش الفرنسية ضفة الرين الغربية ، وبلجيكا مقابل مساعدة فرنسا لها فى الحصول عند إنتهاء الحرب على عوض فى ألمانيا .



مارات

مارات (١٧٤٤–١٧٩٣) زعيم ديماجوجي من اكبر انصار الفوضى الشعبية وسفك الدماء ، كان اكبر محرض على مذابح سبتمبر (١٧٩٢) واعدام الغيرونديين وتدخل الغوغاء في حكومة البلاد الشرعية ، ولما قتل (١٧٩٣) نصبت له التماثيل في كل مكان لانه كان صنم الشعب

وبعـد ثلاثة أشهر أمضى الصلح فى بال بين أسبانيا وفرنسا (٢٢ يوليـه) فتنازلت الأولى للثانيـة عن نصيبها فى سان دومنج فى بحر الأنتلس تمهيدا للتحالف معها ضدّ إنجلترا .

وكان الهولانديون أمضوا مع الفرنسـيين فى لاهاى معاهدة (١٦ مايو سـنة ١٧٩٥) تعهدوا فيها بمساعدة فرنسا بأسطولهم ضـدّ انجلترا وتنازلوا لهـا عن بعض المقاطعات الواقعة على ضفة الرين الغربيـة ، وذلك بعـد أن طردوا الأسرة المـالكة وأعلنوا الجمهورية .

انسحبت بروسيا ، وهولاندة ، وإسبانيا من الحروب فلم يبق فى القارة أمام فرنسا إلا النمسا فعوّلت على توجيـه جيوشها ضدّها فى ألمـانيا وفى إيطاليا التى كانت تملك فيها دوقيـة ميلانو وتبسط حمايتها على الكثير من ملوكها وأمرائها .

أعدّ كارنو عضو حكومة الإدارة ثلاثة جيوش اثنـين بقيادة غوردان ومورو لمهاجمة النمسا من وادى الطونة فى جنوب ألمـانيا والثالث بقيادة نابليون بونابرت لمهاجمتهـا من ناحيـة سهل الباو ووديان جبال الألب النمسوية ، بدأ إنفاذ هـذه الخطة الحربيـة فى سـنة ١٧٩٦ ولكن غوردان ومورو اضطرا الى التقهقر بعـد

ما توغلا الى حدود بوهيميا ومنطقة الطونة فى مونيخ وعقد النصر على ألوية بونابرت وحده .

نابليون بونابرت — ولد نابليون بونابرت سنة ١٧٦٩ فى قورسقة بعد ما تنازلت عنها جنوة الى لويس الخامس عشر وتخرّج فى مدرسة باريس الحربية فى السادسة عشرة من عمره (١٧٨٥) وكان أحد أساتذته يقول عنه "أنه سيصل الى الذروة لو ساعدته المقادير" .

مال بونابرت صغيرا الى قراءة الكتّاب والفلاسفة، والتوفر على درس الجغرافيا والرياضيات والقانون والسياسة، وطمح الى الخروج من البؤس الذى كان يعانيه، فلما حدثت الثورة انضوى تحت لوائها واتصل باليعاقبة وقد أعان كثيرا القائد ديجومييه فى تخليص طولون من الانجليز فعينه قائد فرقة مدفعية (١٧٩٣) .

وبعد سقوط روبسبيير (٢٧ يوليه سنة ١٧٩٤) سجن بونابرت زمنا ثم أقيل من وظيفته فاتصل بكارنو، وكان على فقره واسع الحيلة والدهاء فما لبث أن دخل فى ندى مدام طاليان واجتمع بخيرة الرجال حتى دعاه باراس الى قيادة جيش باريس وإنقاذ المؤتمر من الملكيين (١٧٩٥) .

وفى ٢٩ فبراير سنة ١٧٩٦ عين قائد جيش ايطاليا، بمساعدة باراس وكارنو، ثم تزوّج بجوزفين صديقة باراس (٩ مارس) واستلم القيادة فى ٢٩ مارس وكان قوّاده يأنفون أن يهيمن عليهم «قائد من الشارع» ولكنه حين رآهم أوّل مرة فى نيس حيث كان يقيم أركان حربه هجمت عليهم نظرته فهابوه وخاطبهم بلهجة مسيطر .

وجد بونابرت جيشه فى بؤس واضطراب فعوّل على إجتذاب الجند، وكان خبيرا بالنفس البشرية، فأطمعهم فى المغانم والأسلاب[1]، وعوّل على اجتذاب حكومة الإدارة اليه بمدّها بالأموال التى تفيض عليه من الضرائب التى يفرضها على فتوحاته واتحافها بالآثار النفيسة التى يستولى عليها، وعوّل على اكتساب محبة البلاد التى يغزوها باعلانه العمل على تحريرها من الجور والاستبداد وتوطيد العدل والحرية فيها .

كان فى جنوب بيمون جيش نمسوى وجيش سردانى فانسل بينهما نابليون فى أبريل وهجم عليهما يمنة ويسرة حتى قطع ما بينهما

(١) قال بونابرت فى أوّل خطاب وجهه الى جيشه فى ٢٩ مارس : «أيها الجند، أنتم عرى لا تجدون من القوت ما يقيم أودكم... والحكومة مدينة لكم ولكنها عاجزة عن أن توفيكم بعض حقكم... فهأنذا أسير بكم الى أخصب بقاع العالم... وهناك تجدون الشرف والمجد والثروة، أى جنود ايطاليا : أتعوزكم الشجاعة والصبر؟» .

(١٣ أبريل) ثم تقهقر النمسويون شرقا فأناخ على السردانيين غربا وتعقبهم حتى بلغوا « شراسكو » ، على بعد مرحلتين من عاصمتهم تورينو، فطلبوا الهدنة فيها (٢٨ أبريل) ثم أمضى صلح باريس الذى اعترف فيه ملك سردانية بامتلاك فرنسا سافواى وكونتينه نيس (٣ يونيه) .

عاد بونابرت الى النمسويين وانقض عليهم ، متنقلا من نصر الى نصر، معتزا بارادة لا تكل ورأى يحكم تدبير خطط القتال، حتى أخلى النمسويون ميلانو خشية أن يلفهم فعجل بدحرهم فى واقعة لودى (٩ مايو) ووصل فى آخر يوليه الى « منطوه » فحاصرها ستة أشهر، وكانت هذه المدينة تهيمن على وادى المنسيو ووادى الأديج وهما الطريقان الطبيعيان اللذان تنزل منهما الجيوش النمسوية فى ايطاليا ، وهذا ما حمل النمسا على إرسال أربعة جيوش متعاقبة لرفع الحصار عنها (أوّل أغسطس سنة١٧٩٦ — ٢ فبراير سنة١٧٩٧) ولكن بونابرت مزق شملها جميعا وخصوصا فى واقعة ريفولى الشهيرة (١٤ يناير سنة١٧٩٧) وتمكن من الاستيلاء على منطوه فى ٢ فبراير.

كان الأميران الايطاليان فى بارم ومودين عقدا الصلح مع بونابرت على أثر انتصار «لودى» ودفعا له غرامة فادحة فلما سقطت منطوه رأى البابا بيوس السادس ضرورة عقد الصلح وكانت الجيوش

الفرنسية تحتل بولونيا وأنكونه فى ولاياته فاعترف فى معاهدة طولنتينو (١٧ فبراير) بامتلاك الجمهورية الفرنسية كونتية أفنيون فى جنوب فرنسا، وتنازل لها عن أنكونه وبولونيا وولاية رومانية فى ايطاليا، ودفع غرامة قدرها ٣٥ مليونا .

اتجه بعد ذلك بونابرت الى ڤينا وهزم فى طريقه القوّات النمسوية ولم يبق بينه وبين العاصمة إلا مائة كيلو متر فتهادن الطرفان فى ٧ أبريل وأمضيا فى لوبين (١٨ أبريل) «تمهيدات الصلح» التى حوّلت الى معاهدة صلح فى كامبو فورميو (١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧) :

اعترف الامبراطور فرنسوا لفرنسا بحدود الرين، وتنازل لها عن بلجيكا وعن دوقية ميلانو ولومبارديا واعترف بجميع التغييرات السياسية التى أحدثها بونابرت فى شمال ايطاليا وهى حلول «الجمهورية الليغورية» الديمقراطية محل «جمهورية جنوة» القديمة (يونيه ١٧٩٧)، وإنشاء «الجمهورية الألبية» من ميلانو، ولومبارديا، ودوقية مودين ورومانية، وكان دستور الحكومة فى شمال ايطاليا على نسق الدستور الفرنسى (حكومة إدارة ومجلسان) .

حصلت النمسا مقابل ذلك على جمهورية البندقية وولايتها دلماسية على ساحل الإدرياتيكى ، أما الجزر الأيونية التابعة لها ، غرب اليونان ، فقد استولت عليها فرنسا .

وكان أحد قواد بونابرت احتل البندقية فى مايو بحجة « توطيد النظام » وما لبث أن اعتدى على استقلال أقدم ولاية مستقلة فى أوروبا تمتعت بحريتها أربعة عشر قرنا فسلب متاحفها آثارها وأفرغ خزانتها لاثراء حكومة الادارة ، قبل تقسيمها مع النمسا .

والواقع أن معاهدة "كامبو فورميو" لم تكن إلا هدنة مؤقتة لأن النمسا كانت لا تنظر بعين الرضى الى اتساع فرنسا فى بلجيكا ، وحدود الرين ، وشمال إيطاليا . وكانت حكومة الادارة فى فرنسا تريد الجرى على سياسة التوغل فى الفتح باسم العظمة الفرنسية ، لأن الحرب فى الحقيقة صارت صناعة لها تجد فيها الربح والمجد ودعائم السلطة وصارت فى الوقت نفسه صناعة للقواد يجدون فيها الغنم والشهرة ، وقد حدث فى عهد حكومة الادارة ما حدث فى الدولة الرومانية وكان من عوامل سقوطها ، ذلك أن الجنود كانوا فقراء خاوى الوفاض ففتح لهم القوّاد طريق النهب والسعة فى « أخصب بقاع العالم » فصار تعلقهم بحكومتهم منحصرا فى شخص القوّاد .

بدأ بونابرت منذ معاهدة كامبو فورميو يجرى على سياسة شخصية لا تتفق مع خطة حكومة الادارة التى أصبحت تحسب له حسابا خصوصا وأن الحكومة هى أول من لجأ الى الجيش (أوجرو فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) فى النزاعات الداخلية وأدخلته دائرة باريس رغما من الدستور، فمهدت بذلك له ولقواده أو للقائد المتفوق سبيل الدكتاتورية والحكم .

ولا ريب أن خوف الحكومة من نفوذ القوّاد والرغبة فى المحافظة على السلطة كان من العوامل التى تدفعها الى إطالة الحرب وتوسيع دائرتها وخلق المشاكل الأوربية التى سواها السيف بعد أن استنفدت قوى البلاد ثلاثة وعشرين عاما (١٧٩٢ — ١٨١٥) .

كانت انجلترا فى يوليه سنة ١٧٩٧ تريد الصلح بسبب إفلاس خزانتها وثورة الأرلنديين ففاوضت فرنسا فعلا فى إنهاء الحرب ولكن الحكومة بعد تغلبها على الملكيين وأنصار السلم فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧ قررت فى أكتوبر متابعة الحرب الى النهاية ودعوة بونابرت من إيطاليا «حيث خان بصلحه قضية الجمهورية الفاتحة» وتكليفه بقيادة « جيش انجلترا » .

أخذت فرنسا بعد ذلك تدبر القلاقل والثورات فى ولايات إيطاليا وسويسرا لتتدخل فيها وتبسط نفوذها : حدث فى ديسمبر

سنة ١٧٩٧ نزاع بين البابا بيوس السادس وبين الوطنيين فى ولايته قتل فى أثنائه القائد ديفو فى السفارة الفرنسية فتدخل الفرنسيون ، وأخرجوا البابا من رومة ، ثم أعلنت "الجمهورية الرومانية" فى ١٥ فبراير سنة ١٨٩٨ ووضعت تحت حماية فرنسا .

وفى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٨ ضمت الى فرنسا جمهورية ميلوز التى كانت مندمجة فى الاتحاد السويسرى ، ثم خلقت حكومة الادارة فى سويسرا نفسها ثورة داخلية على حكومتها (يناير سنة ١٨٩٨) فظهرت الجنود الفرنسية بقيادة برون (Brune) فى عاصمتها وأعملت فيها السلب ، وكان فى خزانتها نحو ثلاثين مليونا من الفرنكات استولى عليها القائد وحكومة الادارة ومندوبوها وعمالها ، وفى ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ أعلنت "الجمهورية السويسرية" على مثال الجمهورية الفرنسية الغاصبة .

ولم يبق أمام فرنسا لكى يمتد سلطانها من غير انقطاع من بحر الشمال الى البحر الادرياتيكى إلا بيمون وسرعان ما اتصل القائد برون ومندوب فرنسا فى تورينو بالوطنيين ودبرا الفتنة فيها ضدّ الملك ، ثم تدخل القائد بحجة تحرير الشعب واحتل المدينة فى ٢٨ مايو ، وتمكن الفرنسيون فى ستة أشهر من إخضاع بيمون كلها (٩ ديسمبر سنة ١٨٩٨) .

٣

سقوط حكومة الادارة — استمرت حكومة الادارة في سياسة الفتح لتقصى القواد في الخارج وتشغل الشعب عن سوء الحالة الداخلية ، ولكن الشعب كان لا يمنعه تعلقه بالجيش والانتصارات من الحنق على الحكومة الفاسدة ، حكومة المصالح الشخصية ، والتفكير في قلبها .

عاد بونابرت الى باريس في سنة ١٧٩٨ فاحتفل به أهلها وشخصت اليه الأنظار ، ويظهر أنه لم يجد الظروف مهيأة بعد لاغتصاب السلطة فاقترح على حكومة الادارة مهاجمة انجلترا في مصر والهيمنة على البحر الأبيض بعد ماقضى على البندقية ، إحدى دوله القوية واستولى على الجزر الأيونية .

أبحر الجيش الفرنسي من طولون في ١٩ مايو سنة ١٨٩٨ وهبط الاسكندرية في أوّل يوليه ثم انتصر على المماليك في واقعة الأهرام الشهيرة ودخل القاهرة ، ولكن الانجليز أغرقوا الأسطول الفرنسي في أبو قير (أغسطس) ودحرت جيوشهم وجيوش الأتراك الفرنسيين في وقائع مختلفة وثار عليهم المصريون مرتين لأنهم وعدوا بتحريرهم من ظلم المماليك والأتراك ولم يفوا بوعدهم وكانت حكومتهم

فى مصر، رغما من الاصلاحات الحديثة التى أدخلتها، جائرة ترهق السكان بالضرائب الفادحة حتى رحل الفرنسيون فى سنة ١٨٠١

على أن بونابرت كان غادر الحملة قبـل ذلك وقفل راجعـا فى سنة ١٨٩٩ بسبب ارتباك أحواله الشخصية (مسلك جوزفين فى غيبته) وأحوال بلاده الداخلية والخارجية : وذلك أن غزو مصر من الوجهة الدولية، وسياسة التوسع والفتح التى اتبعتها «الادارة» فى أوروبا مكنا انجلترا الجبارة العنيدة من تكوين «ائتلاف دولى جديد» من انجلترا، والنمسا، وروسيا، وتركيا، ونابولى .

كانت الجيوش الفرنسية فى مارس سنة ١٧٩٩ تتقهقر فى كل مكان أمام جيوش الائتلاف فغزا جيش انجليزى روسى الجمهورية الهولنـدية، وطارد النمسويون الفرنسيين على الرين، وعهـد الى الجيش النمسوى الروسى، بريـاسـة القائد الروسى القادر سافوروف بطرد الفرنسيين من ايطاليا حيث تراجعوا الى جنوة ثم صلبوا من جديد فى المقـاومة فانتصر ماسـينا على القوّات النمسوية الروسية فى زوريخ (٢٦ سبتمبر) وهزم برون الانجليز والروسيين فى هولندة وأرغمهم على تركها (١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٩)، وكانت زوريخ فالمى جديدة تفكك على أثرها الائتلاف الثانى .

بلغت أخبار الهزائم بونابرت ولكنه حين عاد الى باريس فى ١٦ أكتوبر كانت فرنسا أمنت الخطر الخارجى الداهم فلم يثنه ذلك عن انقاذها من الحكومة الداخلية ، التى احتملها الشعب أربعة أعوام ، وتوطيد حكومة قوية تقضى على النزاعات الداخلية بين اليعاقبة ، الملكيين وتنظم شؤون البلاد .

وكانت المعارضة فى مجلس الخمسمائة انتهزت فرصة الهزائم والكوارث التى أصابت البلاد فى سنة ١٧٩٩ وقررت إجراء تحقيق فى أعمال حكومة الادارة فاستقال ثلاثة أعضاء وتألفت الحكومة بعد ذلك من سيايس ، وباراس ، وجوهييه ، ومولان ، وروجير ديكوس .

وجد بونابرت أعوانا فى تاليران وزير الخارجية الذى اضطهدته الادارة لأنه كان من أنصار السلم ، وفى سيايس الذى كان منذ بداية سنة ١٧٩٩ على رأس طائفة من الوطنيين يرون ضرورة تعديل الدستور وايجاد «رأس تفكر وسيف يحكم» ، وقد فكر بعضهم فعلا وفى مقدمتهم سيايس ، فى إسناد السلطة الى الدوق برنسويك القائد البروسى أو الى أحد القواد الفرنسيين ، وما كان سيايس يتوهم انه سيقوم الى جانبه القائد الذى يحمل الرأس والسيف معا .

أخذ بونابرت وسيايس الأهبة لتغيير الدستور فانضم اليهما باراس وديكوس ، وتاليران ، وفوشيه وزير الشرطة وأغلبية مجلس الشيوخ ، ولوسيان بونابرت أخو القائد ورئيس مجلس الخمسمائة .

كانت خطتهم حمل أعضاء حكومة الادارة على الاستقالة فيؤلف المجلسان « لجنة تنفيذية » من ثلاثة قناصل مؤقتين تكون مهمتهم إعداد دستور جديد .

ولما كانوا يخشون معارضة الأعضاء الوطنيين فى مجلس الخمسمائة وتدبيرهم حركة ثورية فى باريس تقرر أن يطلب الشيوخ نقل المجلسين فى سان كلود احدى ضواحى باريس .

وفى ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ أعلن رئيس مجلس الشيوخ النواب أنه اكتشفت مؤامرة خطيرة ضدّ السلطات العامة قائلا : «لم يبق أمامكم إلا لحظة تنقذون فيها الحكومة ، فان لم تهتبلوا الفرصة قضى على الجمهورية وصارت جزر السباع» فقرّر الشيوخ فى كل وقار نقل المجلسين الى سان كلود وتعيين بونابرت قائدا على فرقة باريس وتكليفه بالسهر على سلامة السلطة التشريعية .

اجتمع المجلسان فى ١٠ نوفمبر فى سان كلود فكادت تخفق المؤامرة لأن أكثرية مجلس الخمسمائة وأقلية الشيوخ تواطأوا على

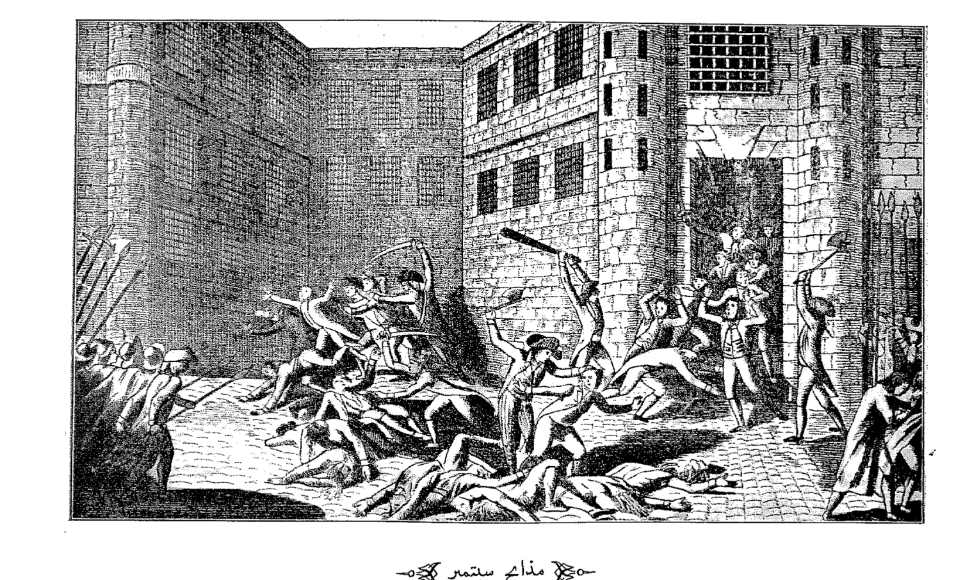
إحباطها فطلبوا إثبات المؤامرة المزعومة وتقديم التفصيلات الوافية عنها، وأقسموا فى الوقت نفسه يمين المحافظة على دستور السنة الثالثة (سنة ١٧٩٥) وطلبوا الشروع فى تعيين عضو فى حكومة الادارة مكان باراس المستقيل : فى هذه الأثناء اقتحم بونابرت مجلس الخمسمائة، ومعه بعض الجند، فصاح النوّاب «خارج على القانون» «ليسقط الدكتاتور!» فخرج شاحب اللون وانطلق أخوه لوسيان يحرّض الجند على النوّاب «المأجورين لانجلترا» الذين أرادوا قتل قائدهم فأطاعوه وهجموا على النواب وطردوهم .

وفى المساء اجتمعت أغلبية مجلس الشيوخ وأقلية الخمسمائة وأعلنوا «أن الضباط والجنود استحقوا تقدير الجمهورية» وقرّروا إلغاء حكومة الادارة وتأليف لجنة من ثلاثة قناصل «سيايس، وديكوس، وبونابرت» ، وتأجيل انعقاد الهيئة التشريعية أربعة أشهر بعد أن اختاروا لجنتين من النواب « للعمل ، تحت إشراف القناصل ، على تعديل الدستور الذى أثبتت التجارب عيوبه » .

رضى الشعب الفرنسى عن هذا الانقلاب الذى مهد الدكتاتورية فقضى على الثورة الفرنسية أحد أبنائها بعد أن فسدت مبادئها فى الداخل والخارج .



نا بليون



مذابح سبتمبر

في شهر اغسطس سنة ١٧٩٢ تحرجت الحالة فى فرنسا امام تقدم العدو نحو العاصمة فكانت تدق النواقيس فى باريس وتطلق المدافع وتقرع الطبول ايذانا بالخطر ، وكان العلم الاسود مرفوعا على دار البلدية . فى هذه الا ونة صاح دانتون صيحة الاقدام الشهيرة وشحذ العزائم وعمل على توجيه حنق الشعب ضد العدو المهاجم ولكن مارات وبعض اعوانه من رجال الكومون (ممثلى البلدية) اقترحوا ان يقتل السجناء المشبوهون قبل السير الى العدو فحدثت مذابح سبتمبر (٢ — ٥ سبتمبر) وجزر فيها المئات من الابرياء جزرا في الطريق اوبعد محاكمة صورية ، ولاتزال تبعتها يلقى بعضها على دانتون الذى كان وزير الحقانية وقتئذ ولم يحل دون وقوعها او استمرارها

الفصل الأول

الحكومة الداخليـــة

صار نابليون بونابرت من ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ لغاية ٦ أبريل سنة ١٨١٤ السيد المطلق فى فرنسا ، وكان قنصلا مؤقتا (١١ نوفمبر — ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٩) فقنصلا أولا (٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ — ١٨ مايو سنة ١٨٠٤) فامبراطوارا (١٨ مايو سنة ١٨٠٤ — ٦ أبريل سنة ١٨١٤) .

تمكن بونابرت فى عصر القنصلية من إصـــدار دستور الســـنة الثامنة (ســـنة ١٧٩٩) وتنظيم حكومة البلاد الداخليـــة ، ولا يزال نظامه الادارى فى شكله الأساسى فى فرنسا الى اليوم .

ومن مفاخره القانون المدنى الذى ضمنــه أهم نتائج الثورة الاجتماعية ولعل ذلك هو الذى حمله على القول « أنه منفذ وصية الثورة» والواقع أنه كان أيضا منفذ وصية الملكية المستبدة اذ كان دأبه القضاء على كل حرية سياسية وحصر السلطات كلها فى حكومته

العسكرية والمغامرة ببلاده فى حروب بعيدة جريا وراء أطماعه الشخصية حتى عم الاستياء جميع الطبقات وتعبت منه أوروبا بعد أن دوّخ ممالكها فأسقطته .

على أن شخصية نابليون تجلت فى مواهبه العسكرية ، وكان الرجل عظيما بالارادة والعزيمة والاقدام التى ورثها عن الثورة فهو من هذه الناحية يعقوبى ، كما قال عنه المؤرخ تين ، وكان يقظا حديد البصر منقطع النظير فى تدبير خطط القتال وانفاذها فى يوم أو أيام ، وكان يدهم العدو برأيه وجيشه ولكنه بالغ فى الاعتداد برأيه ودفعته اطماعه الكثيرة وحب الحرب وفنونها الى التوغل فى الفتح من غير مهلة حتى « ذهل عن الزمن » ، كما قال بسمارك ، فأضاع ملكه الواسع فى موقعة .

١

حكومة القنصلية

كان فى فرنسا فى عهد الملكية المطلقة ادارة مركزية قوية ولكنها مرتبكة جائرة . هدمت الجمعية الوطنية هذا النظام المركزى وأقامت نظامها اللامركزى المبسط فى عصر انتقالى مضطرب فقامت الى جانبه فى باريس والأقاليم الجمعيات والأندية الثورية التى حلت بالفعل محل السلطات القانونية ، واضطر المؤتمر الوطنى أمام

الخطر الذى يهدّد سلامة الوطن، الى توطيد دكتاتورية مركزية أشدّ من حكومة العهد القديم، وجاءت حكومة الادارة فقام النزاع بين السلطات وساءت الأحوال الاقتصادية، وعمت الفوضى الادارية والعمرانية فانتشر قطاع الطرق فى البلاد، وبطل تعهد المين والطرق والجسور فأصابها البوار، ووقفت حركة التجارة والصناعة فنزل عدد نساجى الحرير فى ليون من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠، وسئم الناس السياسة والحرب وتبلدت الهمم وقل الاهتمام بالشؤون العامة، وكانت البلاد بحاجة الى الدعة والسلم والنظام فلما حدث انقلاب ١٠ نوفمبر رضيت عنه لأنها رأت فيه خروجا من موقف مضطرب غامض الى نظام حكومى ثابت تأوى اليه .

كانت خطة نابليون فى بناء حكومته الادارية والقضائية انتقاء خير ما اشتملت عليه الحكومات السابقة من نظم واشراك جميع الرجال الأكفاء من يعاقبة وملكيين فى حكومة الدولة حتى ينتفع بعلمهم وتجاربهم ويأمن جانبهم فكان ذلك من أكبر أسباب نجاح القنصلية فى عصرها الأول ولكن جريه بعد ذلك على خطة الدكتاتورية فى الداخل والحرب فى الخارج أفسد حكومة البلاد وإدارتها .

دستور سنة ١٧٩٩ — أوّل ما ظهرت أغراض بونابرت السياسية فى دستور السنة الثامنة (١٧٩٩) الذى وضعه سيايس ثم عدّله بونابرت . كان سيايس يرمى الى انشاء نظام دستورى وسط بين الملكية والديمقراطية قائم على تجزئة السلطات واضعافها بحيث تتوازن ولا تتمكن إحداها من الاستئثار بالأمر، فدفعه ذلك أوّلا الى الغاء التشريع الانتخابى القديم طبقا للمبدأ القائل بأن « الولاية تأتى من علٍ والثقة من أسفل » فبدلا من أن ينتخب الشعب نوابه، كما جرت العادة، على درجة أو درجتين صار لا يملك إلا حق الترشيح فى « قوائم انتخابية » أطلق عليها « قوائم الأعيان » .

وذلك بأن جميع الفرنسيين (من لا تقل سنهم عن أحد وعشرين عاما) كانوا ناخبين ولكن لم تكن لهم سلطة فعليه مباشرة : كان الوطنيون فى كل خط ينتخبون عشرهم فتتألف "القائمة البلدية" أو قائمة الأعيان الأولى (٥٠٠,٠٠٠ وطنى تقريبا)، يعين منها موظفو البلديات وأعضاء المجالس المحلية، ثم تنقص القائمة الأولى الى عشرها فتتألف "قائمة المقاطعة" أو القائمة الثانية (٥٠٠٠٠ تقريبا) يعين منها موظفو المقاطعات وأعضاء مجلس المديرية أو "المجلس العام" ثم تتألف من عشر قوائم المقاطعات "القائمة

الوطنية " أو القائمة الثالثة (٥٠٠٠ تقريبا) ينتخب منها نواب الأمة وكبار موظفى الدولة .

وتقرّر أن يكون فى رياسة الحكومة " ناخب أعظم " مهمته تمثيل الدولة وأبهة الملك وانتخاب قنصلين أحدهما للحرب والآخر للسلم تناط بهما السلطة الفعلية وما اليها من تعيين أعضاء مجلس الحكومة والوزراء الذين يعينون بدورهم موظفى المقاطعات وأعضاء المجالس العامة والمحلية .

وكانت السلطة التشريعية منحصرة فى أربع هيئات مختلفة : "مجلس الحكومة" (Conseil d-Etat) ومهمته اعداد القوانين ، و"مجلس الشورى" (Tribunat) ومهمته إبداء رأيه فى مشاريع القوانين والمناقشة فيها ، وكان مؤلفا من مائة عضو لمدة خمس سنوات يجدّد الخمس منهم كل عام ، و"مجلس التشريع" (Corps Législatif) مهمته قبول أو رفض المشروع المرفوع اليه بدون مناقشة بعد أن يتناقش فيه أمامه ثلاثة أعضاء ينتدبهم مجلس الشورى وثلاثة أعضاء من مجلس الحكومة ، وكان مؤلفا من ثلثمائة عضو لمدّة خمس سنوات يجدّد منهم الخمس كل عام ، و"مجلس الشيوخ" أو مجلس المحافظين (Collège des Conservateurs) ،

ومهمته السهر على القوانين والغاء أى قانون مخالف للدستور ، وانتخاب الناخب الأعظم وأعضاء مجلسى الشورى والتشريع .

ولا ريب أن هذا الدستور ينم عن قلق أولى الرأى من الفرنسيين فى ذلك الزمن على النظام الجمهورى ونتائج الثورة فأرادوا أن يكفلوا بقاء هذا النظام وأن تكون نقطة التوازن فيه بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية بحيث لا يهدده الاستبداد من أعلى والقلاقل من أسفل .

كان الدستور فى الظاهر قائما على مبدأ سيادة الأمة لأن جميع الوطنيين كانوا ناخبين ولكن لم يكن لهم فى الحقيقة حق انتخاب النواب وعمل القوانين بواسطتهم ومراقبة الميزانية وكان ، كما وصفه صاحبه ، كالهرم يقوم على قاعدة واسعة ولكن السلطة التشريعية لا تلبث أن تتضاءل تدريجا لأن الانتخاب الذى يؤدى اليها درجات تنتهى بالتعيين أو اشتراك الحكومة مع الشعب فى انتخاب النواب ، والسلطة نفسها منحصرة فى أربع هيئات بدلا من هيئة واحدة : مجلس الحكومة يقترح القوانين ويعدها ، ومجلس الشورى يملك حق المعارضة والمناقشة العلنية وإبداء رغبات ولكنه مجرد من السلطة الفعلية وحق البت ، ومجلس التشريع "أو مجلس الثلثمائة أبكم" يملك السلطة الفعلية وتحويل المشاريع

الى قوانين نافذة ولكنه مجرّد من حق مناقشتها أو تعديلها ، ومثل هـذه السلطة التشريعيـة الوهميـة كانت كفيلة بالقضاء على كل نشاط سياسى .

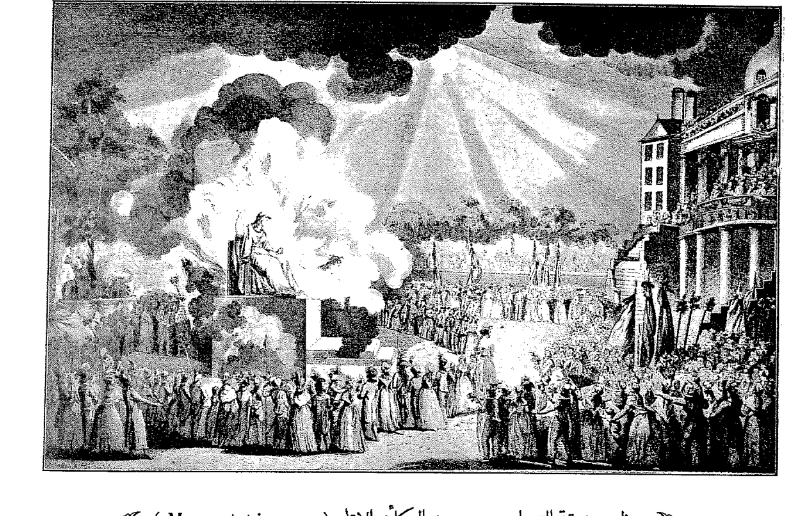
ثم ينتهى الهرم فى قمته الى السلطة التنفيذية الوهمية التى تتمثل فى الناخب الأعظم ، ومن دهاء سـيايس أنه منح مجلس الشيوخ الذى كان أعضاؤه يعينون مدّة الحياة حق إدماج الناخب الأعظم أو أى وطنى تخشى الجمهورية نفوذه فى هيئته ومنعه بهذه الطريقة من تهـديد النظم القائمة بمطامعه ، ويظهر أن سيايس كان يريد أن تكون له الرياسة على أن يكون بونابرت قنصـل الحرب ، ولكن بونابرت كان يطمع فى رياسة السلطة التنفيذية العليا على أن تكون سلطة حقيقية فمـا كان منه إلا أن دعا عنده لجنة الدستور وأملى دونو (Daunou) الذى كان عضـوا عاملا فى المؤتمر ومجلس الخمسمائة وواضع دستور السنة الثالثة (١٧٩٥) التعديلات التى أراد إدخالها :

الدسـتور المعـدّل — احتفظ بونابرت بالنظـام الانتخابى وقوائم الأعيان ونظام السـلطة التشريعية وتقرّر أن يحل محلّ الناخب الأعظم قنصـل أوّل مهيمن على الدولة الى جانبـه قنصلان صوريان يمدانه برأيهما الاستشارى حتى لا تفزع الروح الجمهورية من انحصار السلطة فى رجل ، وكان انتخابهم لمـدّة عشر

سنوات ، وألغى الشرط الخاص باجتذاب مجلس الشيوخ الى هيئته كبار رجال الدولة الذين يصبحون خطرا على الجمهورية حتى يأمن بونابرت على سلطته .

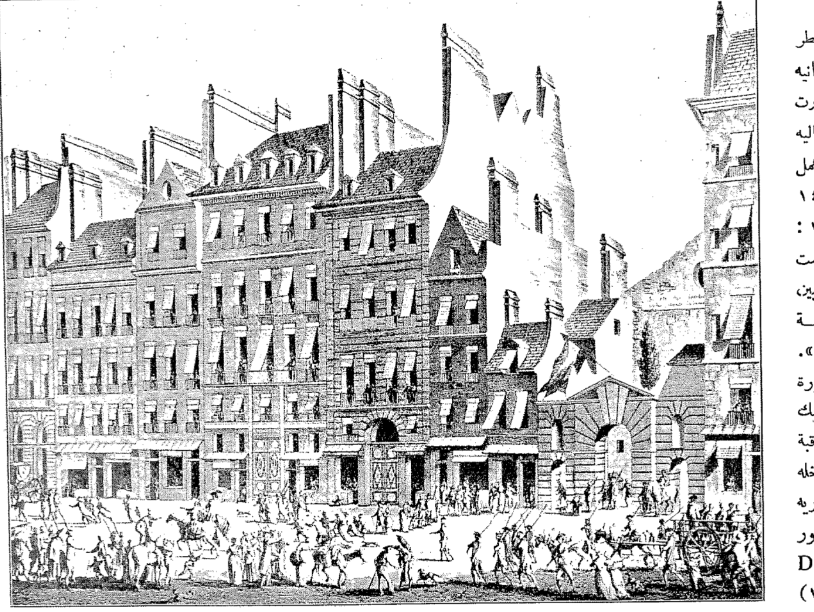
صار القنصل الأول يسيطر على شؤون السلم والحرب ويملك وحده حق اقتراح القوانين التى يعهد الى مجلس الحكومة باعدادها وتعيين الوزراء ورجال القضاء والادارة والجيش والسياسة وبذلك يخضع لنفوذه جميع موظفى الحكومة ، والمجالس المحلية ، وجميع المحاكم ما خلا محكمة النقض والابرام ومحاكم الأخطاط التى ترك أمرها للانتخاب منذ الثورة .

والواقع أن دستور سيايس اختل توازنه لأن السلطة التشريعية ظلت وهمية فى حين أن السلطة التنفيذية اجتمعت كلها فى شخص بونابرت . روى لافاييت فى مذكراته أن نابليون قال له فى ذلك ذات يوم : «لا تعجب ، فان سيايس لم يوجد فى الدستور إلا ظلالا فجعل من السلطة التشريعية ظلا ، ومن السلطة القضائية ظلا ، ومن الحكومة ظلا ، وكان لابدّ من مادة فى إحدى نواحى الدستور وقد وضعتها » . من هذه المادة نشأت الحكومة الاستبدادية المطلقة التى حلت محل الحكومة النيابية وقضت على الحرية السياسة الممثلة فى الثورة ومبادئها بل وقضت فى الوقت نفسه على حرية



منظر حديقة التويلري يوم عيد الكائن الاعلى (رسم مونيه Monnet)

لما تخلص روبسبير من « التفلسف » و « شيعة الملاحدة » باعدام الهيبرتيين حمل المؤتمر الوطني على اصدار مرسوم يقرر عبادة الكائن الأعلى واقامة اعياد تمجد فيها ضحايا الحرية والحب الزوجي والشيخوخة والمحنة . . . تشتمل الصورة على ناحية من برنامج الحفلة الواسع ، فترى تمثالا ضخما يمثل الحكمة منصوبا بالقرب من قصر التويلري يحيط به الدخان المتصاعد من حريق تماثيل رمزية تمثل الالحاد والانانية والطماعة . . وقد وضع روبسبير بنفسه النار فيها وهو مرتد الرداء الابيض الرسمي وحامل باحدى يديه الزهر والسنابل ، وقد وكل الى المصور داوود David وضع نظام العيد دقيقه وجليله



احس روبسبير بالخطر الذى يتهدد مطامعه وامانيه من ازدياد نفوذ هيبرت وانصاره فاجتذب اليه دانتون وديمولان وعمل على التخلص منهم في ١٤ مارس سنة ١٧٩٤ : بناء على تقرير سانجوست القى القبض على الهيبرتيين، وكانوا عشرينا بتهمة « التآمر مع الأجنبي ». يرى القارىء في الصورة العربة الاولى على وشك المرور امام نادى اليعاقبة الذى تخفق الراية على مدخله في شارع سانت هونوريه الصورة رسم المصور الحفار برتو D.Bertaus (١٧٤٧ — ١٨١٨).

الهيبرتيون فى طريقهم الى المقصلة

الصحافة التي أغفلها الدستور، ومبدأ المساواة أمام القانون إذ نصت المادة ٧٥ على أن الموظفين لا يجوز اتهامهم إلا بقرار من مجلس الحكومة ، وفى ذلك اعتداء خطير على سلطة القضاء وامتياز احتفظت به الحكومات المتعاقبة .

أمضى أعضاء اللجنة الدستور فى ١٣ ديسمبر فلم ينتظر بونابرت نفاذه أو نتيجة إستفتاء الشعب فيه وطلب الى سيايس أن ينتخب القناصل الثلاثة فأبى هو وديكوس الدخول فى القنصلية وعين بونابرت فى المحل الأول، وقمباسريس المشرع فى المحل الثانى ، ولبرون الأخصائى فى الشؤون المالية والادارية ورئيس مجلس الخمسمائة السابق فى المحل الثالث .

صدر الدستور فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ثم شرع القناصل الجدد فى تعيين كبار الموظفين وأعضاء مجلس الحكومة (بين ١٥ و ٢٠ ديسمبر)، وتولى سيايس وديكوس وقمباسريس وليبرون انتخاب أغلبية مجلس الشيوخ (أى ٣١ عضوا من ٦٠ يضاف اليهم عضوان كل عام مدّة عشر سنوات حتى يبلغ عددهم الثمانين) . ثم انتخبت الأغلبية الأعضاء الباقين، ولما تكامل العدد انتخب مجلس الشيوخ أعضاء مجلس الشورى والتشريع، على أن هذا الانتخاب الأوّل لم يكن من القوائم إذ تقرّر تأجيل تأليفها الى السنة التاسعة.

قامت حكومة بونابرت على قاعدة « ان التفكير من شأن الجماعة والعمل من شأن الفرد» ولذلك عنى باختيار أعوانه من كل الأحزاب في القنصلية والوزارة ومجلس الحكومة ليستعين برأيهم وخبرتهم ولكنه يحتفظ لنفسه بالبت فى الرأى والانفاذ ، وكان من أعوانه فى الوزارة تاليران فى الخارجية ، ولوسيان بونابرت فى الداخلية ، وفوشيه فى البوليس وكارنو فى الحربية ، وكان "مجلس الحكومة" وهو الهيئة التشريعية الحكومية موضوع رعاية خاصة فأشركه القنصل الأول مع الوزارة فى إدارة الشؤون العامة ومراقبتها وقسمه الى دوائر خمس : مالية وحربية وبحرية وداخلية وقضائية ، وألفه من خيرة رجال الدولة الذين يشار اليهم بالبنان ومنحهم المرتبات الجزلة والأبهات حتى يضؤل بجانبهم نواب الشعب وتتطلع اليهم العيون .

وكان عيب مجلس الحكومة فقدان أعضائه الاستقلال فى الرأى رغما من تظاهر نابليون بتركه لهم نصيبا من الحرية ليرفع مكانتهم فى أعين الشعب ، وكان مجلس الشورى ، وهو الهيئة التمثيلية الوحيدة التى تتناقش فى القوانين ، يضم نفرا من الأحرار فى مقدمتهم بنچامان كونستان ، ولكن لما كان موقفه الطبيعى المعارضة فى مشاريع مجلس الحكومة كانت معارضته رغما من انحصارها فى حدود الاعتدال لا تروق القنصل الأول .

الادارة الاقليمية — تمثل الإدارة المركزية في القناصل ، والوزارة ، ومجلس الحكومة ، والإدارة الأقليمية في المديرين ، ووكلاء المديريات ، والعمد الذين يعينهم بونابرت كما يعين أعضاء "المجلس العام" الذى ينوب عن المقاطعة بجانب المدير ، وأعضاء "مجلس المركز" بجانب وكيل المديرية في المركز ، وأعضاء "المجلس البلدى" بجانب العمدة في الدوائر البلدية أو الكومون ، وكانت مهمة هذه المجالس توزيع الضرائب والنفقات وإبداء رأيها في الشؤون الادارية المحلية ، وكان المدير على رأس المقاطعة المنفذ الأعلى لارادة الوزير أو الحكومة المركزية .

كانت الجمعية الوطنية قضت على النظام الادارى المركزى الذى خلفته الملكية وعهدت بالادارة في المديريات والمراكز — وقد أبقى نابليون التقسيم الادارى — الى مجالس منتخبة فجعلتها القنصلية من اختصاص موظف مفرد على درجات يمثل السلطة التنفيذية في الأقاليم ويمدّه بالرأى مجلس محلى على درجات .

النظام القضائى — عنى بونابرت بتوطيد النظام القضائى الذى رسمت قواعده في المادة الخامسة من دستور السنة الثامنة فألغى مبدأ انتخاب القضاة إلا فيما يتعلق بقضاة محاكم

الأخطاط ، وكان مجلس الشيوخ يعين قضاة محكمة النقض والقنصل باقى القضاة .

وتقرر منح القضاة حق عدم القابلية للعزل أو النقل إلا بموافقتهم (Inamovibilité) ، بعد تجربة خمسة أعوام ، حتى يكفل استقلال القضاة أمام الحكومة ، على أن هذا المبدأ لم يبدأ بتطبيقه إلا فى سنة ١٨٠٧

احتفظ بونابرت بمحاكم الأخطاط فى الأقاليم ، وأنشأ محاكم ابتدائية فى المراكز ، ومحاكم استئناف فى تسع وعشرين مقاطعة من أكبر المقاطعات الآهلة التى كانت مقر البرلمانات القديمة ، واستبقى محكمة النقض والابرام وكان عدد قضاتها ثمانية وأربعين .

وبقى نظام القضاء الجنائى الذى وضعته الجمعية الوطنية على ثلاث درجات : محاكم مركزية ملحقة بمحاكم الأخطاط ، ومحاكم جنح ومخالفات ملحقة بالمحاكم الابتدائية ، ومحاكم جنايات موزعة فى المقاطعات .

وفى منتصف سنة ١٨٠٠ تم تعيين القضاة والموظفين الجدد واستوت على قواعدها الإدارة القنصلية .

ومن مفاخر بونابرت انه عنى بنظم شتات القوانين بعد تهذيبها فى مجموعة واحدة تمثل فيها وحدة التشريع التى كانت من أغراض

الثورة ، وبذلك كفل رقى النظام القضائى فى فرنسا ، وقد تباهى بها فى منفاه لأنها أبقى على الزمن من وقائعه .

ألف بونابرت لهـذه الغاية رهطا من علماء القانون كانوا يتباحثون فى حضرته فى القوانين المدنيـة المختلفة قديمها وحديثهـا فمحصوها تمحيصا ثم عرضت على المحاكم والمجالس لابداء الرأى فيها ، ثم جمعت كتلة واحدة وصدر بها قانون ٢١ مارس سنة ١٨٠٤

تضمنت "مجموعة القوانين المدنية" (Code Civil) أهم نتائج الثـورة لأن القنصل الأوّل كان يريد أن تكون هـذه القوانين متفقة مع مبادئها بمقـدار انطباقها على الحياة الاجتماعيـة « وملاءمتها للحقائق الراهنة لا للخيالات والأوهام فان الفلسفة شىء والحكومة شىء آخر» ، وقد أخذت هذه القوانين مادتها من القانون الرومانى ، وقانون العادات الموروثة ، والأوامر الملكية ، والقوانين الثورية ، وأطلق عليها فيما بعـد «قوانين نابليون» فنقلتها حرفيا مصر ومعظم الممالك فى أوروبا وأمريكا أو وضعت على مثالها قوانينها .

النظـام المـالى ــ كان أوّل أمر اتجه اليه بونابرت عقب انقلاب نوفمبر سـنة ١٧٩٩ الحالة المـالية العامة التى أخنت على حكومة العهد القديم ، وكانت مبعث القلق والارتباكات فى عهد الحكومات الثورية وحكومة الادارة بسبب نفقات الحرب ،

وتدهور القراطيس المالية والحالة الاقتصادية وسط التقلبات السياسية، وسوء نظام جباية الضرائب .

كان من أعمال بونابرت الأولى بعد تقلده السلطة "ادارة الضرائب المباشرة" التى أنشئت فى ٢١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وتعين بمقتضاها جباة فى الأخطاط، وخازن خاص وصراف فى كل مركز ينظم ايراد الجباة الشهرى ، وخازن عام فى كل مقاطعة ينظم بدوره ايرادات الخزنة المختلفين ، والى جانب الجباة فى كل مقاطعة «مدير ضرائب مباشرة» ، ومراقبون فى المراكز وظيفتهم إعداد «القوائم» الخاصة بالأشخاص والأملاك والضرائب المفروضة عليها[١] ، وقد عجلت الحكومة القنصلية منذ البداية بتنقيح القوائم القديمة التى ظل معظمها عشرة أعوام من غير تغيير ولا تبديل رغما من الانقلاب الكبير الذى حدث فى الملكية .

ونشأ من تنظيم جباية الضرائب على هذه القاعدة ضبط الحسابات، وهذه كانت أمنية نيكر وبعض وزراء الاصلاح فى عصر الملكية ، وزيادة الايرادات ١٨٥ مليون فرنك عن ايراد العهد القديم فى سنة ١٧٨٨ رغما من ضرائبه المتنوعة المرهقة ، فبلغت

(١) ألغت القنصلية بعض الضرائب مثل ضريبة النوافذ والأبواب التى فرضتها حكومة الادارة .

٦٦٠ مليونا، وفى الوقت نفسه ساعد وجود حكومة ثابتة وادارة منتظمة على تحسن الحالة الاقتصادية وانتشار « الثقة العامة » وارتفاع قيمة الأوراق المالية .

وكان رجال التجارة والمال منذ أوائل القرن الثامن عشر يفكرون فى إنشاء مصرف يسهل حركة المبادلات ويعين الحكومة باقراضها فعوّل بونابرت على تحقيق هذه الفكرة وصدرت فى ١٣ فبراير سنة ١٨٠٠ لوائح "بنك فرنسا" الذى لا يزال مصرفا حكوميا الى اليوم تشترك الحكومة فى اختيار أعضاء مجلس ادارته وتشرف عليه، ويملك وحده امتياز إصدار الأوراق المالية ، وفيه تودع أموال الدولة بفوائد معينة ، وفوق ذلك فانه يتعامل مع الأفراد شأنه فى ذلك شأن البنوك الأخرى .

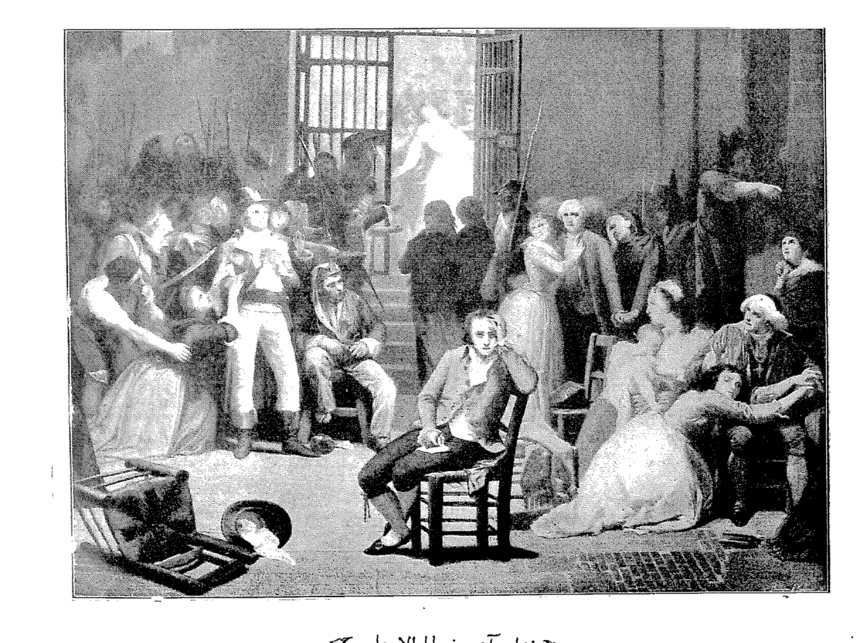
الاتفاقية الدينية (Concordat) — ومن أعمال بونابرت التى تدل على مهارته اجتذابه الاكليروس اليه بعد أن كانوا من أشدّ أنصار الملكية ، وتقرّبه بهذه الطريقة الى الشعب الذى عاودته النزعة الدينية بعد عصر الارهاب فتفتحت الكنائس من جديد فى الريف والقرى .

كانت الكنيسة منذ سنة ١٧٩٤ منفصلة تمام الانفصال عن الحكومة، وكانت الحكومة وقفت عن دفع مرتبات للقساوسة ورؤساء الاكليروس لتكون العبادات حرّة لا صلة للحكومة بها .

ولكن بونابرت أخذ منذ سنة ١٨٠٠ يفاوض البابا بيوس السابع فى عقد اتفاقية تحدّد العلاقات بين الحكومة والكنيسة فتم ذلك فى سنة ١٨٠١ ونشرت الاتفاقية فى السنة التالية بعد موافقة مجلس الحكومة ومجلس الشورى ومجلس التشريع ، وأهم شروطها إعلان الدين الكاثوليكى «دين الغالبية من الفرنسيين» فأصبح لهذا الدين وجود ومميزات رسمية ، وتوطد نفوذ البابا الذى صار له الحق — كما حدث فى اتفاقية سنة ١٥١٦ بين البابا ليون العاشر وفرانسوا الأوّل — فى تقليد رؤساء الكهنوت وظيفتهم الدينية (Institution Canonique) على أن تشترك الحكومة فى تعيينهم باعتبارهم موظفين خاضعين لها اداريا .

وقد اعترف البابا مقابل ذلك ببيع أملاك الكنيسة فاطمأنّ اليها ملاكها العديدون ، وخرجت البلاد بهذه الاتفاقية من حالة دينية مشوّشة ، واكتسب بونابرت تأييد الاكليروس لسياسته حتى تتم له الهيمنة على العالم الدينى والسياسى .

وسام الشرف — لم يرض فى الواقع الكثيرون من رجال الثورة عن هذه المحالفة بين بونابرت ورجال الدين الذين يمثلون الحركة الرجعية من الناحية الاجتماعية ، إن لم يكن من الناحية السياسية ، ولكن القنصل الأوّل كان يجرى منذ البداية على خطة مرسومة



نداء آخر ضحايا الارهاب

في هذه الصورة تتجلى عبقرية المصور شارل مولر Muller (١٨١٥ــ١٨٩٢) وكان عرضها لاول مرة في صالون سنة ١٨٥٠ في باريس

تجرّ الأنصار والمؤيدين فابتدع، فوق ماتقدّم، فى مايو سنة ١٨٠٢ "وسام فرقة الشرف" لرجال الجيش خاصة استنهاضا لهممهم والممتازين من خدّام الدولة، فعارضت فيه أقلية قوية فى المجالس الثلاثة لأنه لايتفق مع مبدأ المساواة، وكان بونابرت يبرر مسلكه فى مجلس الحكومة بقوله وقد أحرجه أحد الأعضاء: «لتكن هذه الأوسمة كما يقولون لعبا يغتر بها، أليس باللعب تقاد الرجال؟ انى لا أعتقد أن الفرنسيين يميلون الى الحرية والمساواة لأن عشرة أعوام ثورة لم تغيرهم، ولا بدّ لهم من ألقاب فخرية وامتيازات».

التعليم — لم يغب عن بونابرت أن التعليم أداة قوية تعينه فى تحقيق أغراضه فشملته عنايته ونظم التعليم الثانوى فى عهد القنصلية (١٨٠٢) والجامعة فى عهد الامبراطورية.

ولكن القنصل الأوّل أهمل التعليم الأوّلى الذى كانت الثورة جعلته إجباريا باعتباره من مشخصات الديموقراطية الصحيحة. والواقع أن بونابرت تعمد القضاء على التعليم الأوّلى بتركه على عاتق البلديات والاسر تتعهده وتنفق عليه وكان خليقا بتعضيد الحكومة ورعايتها، وآنتبه الى التعليم الثانوى والخاص فنفى عنه كل مالا يتلاءم مع أغراض الحكومة التى كانت منحصرة فى تكوين موظفين يمتثلون لها فلم يكن نظام التعليم، كما قال ريدرير أحد أعوان

القنصل فى مجلس الحكومة، نظاما أدبيا فحسب، بل نظاما سياسيا تجتذب به الحكومة اليها الجيل الحاضر وجيل المستقبل : الآباء بواسطة أبنائهم والأبناء بواسطة آبائهم، وعلى ذلك قررت الحكومة قبول ستة آلاف وأربعمائة طالب مجانا تتولى الانفاق عليهم وتكفل مستقبلهم فتزاحم الآباء على هذه المجانية التى كانت مغنما .

وكانت الصبغة الغالبة فى التعليم عسكرية ، ينشأ الطلبة منذ الصغر على دق الطبول واتباع النظام العسكرى فى زيهم الرتيب وحركاتهم المدرسية ، وكان بالمدرسة أساتذة يلقنونهم التمرينات العسكرية، لا تدرس لهم إلا العلوم أو الآداب التى تعترف الحكومة بها ولا ترى فيها خطرا على مبادئها ، وأساس هذه الآداب اللغات القديمة اللاتينية واليونانية . وكانت البرامج خلوا من التاريخ والفلسفة « لأن التاريخ لا يحتاج الى دراسة خاصة ويكفى قراءته لتعلمه» ، وكان لا يجوز التوسع فى العلوم لأن حالة المجتمع الفرنسى لا تسمح بذلك، وأهمل تعليم البنات لأن الحكومة لا يمكنها أن تجعل منهنّ جنودا أو موظفين .

نشأ من هذا النظام الآلى جمود فى التعليم وأساليبه وانحطاطه بتأثير "الثقافة الرسمية" وخضوعه للسياسة والأهواء وقتل التعليم الحرّ .

السياسة الداخلية والمعارضة — رأينا كيف بنى بونابرت حكومته القنصلية وإدارته وأشرك فى السلطات العامّة رجال الأحزاب المختلفة الذين أخضعتهم الأطماع والمآرب ورد الى القساوسة المنفيين أو المسجونين حريتهم وأحسن معاملة الأشراف والمهاجرين، وكان الكثيرون منهم مقصين من البلاد ووظائف الدولة، ولكن بونابرت بالغ فى الاعتداد بالمصالح الذاتية التى تنقاد لها الرجال فاستبدّ بهم وقضى على الحريات العامّة حتى يأمن المعارضة ويحقق أطماعه القيصرية .

كان بونابرت فى الخارج يعتدى على الأمم الضعيفة فى سويسرا، وهولندة ، وايطاليا ، والبرتغال ويسلبها حريتها بينما كان فى الداخل يعمل على تدعيم دكتاتوريته والتمهيد للقنصلية الدائمة والامبراطورية ففى ١٧ يناير سنة ١٨٠٠ صدر امر قنصلى بإلغاء جميع الصحف السياسية ما عدا ثلاث عشرة صحيفة تؤيد الحكومة الجديدة وآرتفع شأن وزارة البوليس، وكان فوشيه ينشر الجواسيس أمثال باريد الذى كان عضوا فى لجنة إنقاذ الوطن وغيره لتسقط الأخبار فى الأندية، ومراقبة الوطنيين والأحرار، فلم تجد المعارضة منفذا لها إلا فى طريقين : طريق المعارضة القانونية المحدود فى مجلس الشورى، وطريق المؤامرات .

لم يحتمل القنصل المعارضة من الناحيتين فبدأ فى الأولى بالتخلص من الأقلية المعارضة فى المجلس ثم تخلص من المجلس نفسه، وٱستفاد من الثانية فى التخلص من الحزب المعارض من اليعاقبة والملكيين وبلوغ القنصلية الدائمة والأمبراطورية .

مجلس الشورى — كان مجلس الشورى متصلا بالجمهور بفضل مناقشته العلنية ولكنه كان لا يستمد سلطته من الشعب بل من الحكومة ولا يملك اقتراح القوانين أو البت فيها ، وكانت معارضته فى حدود الاعتدال والدقة، فلم يحدث فيه تطرف من أحد أعضائه إلا فى الجلسة الثالثة (ديسمبر سنة ١٧٩٩) حيث قام دوفيرييه وٱحتج فى جد يغلب عليه التهكم على اختيار مقر المجلس فى حى «باليه رويال» بين بيوت الدعارة والقمار قائلا : «انى أرفع آية الخضوع والاحترام الى أولئك الذين أرادوا أن يجلس نوّاب الشعب وسط الشعب ... فأصبح فى مقدورهم أن يلمحوا من هذا المنبر ذلكم المكان الذى خطب فيه كاميل ديمولان وكان مبعث الحركة الكبرى» ثم أشار الى بونابرت والملكية : «والآن يتحدّثون عن صنم خمسة عشر يوما ولكننا نذكرهم أن فى هذا المكان دك صنم خمسة عشر قرنا» . ولكن الخطيب اضطر الى الاعتذار عن مقاله الذى أغضب القنصل الأوّل .

عرض على المجلس فى بدايته قانون يقضى بتحديد الزمن الذى تعرض فيه القوانين على مجلس الشورى بحجة أن هناك قوانين عاجلة فخشيت المعارضة وعلى رأسها بنچامان كونستان أن تأخذ الحكومة المجلس على غرة فلا تترك له المهلة الكافية لبحث القوانين الخطيرة الخاصة بحياة الوطنيين وحريتهم وشرفهم وما يملكون خصوصا وان القوانين العاجلة كانت أصل جرائم الثورة وكوارثها جميعا ، وكان بنچامان يقول : «يجب المحافظة على استقلال مجلس الشورى لأنه نقطة توازن السلطات العامة فى الجمهورية ، فاذا فقد هذا الاستقلال اختل التوازن وذهب الدستور ولم يبق إلا العبودية والسكون » .

كان بونابرت لا يحتمل أقل معارضة فهاجت ثائرته رغما من موافقة الأغلبية على قانونه ، وكان بنچامان صديق مدام ستايل الكاتبة الحرّة التى كان يختلف الى ندبها صفوة الرجال فلم تلبث أن دعاها فوشيه وزير البوليس وبلغها أن القنصل الاوّل يعتقد أنها محرّضة بنچامان كونستان ونصحها «بالذهاب الى الريف» أو بعبارة أخرى نفاها ، وكان ذلك فاتحة الاضطهادات والمظالم التى وقعت على فضليات النساء اللواتى اشتهرن بالجمال والأدب والفطنة أمثال مدام ستايل ، ومدام ريكامييه ، ومدام شفريز ، وغيرهن فلم ينج من

استبداد بونابرت حتى النساء لأنه كان يخشى نفوذهنّ فى المجالس والأندية ولا يحتمل روح المعارضة فى أحاديثهنّ الخاصة فنفاهنّ تباعا من باريس فى مكان قصى وأعاد سيرة العهد القديم .

ابتدأت الدورة النيابية الثانية فى ١٠ ديسمبر سنة ١٨٠٠ فكانت الدورة الأخيرة التى ترك فيها بونابرت بعض الحرية للهيئات التشريعية . كان من بين القوانين التى عرضت عليها قانون يتعلق بانشاء " محاكم خاصة " يرمى ظاهره الى تعقب قطاع الطرق الذين يعبثون بالأمن فى الأقاليم ولكنه كان فى الواقع يشمل جميع الوطنيين لخلوه من الدقة فى تحديد الادانة ونوعها . كان هذا القانون يسمح للحكومة بالعدول عن القضاء العادى فى أى وقت الى محاكم مؤلفة من ثلاثة قضاة من محاكم الجنايات، وثلاثة من رجال الجيش ، واثنين مساعدين يعينهما القنصل الأول للنظر فى جميع الجرائم والجنح الخاصة بالحريق، والعملة الزائفة، والاعتداء بالقوة، والاجتماعات المشاغبة ... وكان للحكومة الحق فى أن تعين محل إقامة اجبارى لكل من ترى فى وجوده خطرا .

كان القنصل فى ذلك الوقت يتعقب أعداءه السياسيين وكانت هناك لجان عسكرية فى إثر الفرق المتنقلة تصدر الأحكام على الفور وفيها الكفاية لقمع كل حركة ولكن بونابرت أخرج هذا القانون

الذى يبعث عهد الارهاب الأكبر ويهدّد كيان كل وطنى ، فقام كونستان والتف حوله الكثيرون وندّدوا بالقوانين الاستثنائية التى كانت الجمعيات السابقة تضعها فى الظاهر للمحافظة على الدساتير وكانت الدساتير تجد فيها حتفها .

ورغما من ذلك وافق مجلس الشورى بأغلبية ثمانية أصوات على القانون الجديد ، ومهما كان من الأمر فان حملة المعارضة دفعت أنصاره القانون ومروّجيه الى تبرئته من الأغراض التى أشارت اليها المعارضة وساعدت على تخفيف وطأته .

ولما عرضت فى الدورة الثالثة مشاريع القوانين المدنية ظهرت معارضة قوية فى مجلس الشورى ومجلس التشريع حرصا من النوات على أن لا يتركوا للخلف عملا ناقصا ، وكانت القوانين فى بعض أجزائها خلوا من الدقة أو تشتمل على عقوبات ظالمة موروثة عن حكومة العهد القديم مثال ذلك "الموت المدنى" أو مصادرة أملاك المجرم ، وإلغاء الزواج رغما من الزوجين وإلباس الأبناء لباس الذل والعار ، وقد أثبتت التجارب ماقاله أحدالمعارضين ضدّ مصادرة الأملاك ووقوع الحيف من جراها على الأسر والأبناء التعساء الذين لا ذنب لهم .

رفض مجلس الشورى ثلاثة مشاريع ومجلس التشريع مشروعا واحدا ولكن الحكومة قررت ، قبل أن يعرض عليه المشروع الثانى ، سحب جميع المشاريع القانونية «حتى تهدأ الأفكار وتسير فى اتجاه واحد» (٢ يناير سنة ١٨٠٢) .

عوّل بونابرت فى الحال على التخلص من المعارضة الجزئية فى مجلس الشورى بحجة أن « أعضاء المعارضة لا يجرون وراء الوظائف والمال فحسب بل أن فريقا منهم يريد العودة الى حكومة الأندية وآخر الى حكومة العهد القديم » ، وهكذا كان بونابرت لا يرى فى الأعمال البشرية إلا الأغراض الذاتية والمصالح التى يستعين بها فى تسيير جيوشه وبناء حكومته ، ومع ذلك فان خطته لم تنجح مع المعارضة فأراد طردها ولكن قمباسريس بدهائه هيأ له فرصة يتفادى فيها سياسة العنف و يستبدل بها سياسة اللين والافساد : وذلك أن الدستور نص على أنه ابتداء من السنة العاشرة (١٨٠٢) يجدّد خمس أعضاء مجلس الشورى ومجلس التشريع كل عام ، ولكن لم تحدّد طريقة تعيين الأعضاء الخارجين لأنها بديهية يستدل عليها من السوابق ، فما كان من قمباسريس إلا أن ابتدع وسيلة يتمكن بها من طرد المعارضة بلطف وهى أن يعهد الى مجلس الشيوخ بتعيين الخمس الخارج بدلا من الالتجاء الى الاقتراع

كما جرت العادة فوافق مجلس الشيوخ وأجرى فى الحال « عملية التطهير » فى مجلسى الشورى والتشريع ، ووقع فى "الفخ القانونى" الذى نصبه قمباسريس رجال المعارضة أمثال بنجامان كونستان ، واسنار الغيروندى القديم ، ودونو الذين عرفوا بالاعتدال واستقلال الرأى وكراهية الاستبداد ، وبذلك قضى على البقية الباقية من الحكومة النيابية (يناير سنة ١٨٠٢) .

بونابرت والملكيون — كان بونابرت منذ ١٩ فبراير سنة ١٨٠٠ يقيم فى قصر التويلرى فبدأت تظهر فيه الحاشية والأعوان ، وجعل القنصل الأول يجرى على سياسته الشخصية فقضى على حرية الصحافة ، وطرد المعارضة من مجلس الشورى ومجلس التشريع (يناير سنة ١٨٠٢) ، وحمل مجلس الشيوخ فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٠٢ على إصدار مرسوم بفتح أبواب فرنسا للمهاجرين ، وأوجب عليهم حلف يمين الولاء للنظم الجديدة ورد اليهم الأملاك التى لم تبع بعد .

أحدثت هذه الاجراءات سخطا عاما بين الأحرار فصارت موضوع سمرهم فى الأندية التى كان يهيمن عليها ذوات الفضل والنهى ، ثم ثارت ثائرة القواد والتفت طائفة منهم حول برنادوت

ووزعت على الجيش منشورات تقول : «استولى طاغية على السلطة فيجب أن يتآزر القوّاد فى خلاص البلاد» .

ولكن بونابرت استغل اطمئنان البلاد الى صلح أميان (مارس سنة ١٨٠٢) الذى أنهى الحرب بين انجلترا وفرنسا ووجد فى تطرّف خصومه وسيلة يؤكد بها سلطته فحصل فى ٨ مايو سنة ١٨٠٢ من الجمعيات على قرار يمنحه "القنصلية الدائمة" .

وفى ٤ أغسطس صدر مرسوم من مجلس الشيوخ — الذى اتسعت سلطته التشريعية بفضل حق إصدار المراسيم — يشتمل على تعديلات فى الدستور أهمها منح القنصل الأول الحق فى اختيار خلفه وزميليه والموافقة على معاهدات الصلح والمخالفات (وكانت من حق المجالس) ، وتعيين عدد معين من الشيوخ ، وتخويل مجلس الشيوخ حق حل مجلس الشورى ومجلس التشريع بناء على اقتراح الحكومة .

فقد الملكيون آمالهم التى عقدوها على بونابرت فى إرجاع الملكية وازداد حنقهم عليه حين رأوه يغتصب لنفسه السلطة الملكية فاتفق نفر من المهاجرين الملتفين حول الكونت دارتوا فى انجلترا على تدبير مؤامرة لقتل القنصل الأوّل فى إحدى روحاته وغدواته بين باريس وضواحيها ، وكان زعيم العصابة الموكلة بقتله جورجى كادودال الذى

اشتهر فى الحروب المدنيـة بجرأته و إقدامه ، وتقرّر أن ينتهز القائد بيشجرو فرصـة موت بونابرت لتوطيـد الملكية من جديد فى أسرة البوربون ، وقـد وعد القائد مورو بمساعدة بيشجرو على قلب حكومة بونابرت وأبى فى الوقت نفسـه الاشتراك فى إرجاع الملكية .

وانكشفت المؤامرة فى يناير سنة ١٨٠٤ وألقى القبض على مورو وكادودال و بيشجرو فانتحـر بيشجرو فى السجن وأعلن مورو أنه جمهورى ما تآمر قط إلا ضدّ الدكتاتورية فبرأه القضاء ولكـن بونابرت طلب إعادة النظر فى أمره فحكم عليـه بالسجن سنتين حوّلها القنصل الأوّل الى نفى مؤبد ، وحكم على كادودال وتسعة عشر من أعوانه بالاعدام .

على أن الذى أثار حنق العقلاء بوجه خاص انتقام بونابرت من الأسرة المـالكة فى شخص أحد الأمراء الدوق "دنجان" وكان بمدينـة من أعمال بادن بألمـانيا (بالقرب من ستراسبورج) فأخرجه منها بالقوّة بتهمة الاشتراك فى المؤامرة مع أنه كان فى شغل شاغل عنها بمغازلة ابنة عمه واجتمع مجلس عسكرى قرّر إعدامه فى الحال (٢٠ مارس) فأزعج الملكيون وعاودت الاحرار ذكرى أيام الظلم والارهاب .

توطيد الامبراطورية — لم يبق أمام نابليون بعد القنصلية الدائمة وخنق المعارضة إلا الملكية الوراثية وسرعان ما اقترح فوشيه على مجلس الشيوخ أن يرجو «الرجل العظيم العمل على اتمام البناء وتخليده» وقام أحد أعضاء مجلس الشورى وطالب بصراحة «إعلان نابليون بونابرت امبراطور الفرنسيين» وجعل الامبراطورية وراثية فى أسرته فلم يجرؤ أحد على المعارضة إلا كارنو الذى دخل مجلس الشورى عند تجديده الجزئى سنة ١٨٠٢

وعلى ذلك أصدر مجلس الشيوخ فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ مرسوما «يكل حكومة الجمهورية الى الامبراطور نابليون» وجرى استفتاء عام فوافق الشعب على ذلك التغيير الجديد فى دستور السنة الثامنة (٣,٥٧٩,٣٢٩صوت ضدّ ٢,٥٧٩)، والواقع أن الجمهورية بدأت تتلاشى فى عصر "استبداد الحرية" الذى أنشأه روبسبيير، وعصر الفوضى والفساد الذى أوجدته الادارة، وعصر "استبداد النظام" الذى وطدته القنصلية وكان اتمام بنائه فى الامبراطورية .

٢
حكومة الأمبراطورية

حكم بونابرت فرنسا أربعة أعوام قبل أن يكون امبراطورا وقف فى خلالها على كل صغيرة وكبيرة من الشؤون العامة

وكان فى ادارته كما كان فى حروبه مثال العمل والنشاط فلا عجب اذا لقبوه « أستاذ العزيمة » .

فى خلال هذه المدّة نظم القنصل الأوّل الادارة فى جميع فروعها وأنشأ الترع والجسور والطرق ، وأقام القضاء والقانون على قواعد ثابتة ، وأنهض التجارة والصناعة ، وأصلح المالية وأنشأ بنك فرنسا ، وحسب أعماله أنها باقية الى اليوم فى أوفى أشكالها رغما من الثورات والنظم المختلفة التى مرت بها الحكومة الفرنسية ، ولولا اضطهاده الحرّية والأحرار فى الداخل وجريه على سياسة الحروب فى الخارج لسلم حكمه من المساوئ التى ظهرت فى سياسة لويس الرابع عشر الشخصية وكانت بدء الهوّة التى حفرتها الملكية تحت قدميها .

الدستور الامبراطورى — اشتمل مرسوم مجلس الشيوخ الصادر فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ على التعديلات الأساسية التى أدخلت فى دستور السنة الثامنة للملاءمة بينه وبين النظام الامبراطورى الجديد ، فسمى الدستور بعد تعديله "دستور السنة العاشرة" .

ومن هذه التعديلات مايختص بنظام الأسرة الامبراطورية ونظام البلاط ومراتبه وأبهته ، ومنها ما يتعلق بالنظام التشريعى .

صار للامبراطور الحق فى اختيار رئيس مجلس الشورى ورئيس مجلس الشيوخ حيث اكتسب حق العضوية أمراء البيت المالك وكبار رجال البلاط، وأكثر من ذلك صار للامبراطور الحق فى أن يعين فى مجلس الشيوخ «جميع الوطنيين الذين يرى من اللائق إسناد هذه المرتبة اليهم» دون أى تحديد فى العدد، ولئن كان نابليون لم يغال فى استعمال هذا الحق إلا أنه ولا ريب اتخذ منه وسيلة يحرّك بها الأطماع الكامنة فى نفوس الرجال فينقادون له، ولم يقف الأمر عند ذلك بل قضى الامبراطور على أهم امتياز لمجلس الشيوخ وهو الفصل فى دستورية القوانين فصارت قرارات المجلس فى هذا الشأن غير نافذة ما لم يوافق عليها الامبراطور، وبذلك كان لنابليون حق اقتراح القوانين، وحق إصدارها، وحق الحكم على قيمتها الدستورية : وقد استخدم نابليون مجلس الشيوخ فى التخلص من المعارضة فى مجلس الشورى واصدار مراسيم أعانت القنصل الأوّل فى تعديل الدستور وتوطيد الامبراطورية الوراثية فى ذرّيته، ثم انتزع منه بعد ذلك كل سلطة واستأثر بالسلطتين التشريعية والتنفيذية وظهرت الدكتاتورية فى أكمل صورة .

النظام الاستبدادى — الواقع أن نابليون بعث الملكية الاستبدادية فى شكل امبراطورية وذهل عن فعل الزمن

فى الخارج والداخل لأنه بينما كان يحلم أن يهيمن على أوروبا فتدين له ملوكها بالطاعة وتصير باريس عاصمة العواصم تباهيها بآثارها وحضارتها ويعود من جديد عصر شارلمان الذى سيطر على العالم الغربى ، كان فى الداخل ينظم الاستبداد ويتجاهل أكبر ثورة فى تاريخ البشر ويتفنن فى مصادرة الحرية فى النظم الدستورية، والصحف، والاجتماعات، والكتب، والمطابع، والمكاتب، ومعاهد التعليم، وقامت سلطته مقام القانون ومع ذلك كان يتظاهر بكراهية الاستبداد ويقول لفوشيه فى سنة ١٨١٠ : «لا أريد أن يكون الفرنسيون عبيدا» .

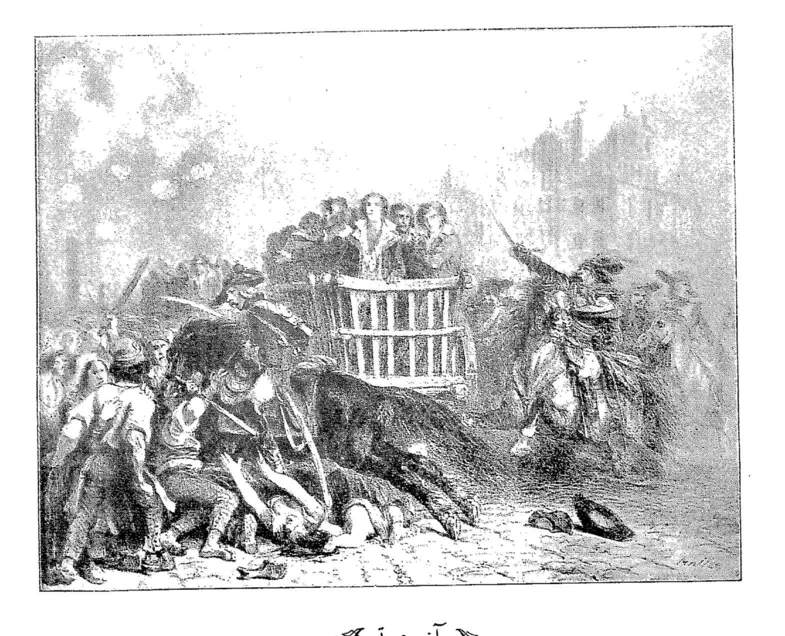
الحرية الفردية — اتسع نطاق وزارة البوليس فى عهد الامبراطورية وانبث البوليس السرى فى جميع المصالح العامة، وكان رجاله أفظاظا غلاظ القلب يترسمون آثار الأحرار وحركاتهم فى أنحاء فرنسا وفى الخارج، ويلقون القبض إداريا على كل من يتوسمون فيه العداء للامبراطورية من غير محاكمة أو إجراءات قضائية . كان عدد المساجين السياسيين فى سنة ١٨٠٧ لا يقل عن ستمائة .

وأنشئت فى سنة ١٨١٠ إدارة عامة فى وزارة الداخلية للاشراف على المكاتب والمطابع وبسط الرقابة على كل ما يظهر

فى عالم الكتابة والنشر، وكانت لاتمنح الرخص إلا لعدد معين من أصحاب المطابع لأن «المطبعة، فى رأى نابليون، مخزن أسلحة لا يصح أن يؤتمن عليه كل الناس إلا أولئك الذين تضع الحكومة فيهم ثقتها»، وقد منعت الرقابة نشر ترجمة «مزامير داوود» لأن فيها تنبؤا بالنزاع الذى بدأ يحدث بين البابا ونابليون .

وكانت الرقابة أذنت بطبع كتاب مدام ستايل عن ألمانيا بعد ما حذفت منه جملا كثيرة مثل قولها : « ان باريس هى البلد الوحيد فى العالم الذى يسهل على الانسان فيه أن يستغنى عن النعيم» خشية أن يكون فيه تلميح الى أن الفرنسيين كانوا فى شقاء .

طبع من الكتاب عشرة آلاف نسخة، وكان يحق لوزير البوليس أن يصادر أى كتاب حتى بعد تصريح الرقابة ولكن بشرط أن يعرض الأمر على مجلس الحكومة، فما عتم أن صادر الكتاب قبل ظهوره دون أن يرفع الأمر الى مجلس الحكومة، وأرغم فى الحال مدام ستايل على الرحيل من فرنسا فى مدة أربع وعشرين ساعة، ولا ريب أن هذا الكتاب لم يكن للسياسة فيه نصيب لأنه كان لا يشتمل إلا على تاريخ الادب والفلسفة فى ألمانيا ولكن الامبراطور كان ضرب سدا من الوجهتين التجارية والعلمية بين فرنسا وجاراتها فكانت آثار الحركة الفكرية عند الأمم لا يقف عليها الشعب الفرنسى حتى



آخر عربة

رسم المصور رافيه Raffet هذه الصورة التي تمثل آخر عربة تحمل الابرياء
الى السجون في عصر الارهاب وسط مقاومة الشعب وسخطه

لا يتنفس إلا فى "الثقافة الرسمية" ولا يجد فى الآداب الأجنبية مخرجا له من ذلك السجن الأدبى والسياسى، خصوصا وان ألمانيا بعد القرن الثامن عشر أحست بقوميتها بفضل زعماء نهضتها الأدبية، واعدام احرارها «كانت تجد، كما يقول مسيو لانفراى، رغما من استبداد نابليون بها أو تقسيمه ممالكها، وطنا ثانيا فى آدابها التى تتعهد الشعور الوطنى وكراهية الأجنبى» .

حرية الصحافة — كان عدد الصحف فى بداية القنصلية ثلاثة وسبعين فى باريس فألغى منها ستين صحيفة ثم ألغى فيما بعد تسعا منها فلم يبق فى سنة ١٨١١ إلا أربع صحف أهمها "جريدة الديبا" لسان حال الامبراطورية وكان لها ٣٢,٠٠٠ مشترك يشرف وزير الداخلية على تحريرها السياسى، وكان الأمبراطور يعين رؤساء التحرير فى الصحف الأربعة .

أما فى الأقاليم فكان لا يجوز إصدار أكثر من صحيفة واحدة فى كل مقاطعة، وتكون تحت هيمنة المدير، ولا تنشر إلا الاعلانات والأخبار المتفرقة المحلية الخاصة بالحرائق والوفيات والأعراس وما شاكلها .

الارستوقراطية الامبراطورية — أخضع نابليون أوروبا بين ١٨٠٥ و ١٨٠٧ ووعد الشعب الفرنسى فى سنة ١٨٠٧

بالتوفر على الاصلاحات الداخلية وتنمية موارد البلاد ، وافتتح الدورة النيابية فى المجلس التشريعى فى أغسطس فأعلن عزمه على «تبسيط النظم وتكميلها » أى الغاء مجلس الشورى وانشاء ارستوقراطية امبراطورية ، بعد وسام الشرف ، تزيد من أبهة الملك على رغم أنف الديموقراطية والمساواة .

صدر نظام " الارستوقراطية الامبراطورية " فى ١١ مارس سنة ١٨٠٨ ولكن جميع الاجراءات التمهيدية اتخذت قبل ذلك وكان عمود الارستوقراطية الجديدة الموظفين ورجال الجيش ، وكانوا درجات فى النبالة بحكم المناصب : كان كبار رجال البلاط أمراء ، وكان الوزراء والشيوخ ورؤساء الاكليروس وأعضاء مجلس الحكومة كونتات ، ورؤساء المحاكم والبلديات فى المدن الكبرى بارونات ، وحاملو وسام الشرف فرسانا ، أما المديرون والقوّاد والضباط فكان الامبراطور يحتفظ لنفسه بحق منحهم ألقاب النبالة التى يختارها ، وكان من أغراض نابليون الأساسية خلق طبقة جديدة تدين للامبراطورية بجاهها ورفعتها فتصبح سندا لها وتحل محل طبقة الأشراف القديمة التى كانت سند الملكية ، وطالما شجع النبلاء القدماء على التنازل عن ألقابهم الوراثية وحمل ألقاب جديدة عليها الطابع الامبراطورى .

وكانت رعاية نابليون تشمل الجيش بوجه خاص وتميز العنصر العسكرى على العنصر المدنى فصار كيلرمان دوق فالمى، وماسينا دوق ريفولى، ... تذكرة بوقائع الجمهورية والامبراطورية .

على أن نابليون لم يكتف بذلك بل جعل الألقاب ، كما كان الأمر فى عهد الملكية، تدر الأرزاق والنعم على أصحابها .

انتهز فرصة سيطرته على أوروبا وتفرده بالأمر من غير معارض فاستولى فى ايطاليا، وبولندا، وهانوفر، ووستفاليا على أملاك تقدّر قيمتها بمائتين وخمسين مليونا من الفرنكات وكان يعدّ نفسه المالك الشرعى لها لأنها كانت أملاك الملوك الأول لا الشعب . تنازل نابليون عن بعضها للحكام الذين جعلهم ملوكا على هذه الممالك ووزع الباقى (مائة وخمسين مليونا) على كبار ضباطه أملاكا ثابتة موقوفة على الألقاب التى يتوارثها الأكبر سنا من الأبناء لهم ريعها .

ازدادت مساحة هذه الأملاك وأخذ الموظفون منها بنصيب ولكن رجال الجيش استولوا على أكثرها فصار أكبرهمهم ترك مواطن القتال والتمتع بخيرات ما يملكون ، وكان ايراد بعض القواد أكثر من مليون فرنك فى العام حتى بلغ مجموع الأرزاق المحبوسة على النبلاء من رجال الدولة ، والادارة، والجيش فى آخر

سنة ١٨١٠ ما يزيد على ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك عدا التبرعات التى تعدل هذا المبلغ .

إلغاء مجلس الشورى — فى نفس العام (١٨٠٧) عوّل نابليون على إلغاء مجلس الشورى بعد ما قضى على سلطته وأنقص عدد أعضائه الى خمسين عضوا . كان مجلس الحكومة هو الذى يقوم بالأعمال التشريعية فيعجل مجلس الشورى بالموافقة عليها ثم يقرها مجلس التشريع ، ولكن نابليون أبى الا أن يجهز على مجلس الشورى «لأنه لا تزال فيه بقية من هذه الروح الديموقراطية القلقة التى أحدثت الاضطراب فى البلاد زمانا» .

أُدمج أعضاء الشورى فى المجلس التشريعى وصارت الدورة النيابية فى هذا المجلس أسابيع قلائل ثم مرت أعوام لم يدع فيها للاجتماع فتلاشت سلطته وصار مجلس الشيوخ الذى ملاه الامبراطور بصنائعه يتولى إقرار أعماله الخاصة بالتجنيد والميزانية وغيرهما من المسائل التى نص الدستور على ضرورة موافقة النوّاب عليها .

على أن الامبراطور طالما هزأ بالدستور والقانون والحرية ففى سنة ١٨١٢ برأ رئيس بلدية أنفرس رغما من اتهام محكمة جنايات المدينة له ، وفى سنة ١٨١٣ انفرد بتقرير الضرائب وعمل الميزانية من غير أخذ رأى الهيئة التشريعية ، فكان هذا الرجل الذى جمع

شمل القوانين ونظمها حتى صارت لا تقرن إلا باسمه أوّل من قضى على سلطانها فى النفوس وأضاع هيبتها .

الأعمال التشريعية — بدأ نابليون أعماله التشريعية باصدار "القانون المدنى" فى سنة ١٨٠٤ ثم أتمها فى عصر الامبراطورية فنشر فى سنة ١٨٠٦ "مجموعة قوانين المرافعات المدنية"، و"مجموعة القوانين التجارية" فى سنة ١٨٠٧، و"مجموعة قوانين التحقيقات الجنائية" فى سنة ١٨٠٨، و"مجموعة القوانين الجنائية" فى سنة ١٨١٠

وكانت القوانين الجنائية تشتمل على عقوبات فى منتهى الشدّة لأن الامبراطور ومشرعيه كانوا يريدون الضرب على أيدى المفسدين الذين تكاثروا فى البلاد منذ عهد الفوضى وفشا فيهم المنكر .

التعليم — أراد نابليون أن يطبع كل شىء بطابعه فعوّل على تنظيم التعليم بطريقة تمكنه من الهيمنة على الآراء السياسية والاجتماعية فأنشأ "الجامعة الامبراطورية" بمرسوم ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ حتى يكفل « توحيد التعليم على نمط و ينشئ للدولة وطنيين متعلقين بدينهم وأميرهم ووطنهم وأسرتهم» و يجد وقاية ضدّ النظريات الآثمة الفاسدة فى النظام الاجتماعى . ان مهمة الجامعة «أن تعلم الطاعة للامبراطور والملكية الامبراطورية التى هى مصدر هناء الشعب» .

وكان نابليون من رأيه أن التعليم من حق الحكومات تكفله وتوكله الى من تشاء فيجب أن يكون حكوميا وأن تنشأ له إدارة عامة كاملة منظمة ، وكان جان جاك روسو وطورغو والمؤتمر الوطنى يقولون : « الجميع متساوون فيجب أن ينشأوا نشأة واحدة » .

والواقع أن الملوك فى "العهد القديم" كان لا يهمهم أمر التعليم فكانت المدارس الحرّة تسير على غير نظام ، يشرف الاكليروس على أكثرها ، وكانت الثورة أوّل من فكر فى تعميم التعليم الاجبارى باعتباره « دينا فى عنق الديموقراطية » وجعل التعليم حكوميا ، فلما رأى نابليون أن هذا النظام يعينه على تحقيق أغراضه رسم قواعده ووطده على ثلاث درجات تتألف منها الجامعة : التعليم الابتدائى ، والثانوى ، والعالى ، ترك التعليم الابتدائى لبعض الطوائف الدينية التى كان يمدّها بالمال وعنى بتنظيم التعليم الثانوى منذ سنة ١٨٠٢ وكانت المدارس الثانوية عسكرية فى شكلها لا تدرس فيها المواد التى تربى ملكة النقد عند النشء كالتاريخ والفلسفة ، وكانت معظم مواضيع الانشاء خاصة بالامبراطور وفتوحاته وجلائل أعماله .

وأنشئت كليات للتعليم العالى : كلية الدين ، وكلية الحقوق ، وكلية الطب ، وكلية العلوم ، وكلية الآداب ، وكان التعليم عمليا

فى هذه الكليات الغرض منه تكوين أساتذة وقضاة ومحامين ورجال مهنة، لا علماء ورجال بحث يساعدون على تقدّم العلوم البشرية.

وفى ٨ سبتمبر سنة ١٨٠٨ صدر قانون يجعل التعليم حكرة الحكومة فلا يفتح معهد للتعليم خارج الجامعة إلا باذنها .

النزاع بين الامبراطور والبابا — أخرج بونابرت التعليم من إدارة الكنيسة وأخضعه للنظام المدنى « لأن القساوسة كانوا يحتفظون بالروح ويرمون لنا الأبدان »، ولكنه جعل معاهد التعليم تقوم على قواعد الدين الكاثوليكى ومبادئ الحكومة (١٧ مارس سنة ١٨٠٨) .

ولم يكتف بذلك بل أراد أن ينتفع فى وقت واحد بالكنيسة والجامعة فى الهيمنة على نفوس الأجيال الناشئة فأرضى رجال الدين بالاتفاق الذى عقده مع البابا (١٨٠١) وحملهم على أن يعلموا النشء واجباتهم نحو الامبراطور بعد واجباتهم نحو الله : « يجب الاحترام والطاعة والوفاء والخدمة العسكرية وتأدية الضرائب التى يفرضها للدفاع عن الامبراطورية والمحافظة عليها لأن كل من خالف أوامر الامبراطور فقد عصى أمر ربه»، وهكذا صار الامبراطور خليفة الله فى أرضه يستمد منه سلطته كما استمدّها لويس الرابع عشر

وملوك القرن الثامن عشر، وبنيت الملكية الامبراطورية على قواعد الملكية المطلقة .

ثم ما لبث أن طغى وآستكبر وأراد أن يسخر البابا كما سخر القساوسة فى خدمة أغراضه السياسية فأعاد ذكرى النزاع القديم بين البابوية والملوك . قام الخلاف بينه وبين البابا منذ سنة ١٨٠٦ إذ تحكم فيه تحكم المستبد وأمره أن يطرد الانجليز المقيمين فى ولايات الكنيسة بايطاليا وأن يغلق مينه فى وجه التجارة الانجليزية (يناير — نوفمبر سنة ١٨٠٦) وكتب اليه يقول : « إن قداستكم بابا رومة ولكننى امبراطورها» كما كان شرلمان «إمبراطور الفرنسيين وسلفه الأعظم » ، وكان البابا بيوس السابع يدعى أنه «رسول إله السلام فلا يجوز له الخروج من الحيدة بين المؤمنين»

دفع الجبروت نابليون فى سنة ١٨٠٧ الى احتلال ولايات الكنيسة وضمها الى الامبراطورية فى مايو سنة ١٨٠٩ ثم أمر بإلقاء القبض عليه (٦ يولية سنة ١٨٠٩) وسجنه بالقرب من جنوة .

وفى سنة ١٨١١ أبى البابا أن يقلد المطارنة الذين عينهم نابليون وظيفتهم الدينية فخشى الامبراطور أن يحدث انقسام فى الكنيسة كما حدث فى عهد الجمعية الوطنية، وشرع فى مفاوضة البابا الذى كان لا ينفك يحتج على اغتصاب ولاياته ، وأتى به



Saint-Just سانجوست

سانجوست اكبر انصار روبسبير . تقدم الى الجمعية التشريعية وكانت سنه اربعة وعشرين فلم يقبل لعدم بلوغه السن القانونية (٢٥) ثم عين بعد ١٠ اغسطس عضوا في المؤتمر الوطني فكان مقعده في اعلى « الجبل » بجوار روبسبير ، وقد بدأ من هذه الاونة يلعب دورا كبيرا في الثورة وتجلت مواهبه في الخطبة التي طلب فيها اعدام الملك وذلك اثناء نظر قضيته : « . . عجلوا بمحاكمة الملك فان لكل وطني عليه الحق الذى كان لبروتس على قيصر » ، ثم كلف بوضع تقرير اتهام الغيرونديين على اثر القاء القبض عليهم في ٣١ مايو و ٢ يونيه سنة ١٧٩٣ ، وتقرير اتهام الهيبرتيين ثم مالبثت يد هذا الفتى — كما يقول دايو «الذى كان يحمل وجه امرأة وقلب اسد» ان صرعت دانتون فكان « ملك الموت » في الثورة وكان يد روبسبير العاملة في عهد الارهاب وعليه تقع معظم التبعة ، وقد قتلا معا في سنة ١٧٩٤ بعد ان بلغ السابعة والعشرين من العمر



شارلوت كورداي

على أثر القاء القبض على الغيروندين وتحريضات مارات «صديق الشعب» رأت شالورت كورداى ان الوسيلة الوحيدة لاعادة الامن الى نفوس «انصار الانسانية والقانون» هي القضـاء على مارات فقصدت باريس وطعنته بخنجر في بيته (١٣ يونيه سـنه ١٧٩٣) فقتل لساعته ودفن في مقبرة العظماء في احتفال رهب . الصورة رسمها المصور هاور Hauer في محكمة الثورة

الى باريس وهو على شفا الموت وانتزع منها اتفاقية جديدة (٢٥ يناير سنة ١٨١٣) تعترف بضم ولايات الكنيسة الى الامبراطورية ثم استقر البابا فى أفنيون كوكيل روحانى للامبراطور يأتمر بمشيئته ، ولكن البابا عاد فأنكر الاتفاقية التى وقعها مكرها فى ضعف الشيخوخة .

اضطرت الهزائم نابليون الى اطلاق البابا (يناير سنة ١٨١٤) ولكن إهانة البابا أثارت الحقد فى نفوس رجال الدين على نابليون ففرحوا بسقوطه فى سنة ١٨١٤ وصاروا من أكبر أعوان أسرة البوربون التى ارتقت الى العرش بعده .

نظام التجنيد والضرائب — اشتدت حاجة الامبراطور الى المال والرجال فى حروبه المختلفة فى أوروبا ، ورغما من استيلائه على الأموال الكثيرة فى الممالك المغلوبة على أمرها وإدماج أبنائها فى الجيش الفرنسى كان نابليون لا يفتأ يرهق البلاد بالتجنيد والضرائب الفادحة حتى أخذ الشبان ابتداء من سنة ١٨٠٨ يهربون أفواجا من الخدمة العسكرية فى الجبال والغابات . بلغ عدد الهاربين فى سنة ١٨١٠ أكثر من ١٦٠,٠٠٠ رغما من وسائل العنف التى كان يلجأ اليها الامبراطور لإكراههم على العودة .

وفرض الامبراطور على المشروبات ، وورق اللعب ، والعربات والملح ، والدخان الضرائب المختلفة التى كانت مبعث الشكوى فى العهد القديم .

وكان الحصار الأوروبى الذى ضربه نابليون على القارة ليمنع دخول البضائع الانجليزية سببا فى شل الحركة التجارية فحدثت فى سنة ١٨١١ أزمة اقتصادية شديدة اجتاحت بيوتات تجارية ومالية كثيرة فانتشر الاستياء العام بين أرباب الصناعة والتجارة ورجال الطبقة المتوسطة .

والواقع أن الطبقات كلها كانت ساخطة على حكومة الامبراطورية من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكان منشأ الكوارث الحكومة الشخصية التى ثقلت وطأتها على البلاد .

الفصل الثانى

سياسة نابليون الخارجية

كان نابليون فى سياسته الخارجية ، كما كان فى سياسته الداخلية ، منفذ وصية الثورة والملكية معا ، يجرى على سنة الفتح والاستيلاء على الحدود الطبيعية وغير الطبيعية وسياسة الاستهتار بحقوق الأمم الضعيفة التى ورثها عن القرن الثامن عشر (تقسيم بولندة) واتبعها فى بلچيكا ، وهولندة ، وسويسرا ، وايطاليا ، واسبانيا .

من أجل ذلك كانت أطماعه التى يمدّها الخيال والارادة لا تعرف حدّا ، وليس من الميسور أن نقول ، كما ذهب الى ذلك بعض المؤرّخين ، اذا كان محور سياسته الخارجية الهيمنة على أوروبا ، أو تحويل البحر الابيض الى بحيرة فرنسية ، أو الاستيلاء على مصر وتجزئة الامبراطورية العثمانية .

وعلى أية حال فان هذه الأغراض الثلاثة يشدّ بعضها بعضا وفيها تتلخص سياسة نابليون الخارجية ، وهى تفسر لنا السر فى تفانى انجلترا فى محاربته لأن سياسته كانت بصفة عامة تريد الرجوع بأوروبا الى الوراء وتهدّد سيادة انجلترا فى البحر ، كما تهدّد سيادة

الدول الأوروبية فى البر، وتهدد جزرها فى بلجيكا شمالا ومستعمراتها فى مصر جنوبا .

ولا ريب أن فرنسا، فى عهد نابليون، كانت أول دولة غربية فى القرن التاسع عشر أدخلت "المسألة الشرقية" فى دائرة السياسة الأوروبية وحاولت حلها مع روسيا فلم تتمكن لصعوبة الاتفاق على تقسيم الامبراطورية العثمانية التى تتفاوت أجزاؤها قدرا وأهمية، وقد حالت هذه الصعوبة أكثر من قرن دون حل المشكلة كلما حاولته أوروبا فى مؤتمراتها واتفاقياتها العامة فعولت أكثرها، وخصوصا انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا، على أن تنفرد كل منها باقتطاع جزء من تركيا كلما سنحت الفرصة فكان بينها شبه اتفاق يدفعها الى التغاضى عما تأتيه إحداها من اعتداء على حقوق تركيا أو خرق القانون الدولى، وكان الدفاع عن هذه الحقوق أو المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية من جانب إحدى هذه الدول معناه فى اللغة السياسية الرغبة فى تأجيل التقسيم العام أو الجزئى حتى تتمكن هى من الاستيلاء على ولاية تطمع فيها أو الخروج بغنم من مساومة جديدة بينها وبين الدولة المعتدية .

وقد تمسكت انجلترا فى أثناء حروب نابليون بمبدأ المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية خوفا على مصر وسوريا وطريق الهند

وتمكنت من تأليب الدول مرارا على نابليون ، فكانت روح كل ائتلاف جديد ، وقد نجح نابليون في التحالف مع روسيا منذ سنة ١٨٠٧ وأعلن على انجلترا منذ سنة ١٨٠٦ حربا اقتصادية تتلخص في "الحصار البرى" فمنع التجارة الانجليزية من الدخول في أوروبا التي هيمن عليها ثلاثة أعوام من معاهدة فينا (١٨٠٩) لغاية سنة ١٨١٢

ثم أخذت قوته في الاضمحلال لأن أوروبا لم تحتمل سياسته العاتية وصارت هزائمه تترى حتى دخلت الجيوش الأوروبية باريس (أبريل سنة ١٨١٤) وخلع نابليون ثم نفى في جزيرة الألبا وأمضيت معاهدة باريس الأولى التي ردّت فرنسا الى حدود سنة ١٧٩٢ وأفقدتها فتوحات الجمهورية .

ولما عاد الامبراطور الى فرنسا في مدّة المائة يوم ، هزمته من جديد في موقعة واترلو الشهيرة (يونيه سنة ١٨١٥) وردّت فرنسا الى حدود سنة ١٧٨٩ ، ثم قضى نابليون بقية حياته أسيرا في سانت هيلانه في حراسة عدوّته العنيدة المحتالة انجلترا بعد ماطوّح بموارد البلاد من مال ورجال في حروبه التي أقامت في أوروبا ستة عشر عاما ، وكانت كل معاهدة تعقد في أثنائها هدنة .

١

الحرب ضد النمسا

كان القنصل الأول بحاجة الى انتصار حربى يدعم به سلطته فى الداخل، ومن حسن حظه أنه فاتح النمسا وانجلترا فى الصلح فرفضتا وكانت روسيا انسحبت فعلا من الائتلاف على أثر هزيمة زوريخ وحشد الأعداء جيشين أحدهما وراء الرين فى ناحية الغابة السوداء والآخر فى بيمون بازاء فرنسا الجنوبية . كان ماسينا يقود الفرنسيين ضد ميلاس فى إيطاليا ويحرس جنوة وممرات الألب والآبنين من الغارة النمسوية ، وكان مورو يقود جيش الرين ضد كراى فى ألمانيا بينما كان بونابرت يعدّ جيشا ثالثا ضد النمسا .

دافع ماسينا عن جنوة دفاعا مجيدا وظل محاصرا فيها شهرين كاملين عانى فيهما هو وجيشه والسكان عذاب الجوع فكانوا يأكلون الكلاب والدود والجراد والأعشاب (٦ أبريل — ٤ يونيه ١٨٠٠) وقبل أن يسلم المدينة كان بونابرت قد اجتاز بجيشه جبال الألب ونزل لومبارديا ثم انحدر منها الى "مارنجو" فهزم النمسويين فى موقعة فاصلة (١٤ يونيه) وأرغمهم على إخلاء بيمون ولومبارديا فى إيطاليا .

ولكن النمسا كانت لا تزال فى حرب ، وكانت جيوشها فى ألمانيا تحمى طريق فينا الحقيق لأنه أقرب الطرق الى قلب الامبراطورية ، ولذلك كانت مهاجمة النمسا من ألمانيا الجنوبية أشد الخطط خطرا عليها .

عبر مورو نهر الرين وطارد النمسويين فى بافاريا حتى أحرجهم فى غابات " هوهنلندن " (٣ ديسمبر) ومزق شملهم ففقدوا ٢٠٠٠٠ جندى من سبعين ألفا ، وانفتح طريق فينا للفرنسيين فطلب امبراطور النمسا فى ٢٥ ديسمبر هدنة أعقبها صلح "لونيڤيل" فى ٩ فبراير سنة ١٨٠١

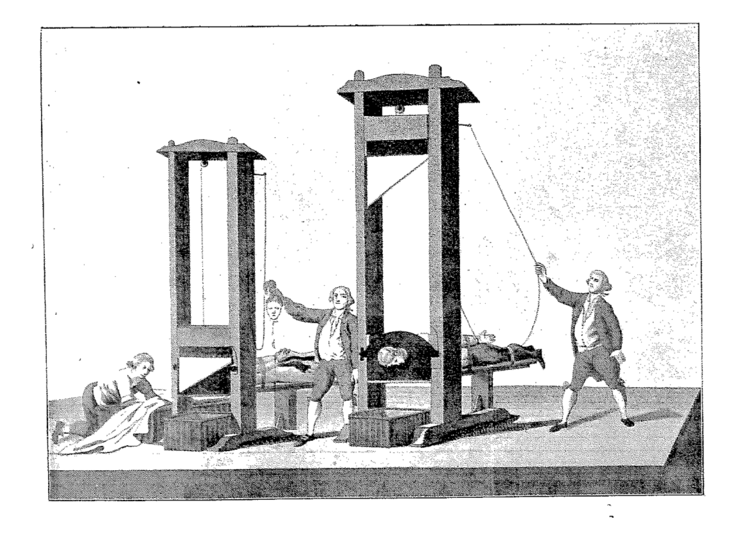
صلح لونيڤيل — كانت نتائج معاهدة لونيڤيل تدعيم معاهدة كامبو فورميو ، ففى ألمانيا اعترفت النمسا رسميا بامتلاك فرنسا الضفة الغربية من نهر الرين وحق فرنسا فى منح الأمراء الألمان عوضا فى الضفه الشرقية من أملاك الكنيسة فى ألمانيا التى تقرر تحويلها الى أملاك مدنية ، وبذلك اكتسب بونابرت حق التدخل فى ألمانيا وبسط نفوذه فيها مكان الامبراطور .

وفى إيطاليا انتزع بونابرت من أسرة الهابسبورج توسكانة ومودين وهيمن على إيطاليا كلها ولم يترك للنمسا فيها إلا ڤينيسيا القديمة وراء نهر الأديج .

واعترفت النمسا، فوق ما تقدم، بالتغييرات التى أحدثتها فرنسا فى هولندة وسويسرا وتحويل كلتيهما الى جمهورية .

الحرب ضد انجلترا — لم تبق أمام بونابرت إلا انجلترا، وكان الفرنسيون فى هذه الآونة يعانون كل مشقة فى سبيل الاحتفاظ بمصر فعوّل على توجيه كل قواه الى الدولة التى تحول بينه وبين أطماعه فى الشرق، بدأ القنصل الأول بمضايقة انجلترا فى البحر الأبيض فأغلق فى وجهها المين الايطالية وعقد مع اسبانيا معاهدة مدريد (٢١ مارس سنة ١٨٠١) التى تنازل لأسرتها بمقتضاها عن توسكانة مقابل لويزيانة فى أمريكا على شريطة أن يتعهد الملك شارل الرابع بطرد الانجليز من البرتغال .

وكان بونابرت فى أثناء حروبه ضد النمسا يتقرّب الى بولس الأول قيصر روسيا الذى حنق على انجلترا بسبب احتلالها مالطة واعتدائها على حقوق الأمم فانحازت اليه فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ الدول البحرية فى الشمال للدفاع عن حرية البحار وتألفت "عصبة الحياد" من روسيا وبروسيا والدانيمرقة والسويد فاستولت الدانيمرقة على البضائع الانجليزية فى مين البلطيق، واحتلت بروسيا عسكريا فى أبريل سنة ١٨٠١ هانوفر التابعة للأسرة الحاكمة فى انجلترا .



المقصلة فى باريس

صورة هولندية تمثل المقصلة في عصر الثورة

والواقع ان بولس الأول كان يريد أن يقتسم العالم الشرقى مع بونابرت فقبل القنصل الأول بشرط أن تسيطر فرنسا على البحر الأبيض ومصر وسوريا ، وأخذ بونابرت يفاوض النمسا فى الاشتراك معهما على أن تستولى على الصرب والبوسنة وبلغاريا والولايات الرومانية (مارس سنة ١٨٠١) ، وكان يعدّ فى الوقت نفسه حملة جديدة لارسالها الى مصر .

لكن الانجليز نجحوا فى انزال جيش جديد فى مصر (٨ مارس ١٨٠١) وانتصر قائدهم نلسون فى الشمال على الدانيمرقة والسويد (مارس) ، وقتل فى الوقت نفسه بولس الأول حليفه فلم يسع بونابرت إلا مفاوضة انجلترا فى الصلح (أبريل سنة ١٨٠١) اذ أيقن بعجزه عن انقاذ مصر وتحقيق سياسته فى الشرق .

صلح أميان — كانت انجلترا من جهتها تميل الى الصلح اذ لم يكن مقدورها التغلب على فرنسا لأن الحرب ، رغما من الاستيلاء على المستعمرات الفرنسية وبعض مستعمرات اسبانيا وهولندة ، واحتلال مالطة وطرد الفرنسيين من مصر ، كلفتها سبعة مليارات ونصف من الفرنكات ، وكان الشعب يئن من البؤس والضرائب الفادحة ، وكان ١٤ فى المائة من السكان يعيشون من الاستجداء ، وكان الارلنديون فى حالة ثورة : كل هذه العوامل

حملت بت الذى رأس الوزارة الانجليزية سبعة عشر عاما وكان من أشــدّ أنصار الحرب على الاستقالة (٢ فبراير سنة ١٨٠١) فخلفه ادنجتون وكان من أنصار المفاوضة .

فى أوّل أكتوبر سنة ١٨٠١ أمضيت تمهيدات الصلح فى لندرة فطرب الانجليز لانتهاء هذه الحروب الطاحنة التى تفانى فيها الفريقان ثمــانية أعوام، وكانت عقبة الصلح مالطة فان هذه الجزيرة ظلت إمارة مستقلة منذ القرن السادس عشر يحكمها طائفة فرسان القديس يوحنا حتى استولى عليها بونابرت فى سنة ١٧٩٨ تمهيدا لفتح مصر والهيمنة على البحر الأبيض ولكن انجلترا حاصرت هــذه الجزيرة ٢٦ شهرا فملكتها فى ســنة ١٨٠٠ وكانت فرنسا تريد استردادها وانجلترا استبقاءها لأن البحر الأبيض لا يزال مطمع الدولتين وأخيرا اتفقتا بمقتضى صلح أميان (٢٥ مارس ســنة ١٨٠٢) على أن ترد انجلترا مالطة الى فرسانها ، وأن تجلو عنها وعن مصر فى مدّة ثلاثة أشهر وتردّ الى فرنسا جميع مستعمراتها ، والكاب الى هولندة ، ولكنها تحتفظ بجزيرة ســيلان المتممة لمستعمراتها الهندية وكانت انتزعتها من الهولنديين ســنة ١٧٩٥ ، وبجزيرة الثالوث الاســبانية وهى فى نهاية جزر الأنتلس الصغرى تطل على أمريكا الجنوبيــة وتمهد طريق الاســتيلاء على غيانة والقارة ، وتعهـــد الفرنسيون باخلاء مملكة نابولى التى كانوا يحتلونها .

وأغفلت المعاهدة ذكر بلجيكا وضفة الرين الغربية ومركز فرنسا فى ايطاليا ، ولا ريب أن بونابرت ضحى بمصالح هولندة واسبانيا فى سبيل صلح مؤقت يكفل له بقاء طريق مصر والشرق مفتوحا ، وستحمله أطماعه بعد ذلك الى التصرف فى ألمانيا وايطاليا تصرف المالك والتطلع الى الشرق وبالتالى تحريك اطماع الدول الأوروبية ونقض الصلح .

تعديلات بونابرت فى ألمانيا — نصت المادة السابعة من معاهدة لونيفيل على أن الأمراء الوراثيين الذين كانت لهم أملاك على ضفة الرين الغربية يعوضون منها فى ألمانيا ، وتقرر أن توزع أراضى الاكليروس على الضفة الشرقية بين الأمراء المدنيين فقام النزاع على تقسيمها بين النمسا وبروسيا وبافاريا ، فتدخل بونابرت فى الأمر ودعا امبراطور روسيا الى مشاركته فى تسوية النزاع فقبل .

والحقيقة ان تاليران تولى وحده المفاوضات ووقعت فرنسا وروسيا فى ٣ يونيه سنة ١٨٠٢ على "الاتفاقية الألمانية الثنائية" فوافق عليها مجلس الامبراطورية الألمانية (Diété) فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٠٣ وحدث بمقتضاها انقلاب فى نظام الامبراطورية القديم : نقص عدد الدول والولايات التى تتألف منها الامبراطورية الألمانية

وزادت قوة واتساعا فان ملك بروسيا مثلا تنازل عن مدينة كليف على الرين فأخذ بدلا من ٢٧٥٠ كيلو مترا مربعا و ١٢٥٠٠٠ رعية ١٢٠٠٠ كيلو مترا مربعا و ٥٠٠٠٠٠ ساكن فى وستفاليا (اسقفية مونستير واراضيها) واخذت النمسا، وبافاريا، وهانوفر، وورتنبرج، وبادن، وهيس أعواضا أرضية كبيرة فى أملاك الأسقفيات ورؤساء الاكليروس على ضفة الرين الشرقية وفى أملاك المدن الحرة التى لم يبق منها إلا ست وكانت إحدى وخمسين مدينة متمتعة بكامل سيادتها الدينية والسياسية منذ معاهدة وستفاليا، وكان على الضفة الغربية ثلاثة أمراء ناخبين انفرد منهم أسقف ماينسه وحده بأخذ عوض فى راتسبونة الواقعة على الطونة فى شمال بافاريا وعين رئيسا لمجلس الامبراطورية .

وقد نقص عدد ولايات الامبراطورية من ٣٦٠ فى سنة ١٧٩٢ الى ٧٢ فى سنة ١٨٠٣ وعلى ذلك كان نابليون من أكبر العاملين على تقوية ألمانيا وتكوين وحدتها وبالتالى اضعاف نفوذ النمسا فيها .

التعديلات فى ايطاليا — كانت تعديلات بونابرت فى ألمانيا تتفق مع تقاليد الثورة لانها ضمنت لفرنسا ملكية ضفة الرين الغربية وقضت فى ألمانيا على بعض مظاهر "النظام القديم" .

الذى كان يعرقل وحدتها وتقـدمها وان كانت التعديلات أضرت بالأمراء الروحانيين ورؤساء الاكليروس .

أما فى ايطاليا فان تعديلات بونابرت وان كانت أفادت ايطاليا من حيث الوحدة وتكوينها الا أنها كانت عملا استبداديا تمخضت عنه رغبة الامبراطور فى الهيمنة على ايطاليا وتوطيد سلطته الشخصية فيها .

بينما كانت المفاوضات دائرة بين القنصل الأول وانجلترا قبل صلح أميان عمل بونابرت جهده فى توطيد سيطرته على الممالك الضعيفة هولندة، والجمهورية الألبيـة فى شمال ايطاليا ، وجنوة، وبيمون ، وكانت انجلترا لاضطرارها الى صلح عاجل أغفلت التعرض لأعمال بونابرت فى هذه البلاد، ولكنها أبت على أية حال الاعتراف بها خصوصا فيما يتعلق بهولندة التى اشـتركت فى الصلح باعتبارها دولة مستقلة وبيمون .

وكانت فرنسا والنمسا فى معاهـدة لوينفيل (فـبراير ١٨٠١) تعاقدتا على "كفالة استقلال الجمهوريات الهولندية، والسويسرية، والألبية ، والليغورية ، وحرية الشعوب الى تقطنها فى اختيار نوع الحكومة الذى يلائمها" .

رغما من هـذه النصوص الصريحة لم يحسب بونابرت حسابا للنمسا وانجلترا فى سياسته وأخذ يبدل نظم هـذه الممالك ويتصرف فيها تصرف المالك . فى ينايرسـنة ١٨٠٢ اجتمع القنصل الأول فى ليون بأعاظم ايطاليا العليا فعرضوا عليه رياسة للجمهورية الألبية المؤسسة منذ سنة ١٧٩٧ فقبل وقرّر تسمية هذه الجمهورية من الآن فصاعدا "الجمهورية الايطالية" وكان دستورها شبيها بدستور السنة الثامنة وحكومتها خاضـعة للقنصل الأول ، وكان بونابرت يدخل فى شـؤون جنوة وبيمون ، وتوسكانه ، ودوقية بارم ويصـدر أهم التعيينات فى الجيش والادارة .

٢

الحرب ضـدّ انجلترا

نقض صلح أميان — قال تاليران "ان فرنسا ، فى معاهدة أميان ، كانت تتمتع فى الخارج بقوّة وعظمة ونفوذ واسع لا يمكن الانسان مهما بلغت به أطماعه أن يتمنى أكثر منها لبلاده ، ولم تظهرلبونابرت الى ذلك الوقت أغراض يمتنع أى فرنسى غيور على وطنه من العمل على تحقيقها ، ولكن بونابرت ما كاد يعقد الصلح حتى فارقه الاعتدال" .

وقد رأينا أنه بعد صلح أميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) استمر فى سياسة التوسع والاعتداء على الأمم المستضعفة فظل يحتل بيمون بجيوشه منذ ١٩ أبريل سنة ١٨٠١ وأعلن ضمها الى فرنسا فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٠٢ ، ولما كانت سويسرا تتمتع رسميا بالحيدة وكان بونابرت يريد توطيد نفوذه فيها مع التظاهر باحترام المعاهدات سحب جيوشه منها فى أواخر يولية سنة ١٨٠٢ وأبقاها بالقرب من حدودها فى انتظار فرصة صالحة للتدخل من جديد فما لبث أن شجر النزاع بين الأحزاب واستنجده الحزب "الفرنسى" فاحتل سويسرا من جديد وتدخل فى شؤونها ، وعمل فى ١١ فبراير سنة ١٨٠٣ اتفاقية مع أعيان سويسرا تنازل لهم بمقتضاها عن حكومة الأقاليم واحتفظ لنفسه بالحكومة المركزية واختيار رئيس الجمهورية وكان بونابرت فى أثناء ذلك بعد ماهيمن على إيطاليا وبحر الأدرياتيك واحتل جزيرة الألبا (٢٦ أغسطس سنة ١٨٠٢) يفكر فى الشرق ويقول : « إننى أطمح ببصرى دائما الى مصر » ، وقد كلف فى أغسطس سنة ١٨٠٢ القائد سبستيانى بمهمة تجارية فى مصر وسوريا ولكن هذه المهمة كانت ترمى فى الواقع الى درس أحوال تركيا وقوة المماليك والتحصينات التركية . وكان بونابرت فى مفاوضات صلح أميان متمسكا باستبقاء مالطه حتى يظل الطريق حرّا بين

طولون والاسكندرية ، ولكن الجزيرة تقرّر ردّها الى فرسانها فلم ييأس القنصل الأوّل وأعلن لمندوب انجلترا فى فبراير سنة ١٨٠٣ : « إن مصر ستصير عاجلا أو آجلا ولاية فرنسية من طريق تفكك الامبراطورية العثمانية أو من طريق الاتفاق معها » .

هذه السياسة كان من شأنها أن تثير حقد الحكومة الانجليزية وكان بونابرت لا يدخر وسيلة فى مناوأتها وحملها على إعلان الحرب فأخذ يتهمها بحماية السفاحين (المهاجرين) ، والسيطرة على البحر الأبيض الذى لا مفرّ من صيرورته بحيرة فرنسية ، والتدخل فى الشرق ، وتمكن بواسطة صحفه وموظفيه وعماله فى البلاد من خلق حركة وطنية صناعية فى سنة ١٨٠٣ ضد انجلترا .

وكانت شكوى بونابرت ترتكز على احتفاظ انجلترا بمالطه وعدم ردّها الى فرسان القديس يوحنا طبقا لمعاهدة أميان ، وكانت شكوى انجلترا ترتكز على أن تقسيم أوروبا المتفق عليه فى معاهدة أميان تغير بعدها بالاستيلاء على بيمون ، وجزيرة الألبا ، واحتلال سويسرا المستتر .

وكانت انجلترا تعلم نوايا القنصل الأوّل فيما يتعلق بمصر وتركيا وتصرح فى غير تردّد أن بقاءها فى مالطه لا بدّ منه للمحافظة على طرق البوسفور ومصر والهند .

وفى أبريل سنة ١٨٠٣ حتمت الوزارة الانجليزية على فرنسا الجلاء عن هولنـدة، وسويسرا، وبيمون، وأعلنت عليها الحرب فى مايو، « وكانت هذه الحرب، كما يقول المؤرّخ إميل بورچوا، قومية فى انجلترا ترمى الى حماية مصر، وأما فى فرنسا فكانت شخصية بحتة وليدة أطماع القنصل الأوّل » .

الحــرب — قرّرت انجلترا حصار سواحل إيطاليـا ، وهولندة، وفرنسا، وأرغم بونابرت هولندة، وأسبانيا، والبرتغال على مساعدته بالمــال والسفن والرجال واتخاذ الاجراءات اللازمة لاغلاق القارّة فى وجه التجارة الانجليزية، وأرسل أحد قوّاده فاحتل هانوفر وكانت من أملاك ملك انجلترا الشخصية تنحصر أهميتها فى الهيمنة بفضل موقعها الجغــرافى على أسواق ألمــانيا الشمالية ومرافئهـا التجارية، واحتل هامبورج وأهم ثغور ألمــانيا واستولى فيها على ثروة التجار الانجليز، ثم أخذ يعدّ حملة لغزو انجلترا، وكان المــال يعوزه فباع للولايات المتحدة لويزيانه وأورليانس الجديدة وجهز فى معسكر ثغر بولون ١٥٠٠٠٠ جندى بالعدد وهيأ نحو ٢٣٠٠ سفينة لنقل الحملة وإنزالها على السواحل الانجليزية ولكنه عانى صعوبات كبيرة حالت دون تحقيق هذه الخطة .

كان نابليون فى الوقت نفسه يحاول بأسطوله إنفاذ خطة أخرى فى الجنوب يضرب بها انجلترا ولكن الأسطول الانجليزى بقيادة نلسن كان يرقب البحر الأبيض ومدخل جبل طارق والسواحل الاسبانية — لأن اسبانيا تحالفت مع فرانسا منذ سنة ١٧٩٦ وكان الأسطول الفرنسى يمون فى ثغورها — وأخيرا خرج الأسطول الفرنسى الاسبانى لمواجهة الأسطول الانجليزى فنشبت المعركة بينهما أمام رأس "الطرف الأغر" وانجلت عن هزيمة الفرنسيين والقضاء على آمالهم فى البحر (٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥) وبذلك أمن الانجليز على جزرهم ومستعمراتهم وما اليها خطر القارّة .

أخذ نابليون بعد ذلك يضيق الخناق على انجلترا فى البحر بتنظيم "الحصار البرى" وإيصاد مرافئ أوروبا فى وجه التجارة الانجليزية حتى تصبح انجلترا أسيرة فى بحارها .

٣

الائتلاف الثالث

الواقع أن خطة نابليون كانت تهدّد أوروبا كلها خصوصا وانه كان يسير سيرة مهيمن ، وليس أدل على ذلك من تصرفاته بعد أميان ولونيفيل فى هولنده ، وسويسرا ، وألمانيا ، وايطاليا وامتداد أطماعه

فى الوقت نفسه الى مصر والشرق والبحر الأبيض . وكان اسكندر الأول قيصر روسيا (خليفة بولس الأول منذ ٢٣ مارس سنة ١٨٠٤) يريد تحقيق سياسة كاترين الثانية فى الامبراطورية العثمانية والشرق فساقه ذلك الى العمل على عرقلة سياسة نابليون وتعاقد مع ملك بروسيا (مايو ١٨٠٤) وامبراطور ألمانيا (نوفمبر ١٨٠٤) وأخيرا مع انجلترا (١١ أبريل ١٨٠٥) .

وقد ترددت النمسا فى دخول الحرب لأنها كانت تخشى أطماع روسيا وفرنسا معا وكانت كما قال أحد وزرائها « بين المطرقة والسندان» ، ولكن سياسة نابليون فى إيطاليا وخصوصا إعلان نفسه ملكا عليها فى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٥ كان من شأنه حمل الامبراطور فرنسوا على التحالف مع روسيا .

فطن نابليون الى الخطر الداهم فعجل بنقل "الجيش الأكبر" من المانش الى الرين (سبتمبر ١٨٠٥) وكان الجيش النمسوى فى أثناء ذلك يزحف تحت قيادة القائد ماك على الرين فى انتظار جيش روسى لانجاده ولكن الروسيين تباطأوا فمكن ذلك نابليون من حصر ماك فى أولم (١٩ أكتوبر) وحمله على التسليم ، وقد أسر الفرنسيون فى هذه الموقعة ٦٠٠٠٠ رجل وأخذوا مائتى مدفع وثمانين رايه (٢٠ أكتوبر) .

قصد نابليون بعد ذلك ڤينا «ليوفر على الروسيين نصف الطريق» فدخلها فى ١٩ نوفمبر ثم انتصر على امبراطورى النمسا وروسيا فى موقعة أوسترلتز الشهيرة (٢ ديسمبر) على بعد ١٢٠ كيلو مترا من شمال ڤينا فتراجعت بقية الجيوش الروسية الى بلادها واضطرت النمسا الى طلب الصلح .

صلح برسبورج — أمضيت معاهدة برسبورج بين النمسا وفرانسا فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ فتنازلت النمسا بمقتضاها عن إستريا ودالماسيا وڤينيسيا لتضم الى إيطاليا، والتيرول وسواب لتضما الى أملاك حلفائه فى ألمانيا دوق ورتمبرج ودوق باڤاريا ودوق بادن، وبذلك فقدت النمسا ثلاثة ملايين من رعيتها، وسدّ فى وجهها طريق إيطاليا ، والادرياتيك ، ووادى الرين وانفتح لنابليون فى الوقت نفسه طريق تركيا والشرق .

سياسة نابليون فى إيطاليا وألمانيا — ظهر نابليون بعد انتصاره فى أوسترلتز بمظهر امبراطور الغرب فأعاد سيرة شارلمان وأخذ يبدل فى إيطاليا وألمانيا ويوزع التيجان بجعل الأميرين الناخبين فى ورتمبرج وباڤاريا ملكين « مكافأة لهما على تعلقهما بالامبراطور » ، وانتزع من البوربون فى إيطاليا مملكة نابولى « جزاء لهم على تحالفهم مع الانجليز » (٢٧ ديسمبر سنة ١٨٠٥)

ونصب بمرسوم أخاه الأكبر ملكا عليها (أول أبريل سنة ١٨٠٨) وحول الجمهورية الهولندية الى مملكة وعين أخاه لويس واليا عليها (٥ يونيه سنة ١٨٠٦)، وأنشأ فى فنيسيا اثنى عشر دوقية وزعها بين كبار رجال حاشيته وضباطه وموظفيه وأقطعهم الامارات والعمالات المختلفة، ومنح نسيبه أوجين بوهارنى وكالة مملكة إيطاليا وصهره مورات غراندوقية برج، وكان غرض نابليون الأول بعد أوسترلتز أن تستند امبراطوريته فى البقاء الى أسرته وموظفيه وأن تكفل المصلحة غيرتهم عليها .

ولكن أهم نتائج أوسترلتز كانت فى التغييرات التى أحدثها نابليون فى ألمانيا : ضمنت الثورة الفرنسية ومعاهدات بال، وكامبو فورميو، ولونيفيل لفرنسا امتلاك أراضى الضفة الغربية من نهر الرين، وقد أنقص القنصل الأول بفضل اتفاقية سنة ١٨٠٣ التى وافق عليها المجلس الامبراطورى عدد ولايات الامبراطورية الى ٨٢، ولكن نابليون فكر فى تنظيم ألمانيا من جديد طبقا لخطة معينة وأن يعمل على توحيدها « ووضع حد للفوضى التى تئن منها الأمة الألمانية العريقة فى المجد » ، كما دعاه الى ذلك أسقف ماينسه، « واحياء امبراطورية الغرب كما كانت فى عهد شارلمان مؤلفة من إيطاليا وفرنسا وألمانيا » .

كان نابليون يريد أن يجعل ألمانيا سدّا فى وجه النمسا وروسيا، وكان صلح برسبورج خطوة جدّية فى هذه السبيل لأنه حمل الأمراء الألمان على الالتفاف حول نابليون الذى أراد أن يوثق صلته بهم بالنسب فزوّج أوجين بوهارنى ابن چوزفين ووكيله فى مملكة إيطاليا بابنة ملك باقاريا (١٨٠٦) وزوّج ولى عهد بادن من أسرة بوهارنى (١٨٠٦)، وتقرّر منذ أواخر سنة ١٨٠٥ تزويج چيروم بونابرت ملك وستفاليا (من سنة ١٨٠٧ الى ١٨١٣) بابنة ملك ورتمبرج .

أراد نابليون أن يعهد الى باقاريا بتكوين الوحدة الألمانية من حدود النمسا الى فرنسا فقام أسقف ماينسة السابق ، وكان الوحيد بين رجال الكنيسة الذى عوّض فى ألمانيا مما فقده على ضفة الرين الغربية ، ودعا الأمراء باسم الوطنية الألمانية الى تأليف "محالفة الرين" برياسة نابليون، وأخيرا قرّر خمسة عشر أميرا فى ألمانيا الجنوبية ، وفى مقدّمتهم ملكا باقاريا وورتمبرج ، الانفصال من امبراطورية ألمانيا وألفوا "ولايات الرين المتحدة" فى ١٢ يوليه سنة ١٨٠٦ ، وجعلوا عاصمتهم فرانكفورت، ثم عقد الأمراء مع نابليون محالفة مستديمة، دفاعية هجومية، ومنحوه حق السلم والحرب وقيادة الجيش الاتحادى وتحديد عدده، والاشراف على السياسة الخارجية .

وقد ترتب على انفصال ولايات الرين من " الامبراطورية الألمانية " انحلال هذه الامبراطورية بعد أن دامت عشرة قرون (منذ أوتو الأكبر سنة ٩٦٢) ، وأرغم نابليون فرنسوا الثانى على التنازل عن لقب امبراطور ألمانيا (٦ أغسطس ١٨٠٦) والاكتفاء بلقب امبراطور النمسا ، وصارت ألمانيا مؤلفة من ثلاثين أو أربعين مملكة وإمارة وولاية كبيرة بعد أن كانت فى الأصل ٣٧٠ وأنقصها الى ٨٢ فى سنة ١٨٠٣ فقضى بذلك على نفوذ النمسا فى ألمانيا وضمن لنفسه تأليف جيش ألمانى عند الضرورة يستعمله ضدّ روسيا ومطامعها فى تركيا خصوصا وانه عقد مع بروسيا فى ١٥ فبراير سنة ١٨٠٦ معاهدة تمكنه من الاستعانة ببروسيا ضدّ روسيا وانجلترا معا فتنازل لبروسيا عن هانوفر وتعهدت له " بمساعدته فى المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية " .

والواقع أن أطماع نابليون كانت متجهة الآن الى دولة آل عثمان وكانت هذه أوّل مرة فى تاريخ القرن التاسع عشر (١٨٠٦) واجهت فيها أوروبا حل المسألة الشرقية الخطيرة .

٤

الائتلاف الرابع — كانت بروسيا متحالفة مع روسيا قبل اوسترلتز ولكن نابليون بعد انتصاره تمكن بين ١٥ ديسمبر

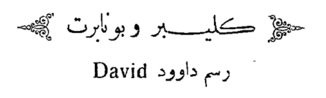
سنة ١٨٠٥ و ١٥ فبراير سنة ١٨٠٦ من اجتذاب بروسيا وفصلها من انجلترا وروسيا فلم يسع كلتا الدولتين إلا التقرب من فرنسا والاتفاق مؤقتا معها حتى تسنح الفرصة للقضاء على مطامع نابليون .

وكان بت عدو فرنسا اللدود مات فى هذه الأثناء (يناير ١٨٠٥) وخلفه فوكس فى الوزارة الانجليزية فأخذ يفاوض الفرنسيين فى الصلح ، ويظهر أن روسيا خشيت أن تصبح فى عزلة بعد انفصال بروسيا وانجلترا فعمل اسكندر الأول جهده فى التقرب من نابليون وعرض عليه الصلح فى مايو سنة ١٨٠٦ فقبل وصارت أوروبا تتوجس خيفة على الشرق من اتفاق الدولتين .

والحقيقة أن غرض اسكندر الأول تنويم نابليون إذ كان لا يثق به خصوصا بعد ما علم فى شهر مارس سنة ١٨٠٦ باتفاقه مع بروسيا فيما يتعلق بالامبراطورية العثمانية : من أجل ذلك سعى قيصر روسيا جهده فى برلين لنقض هذا الاتفاق ، وعقد مع بروسيا فى أول يوليه سنة ١٨٠٦ اتفاقية سرية تعهدت بروسيا بمقتضاها «أن لا تدخل قط فى حرب مع قيصر روسيا فى حالة تجييشه الجيوش للدفاع عن تركيا ضد فرنسا ... » فأحرزت روسيا بهذه الاتفاقية نجاحا كبيرا فى عالم السياسة ، ومما ساعد على إحراج مركز فرنسا أن الانجليز أبلغوا سفير بروسيا فى باريس (فى أغسطس) أن نابليون







كليبر وبونابرت

رسم داوود David

فى أثناء مفاوضاته مع مندوب انجلترا عرض عليه هانوڤر ثمنا لعدم تعرّض انجلترا لسياسته .

حنقت بروسيا على خطة نابليون هذه خصوصا وأن امبراطور الفرنسيين كان يعمل وقتئذ على إدخال سكسونيا وهيس فى "محالفة الرين" وتضييق الدائرة على بروسيا ونفوذها فى ألمانيا ، وقد انتشر الاستياء فى بروسيا بين النبلاء ورجال الجيش فأخذت تحشد الجند على الحدود استعدادا للطوارئ .

أحس نابليون بنوايا روسيا و بروسيا فنظم من جديد "الجيش الأكبر" وتمكن الروس والانجليز فى الوقت نفسه من حمل اسبانيا على التجنيد ضد نابليون ، فتكوّن "الائتلاف الرابع" من روسيا ، و بروسيا ، وانجلترا ، واسبانيا فى وقت كانت فيه سياسة نابليون الطامعة الفاتحة الغاشمة تتجلى فى تكوين "محالفة الرين" وتعيين أخيه يوسف مكان البوربون فى نابولى (١٨٠٦) ولويس ملكا على هولندة (١٨٠٦) واحتلال جمهورية راجوز على بحر الادرياتيك فى طريق الشرق وقضائه على استقلالها بعد تمتعها به قرونا عدّة (١٨٠٦) .

الحرب — قامت فى بروسيا حركة وطنية عامة ضد نابليون وعقدت الآمال كلها على الجيش البروسى لتحرير ألمانيا من

النير الفرنسى، وسرعان ما أرسل فردريك غليوم الثالث فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٠٦ بلاغا الى نابليون، وكان مقيما مع جيشه فى غرب ألمانيا، يهدده فيه باعلان الحرب عليه إن لم يبدأ الفرنسيون الجلاء عن ألمانيا فى اليوم الثامن من أكتوبر.

إنقض نابليون على أعدائه فدحر البروسيين فى سكسونيا ومزق نصف جيشهم فى وقعة يانا (١٤ أكتوبر)، وتمكن قائده داڤوت فى نفس اليوم من القضاء على النصف الآخر فى أورستاد، ثم أخذ الفرنسيون يطاردون فلول الجيش البروسى حتى أصبح أثرا بعد عين فدخل نابليون برلين فى ٢٧ أكتوبر وكان ملكها غادرها وأرسل الى نابليون «يستجدى الصلح» وضربت الذلة والمسكنة على وزراء بروسيا وحكامها، على أن نابليون فرض للهدنة شروطا كانت فى منتهى القسوة لم يسع الملك إلا رفضها فعوّل نابليون على متابعة الحرب لأن الانتصار على الروس كان وحده كفيلا بانهائها، وتوطيد السلم.

يمم الفرنسيون بولندة شرقا ولكن نابليون لم يشأ تكوين هذه المملكة وإعلان استقلالها تحقيقا لرغبة أحرارها لأنه كان يفكر فى التصرف فى بعض أراضيها وإخضاعها لسياسة المطامع والمساومات. تقهقر الروسيون أمامه حتى أدركهم فى إيلو (٨ فبراير سنة ١٨٠٧) فانتصر عليهم وكانت الخسائر فادحة من الجانبين.

أخذ نابليون بعد ذلك يستعدّ لحرب الربيع التى لا مناص منها فتلاقى النجدة من محالفة الرين، ومملكة إيطاليا، واسبانيا، وهولندة حتى بلغ جيشه ٣٠٠٠٠٠ ثم تعقب الروسيين فكسرهم فى فريدلند فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٧ واضطر القيصر اسكندر الى طلب الصلح .

معاهدة تلست — التقى قيصر روسيا وامبراطور فرنسا فى تلست (٢٦ يونيه) وعقدا فى ٨ يوليه معاهدة انتزعت من بروسيا هانوفر وأراضيها على الضفة الغربية من نهر الألب وما ربحته من تقسيمات بولندة السابقة وبذلك أضاع الهوهنزولرن كل ما تعبوا فى تحصيله منذ القرن السادس عشر ما عدا سيليزيا التى قبل نابليون ردّها بعد رجاء اسكندر بشرط أن تظل مفتوحة أمام جيوشه وجيوش حليفه ملك سكسونيا — كان دوقا فجعله نابليون ملكا ومنحه فى بولندة أراضى بروسيا التى تألفت منها غراندوقية وارسو — وتقرّر جلاء الجيش الفرنسى عن مقاطعات بروسيا التى ردّت اليها بشرط أن تدفع ضرائب فادحة لم يحدّد مقدارها قط، ثم أنشأ نابليون فى وستفاليا مملكة جعل أخاه جيروم ملكا عليها، واتسعت "محالفة الرين" فتألفت من جميع ممالك ألمانيا ما عدا بروسيا .

وبالجملة وضعت معاهدة تلست بروسيا تحت رحمة نابليون بعد ما قوّض أركانها ووطدت نفوذه فى ألمانيا على أطلال نفوذ الهوهنزولرن والهابسبورج .

المحالفة الروسية الفرنسية — فى نفس اليوم الذى عقدت فيه معاهدة تلست التى تضمنت شروط الصلح عقدت معاهدة تحالف سرية بين الامبراطورين أهم قواعدها :

(١) اعتراف اسكندر بجميع التغييرات التى أحدثها نابليون فى غرب أوروبا ، فى إيطاليا وألمانيا .

(٢) تعهد قيصر روسيا بالوساطة بين نابليون وانجلترا فاذا لم تقبل انحاز اليه ضدّها .

(٣) تعهد نابليون بالوساطة بينه وبين تركيا (التى دخلت الحرب ضد روسيا منذ نوفمبر سنة ١٨٠٦ بناء على تحريض نابليون) فاذا لم تقبل انحاز اليه وقسما الامبراطورية العثمانية معا ولم يتركا منها إلا الاستانة والروميللى .

وبعبارة أخرى اتفق الامبراطوران على تقسيم أوروبا والشرق وصارت أطماعهما تهدّدانهما معا ، والواقع أن معاهدة تلست التى وضحت مراميها المحالفة السرية قد انطوت على شر نظام ترتكز عليه

القوّة الغاشمة فى أوروبا ، ويهدّد السلم والطمأنينة فيها ، ولكنه من جهة أخرى سيساعد نابليون على أحكام "الحصار البرى" الذى ضربه على انجلترا فى القارة منذ عام وكان نجاح هذا الحصار رهن محالفة قوية تكفل للامبراطور الهيمنة الفعلية على القارّة .

الحصار البرّى — فهم الامبراطور أن الغلبة على انجلترا ومهاجمتها مباشرة من طريق البحر أمر عسير خصوصا بعد وقعة الطرف الأغر فعوّل على شل حركتها الصناعية والتجارية التى هى مصدر حياتها و إغلاق المين الأوروبية فى وجه الصادرات الانجليزية وبالتالى خلق أزمة مالية واجتماعية ترغم انجلترا على الصلح .

أعلن نابليون بمرسوم برلين الصادر فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٠٦ (قبل تلست) أن الجزر البريطانية فى حالة حصار وحرم دخول البضائع الانجليزية فى القارّة « توسلا الى الاستيلاء على البحر بقوّة البر » ، وقد ساعد صلح تلست وانضمام دولة كبرى كروسيا الى نابليون على احكام "الحصار البرّى" وإعلان "الحصار البحرى" فى الوقت نفسه حول انجلترا بمرسوم ميلانو الذى صدر فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٠٧ وقرّر « أن الجزر البريطانية فى حالة حصار فى البر والبحر » وأن « كل مركب تخضع للتصرفات الانجليزية أو تقصد انجلترا تفقد جنسيتها وتصير غنيمة » .

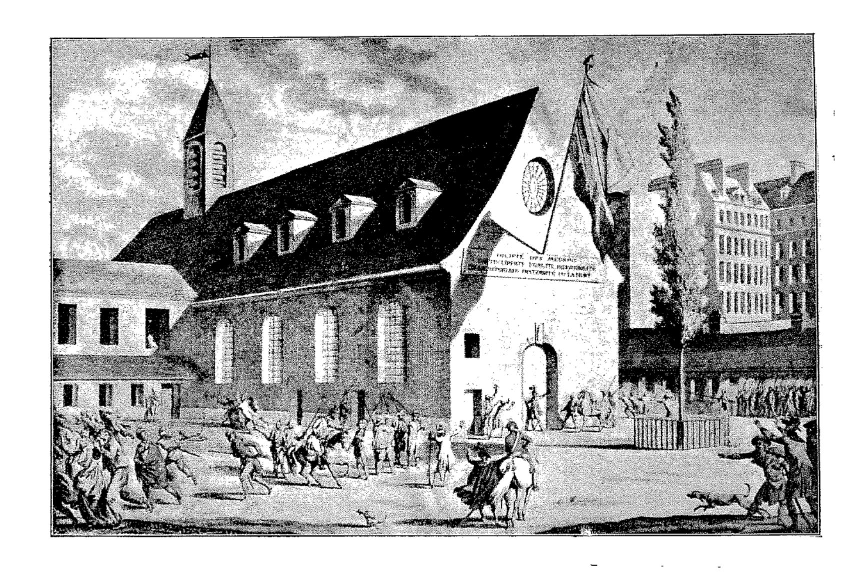
نتائج الحصار الاقتصادية والسياسية — كان حرمان فرنسا من الواردات الانجليزية والتضييق على تجارتها البحرية وحرمان صادراتها المخزونة من الانسراب فى منافذ انجلترا التجارية سببا فى إرتفاع الأسعار ونشوء أزمة اقتصادية عامة ولدت السخط على حكومة الامبراطور، وقد كانت لهذا الحصار ناحية سياسية إذ كان وسيلة وغاية فى وقت واحد : وسيلة للقضاء على نفوذ انجلترا فى البحر الأبيض بوجه خاص وتمكين نابليون من تحقيق أطماعه فى الشرق ، وغاية اضطر نابليون فى سبيل بلوغها الى اتباع سياسة التعسف فى ايطاليا ، وصقلية ، واسبانيا ، والبرتغال ، والسويد ، وألمانيا ، وغيرها من ممالك أوروبا حيث دفعته الرغبة فى احكام الحصار البرى الى الامعان فى سياسة الفتح والجبروت وإرغام معظم الممالك على الانضمام اليه طوعا أو كرها :

وقد انحازت اليه روسيا ، والنمسا ، وبروسيا ، والدانيمرقة ، وأبت السويد أن تخون المحالفة الانجليزية فحرض عليها روسيا ودفعها الى احتلال فنلندة التى كانت تابعة للسويد ، واحتل بوميرانيا السويدية (يوليه ١٨٠٧) وكان نابليون يريد أن يشغل حليفته روسيا وعدوّته انجلترا بالشمال عن الشرق ليتمكن فى الوقت نفسه من الاستعداد سرا لارسال حملة الى مصر وتركية أوروبا .

ظل نابليون يحتل بجيوشه بروسيا لأن الجلاء كان معلقا على دفع غرامة حربية باهظة لاتقل عن ١٥٠ مليون فرنك، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ فان الامبراطور ضم الى فرنسا بين سنة ١٨٠٩ و ١٨١١ هامبورج وبريم وكثيرا من البلاد البحرية الألمانية، وضم هولندة (١٨١٠) التى أبى أخوه لويس أن يخضعها للحصار البرى ويعرض رفاهيتها للبوار، وضم ولايات الكنيسة فى ايطاليا والبعض الآخر الى الامبراطورية الفرنسية لأن البابا أبى أن يخرج من الحيدة ويغلق مينه فى وجه انجلترا (١٨٠٩) واقتسم البرتغال وهى أهم أسواق انجلترا التجارية منذ القرن الثامن عشر مع اسبانيا فى سنة ١٨٠٧ لأنها أبت تنفيذ سياسة الحصار وتحقيق أطماع نابليون التى كانت تهدّد القارة كلها . وقد دفعت هذه الأطماع الامبراطور على اتباع خطة خرقاء فى اسبانيا (١٨٠٨) مهدت السبيل الى تكوين ائتلاف جديد ضدّه وسخط عام على سياسته بين وزرائه واخوته الذين لحوا من خلال أعماله الهاوية التى يجر البلاد اليها .

نابليون فى اسبانيا — احتل نابليون بجنوده البرتغال وأخذ يتحين الفرص لفتح اسبانيا والاعتداء على استقلالها وطرد البوربون منها بعد أن طردهم من نابولى مع أن بوربون اسبانيا كانوا حلفاءه ولكنه أراد أن يعين بونابرتيا مكانهم حتى تنتقل

حكومة ممالك كثيرة فى أوروبا الى أسرته وصنائعه وذويه، وقد استغل النزاع الذى حدث فى الأسرة المالكة فى اسبانيا فأرغم كارلوس الرابع على اعتزال سرير الملك ثم أقصى بالقوة ابنه فرديناند السابع عن الحكم واستقدم أخاه يوسف من نابولى حيث أحل مكانه مورات ونصبه ملكا على اسبانيا (يوليه ١٨٠٨) فقام الاسبانيون فى جميع المقاطعات قومة رجل واحد بدافع الوطنية ، وكان القساوسة يشجعونهم على القتال فانتشرت عصاباتهم فى هذه البلاد الجبلية وأفنت زهرة الجيوش الفرنسية وانهزم الفرنسيون فى الوقت نفسه أمام حملات الانجليز فى البرتغال، وعبثا حاول يوسف أن يقنع أخاه الامبراطور بالعدول عن هذه الخطة الخرقاء فان نابليون أبى أن يظل تحت تأثير الهزيمة ولكنه فكر أوّلا فى اتقاء النمسا بالاتفاق مع قيصر روسيا الذى التق به فى سبتمبر سنة ١٨٠٨ بمدينة إرفورت — التى أخذها البروسيون سنة ١٨٠٣ من أسقف ما ينسه واحتلها الفرنسيون من ١٨٠٦ لغاية ١٨١٣ — فاعترف نابليون بمقتضى اتفاق سرى للقيصر بحق امتلاك فنلندة فى الشمال والأفلاق والبغدان على الطونة جنوبا مقابل ترك نابليون حرا فى فتح اسبانيا والوعد بمساعدة الجيوش الروسية له فى حالة اعلان النمسا الحرب عليه .



اغلاق نادي اليعاقبة

كان نادى اليعاقبة في عصر الارهاب والمؤتمر الوطنى تحت سيطرة روبسبيير وصاحب النفوذ الاول في الثورة
فلما سقط المستبد قررت لجنة الامن العام وانقاذ الوطن إغلاق النادى الذى كان « مهد الثورة وقبرها »
في مساء ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٤



بونابرت على جسر الأركول

في ١٥ و١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٦ عبر بونابرت وأوجرو جسر الاركول في فينيسيا وسط نيران المتراليوز وهزما النمسويين . وقد رسم جروس Gros ١٧٧١ -(١٨٣٥) اشهر تلاميذ داوود هذه الصورة فى ميلانو بعد واقعة الاركول بايام قلائل فجاءت ادق صورة لبونابرت خصوصا وان معظم صوره اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة . في ذلك الوجه يتجلى ضياء العبقرية والعزيمة والبأس والاقدام

وكانت بغية نابليون الأساسية أن تقف روسيا الى جانبه في وجه النمسا حتى يتمكن من الاستيلاء على اسبانيا والتفرغ لتقسيم تركيا ولكن روسيا تظاهرت بمناصرته وخدعته ثم اتصلت بالنمسا سرا ، وذلك لأن إطماع نابليون جاوزت كل حد وكان من شأنها أن تصدم أطماع روسيا نفسها فى تركيا خصوصا وان تاليران وزير خارجية نابليون السابق ورفيقه فى مفاوضاته كان قد انقلب عليه مذ وقف فى أوائل سنة ١٨٠٨ على خطته الجديدة فى الشرق ومشروع تقسيم تركيا ولما كان تاليران يخشى عواقب سياسة المغامرة أطلع النمسا سرا على نوايا الامبراطور ثم دعا بعد ذلك فى ارفورت قيصر روسيا الى « انقاذ أوروبا بالوقوف فى وجه نابليون » .

ظن نابليون أن الجو خلا له فغزا اسبانيا بجيش يبلغ المائتى ألفا ودخل عاصمتها مدريد ثم أخذ يتوغل فيها وتعقب الجيش الانجليزى ولكنه أحس فى أثناء ذلك بتألب الدول عليه وحدوث ثورة فى الأستانة فعاد أدراجه فأعاد الانجليز الكرة واستمرت الحروب فى اسبانيا من غير نتيجة حاسمة .

٥

الائتلاف الخامس

حملت روسيا نابليون فى إرفورت على الجلاء عن بروسيا ومعظم مقاطعاتها فاستردت استقلالها (١٨٠٨) وكان هذا الجلاء ضروريا لطمأنينة روسيا فى فنلندة والبلطيق ، وبولندة ، والمقاطعتين الرومانيتين اللتين انتزعتهما من تركيا ، ولكنها فقدت كل أمل فى حمل نابليون على التنازل لها عن الأستانة فلم تبق لها رغبة فى انفتاح طريق الشرق أمام نابليون .

وكانت الشعوب فى ألمانيا ، وإيطاليا ، وبلجيكا ، وهولندة ، تتحرك للثورة والدفاع عن كرامتها القومية والتخلص من نابليون واستبداده .

وكانت اسبانيا والبرتغال اللتان أراد نابليون أن يهيمن منهما على مدخل البحر الأبيض والتمكن من غزو مصر وتركيا وقعتا من جديد تحت نفوذ انجلترا وفى حماها .

وكانت النمسا منذ موقعة أوسترلتز وصلح برسبورج تريد أن تثأر لكرامتها وأن لا تترك نابليون وحده ينفرد بتقسيم تركيا ، ولم يدخر الارشيدوق كارلوس مدة ثلاث سنوات (١٨٠٥ — ١٨٠٨)

وسيلة لتقوية الجيش من عدّة وعديد حتى ينقض على نابليون فى أثناء إنفاذ سياسته فى الشرق و يضطره الى حماية الادرياتيك وتوزيع جيوشه على خط رفيع مستطيل من باريس الى أتينا .

وقد عقد فرنسوا الأوّل محالفة مع الانجليز فى مارس سنة١٨٠٩ وأمدّته انجلترا بالمال ثم انضمت اليه الحكومتان الثائرتان فى أسبانيا والبرتغال فتكوّن "الائتلاف الخامس" .

ولما كانت النمسا واثقة من روسيا وعدم تعرّضها لها رغما من اتفاق إرفورت حشد الارشيدوق جيوشه باسم الوطنية والدفاع عن الامبراطورية التى يهدّد نابليون كيانها وسيرها ضد فرنسا فى بافاريا و إيطاليا وغراندوقية وارسو من غير إعلان حرب ولكن نابليون كان أخذ الحيطة منذ عودته من اسبانيا فاستدعى حرسه منها وكان يبلغ ٢٥٠٠٠ ، وجهز جيشا جديدا فى فرنسا يبلغ ١٠٠٠٠٠ ، وجند من محالفة الرين وغراندوقية وارسو ١٠٠٠٠٠ ألمانى وبولندى فكان مجموع جيوشه ٤٠٠٠٠٠ أرسل منها ١٠٠٠٠٠ فى إيطاليا واستبقى تحت قيادته ٣٠٠٠٠٠ لمحاربة النمسا فى ألمانيا ووادى الطونة .

انقض الامبراطور على النمسويين فى باڤاريا فاكتسحهم فى خمسة أيام (أبريل ١٨٠٩) واتجه الى ڤينا لحاربهم فى نواحيها

شهرين حتى دحرهم فى موقعة واغرام الهائلة (٦ يوليه) واضطرهم الى الانسحاب وطلب الهدنة .

صلح ڤينا — تهادن الفريقان واضطرت النمسا الى الصلح إذ هزم جيشها وخاب أملها فى ألمانيا التى لم تثر على نابليون وتردّدت بروسيا فى المغامرة بجيشها ضدّه، وقد تنازلت النمسا فى معاهدة ڤينا (أكتوبر ١٨٠٩) عن جاليسيا لغراندوقية وارسو، وسالزبورج لباڤاريا ، ومقاطعاتها البحرية على الادرياتيك لنابليون الذى ضمها الى الامبراطورية الفرنسية وألف منها ومن دالماسيا وإستريا مقاطعات مستقلة عن مملكة إيطاليا فى طريق الشرق تقرّبه من غايته .

وقد خسرت النمسا فى هذه المعاهدة من رعاياها نحو الأربعة ملايين أو سدس سكان ولاياتها وبلغ نابليون منتهى عظمته فامتدّت سلطنته من مصاب الألب الى مصاب التبر على ١٣٠ مقاطعة فى إيطاليا، وفرنسا، وسويسرا، ولوكسمبورج، وبلچيكا، وهولندة، وبروسيا الرينية، وبلاد ألمانيا الواقعة على بحر الشمال لغاية نهر الألب، وما بعد الادرياتيك فى مدخل شبه جزيرة البلقان فى نواحى البوسنه والجبل الاسود .

وكان نابليون ملك إيطاليا ، ووسيط المحالفة السويسرية ،

وحامى محالفة الرين التى كان ملوكها جميعا يدينـون له بتيجانهم . وكان أخوه يوسف ملك اسبانيا ، وأخوه چيروم ملك وستفاليا ، ونسيبه مورات ملك نابولى ، وكان الملوك والقياصرة حلفاؤه طوعا أو كرها لا ينـازعه منهم فى الملك والسـلطان أحد مدّة عامين (١٨٠٩ — ١٨١١) هيمن فى أثنائهما على أوروبا ، وقد طلق امرأته چوزفين بسبب عقمها وتزوّج مارى لويز ابنـة امبراطور النمسا فرزق منها فى ٢٠ مارس سنة ١٨١١ غلاما لقب "ملك رومة" وهو فى المهد .

ولكن هـذا الملك الواسع لم يكن متماسك البنيان وكان يهدّد بالسقوط من الداخل والخارج : ففى الداخل كان أعوان الامبراطور وعلى رأسهم تاليران وفوشيه وأقرب أقربائه ساخطين على سياسـة الجبروت والتوغل فى الفتح فيما وراء الحدود الطبيعية ، وكان الأحرار يشكون من حكومته الطاغيـة المستبدة ، وفى الخارج كانت الثورة الفرنسية وحروبه المختلفة أحدثت هزة عامة تمخضت عن تكوين الروح القومية فى البـلاد التى أنزلها على حكمه فكان سكونها سكون المتحفز الذى يعدّ العـدّة وينظم قوّته لطرد الغاصب ، بينما كانت الدول الكبرى تجمـع أمرها وتدبر الضربة القاضية التى تزيح عن أوروبا سطوة الامبراطور العاتى .

الفصل الثالث

انحطاط الامبراطورية

كانت الثورة الاسبانية نذيرا بانحطاط الامبراطورية الفرنسية التى كان سنادها الرهبة والاستبداد، وكانت هذه الثورة بدء الحركات القومية الكبرى الحديثة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الأجنبي، وقد أعقبتها حركة كبرى فى بروسيا سنة ١٨١٣ ضد نابليون كانت من العوامل التى ساعدت على إسقاطه .

ولا ريب أن الحركة البروسية والحركة الايطالية هما أجل حركتين وطنيتين ظهرتا فى التاريخ الحديث، استمدت كلتاهما قوتها من الحركة الفكرية الواسعة، والرؤوس المدبرة، والجيش المنظم .

١

الحركة الاستقلالية فى بروسيا

كان انتصار نابليون فى يانا وأورستاد (١٤ أكتوبر ١٨٠٦) وانحلال جيشها ومعاهدة تلست إيذانا بضياع استقلال بروسيا الفعلى

وهيمنة نابليون على ألمانيا ، ولما كانت بروسيا أكبر ولاية ألمانية مستقلة ، ولو اسما ، صارت قبلة الأحرار والبروتستانت فى ألمانيا كما كانت النمسا قبلة الكاثوليك فيها فأمها الكثيرون منهم والتفوا حول لوائها لأنهم أيقنوا أن عظمة ألمانيا متوقفة على تحرير بروسيا وتوطيد سلطانها .

كان أغلب زعماء الحزب الوطنى فى بروسيا من الألمان الذين نزحوا اليها فاستوطنوا فيها : وفد هاردنبرج وشارنهورست من هانوفر ، وستاين من ناسو ، وجنايزناو من سكسونيا ... فكانت بروسيا محور العظمة الألمانية منذ فردريك الثانى واليها اتجهت آمال الألمان منذ انكشفت نوايا نابليون بعد تلست .

النهضة ومميزاتها ــ كانت بروسيا تفهم جيدا أنها مهما أعدّت من قوة لا يمكنها وحدها أن تتغلب على نابليون ولكنها كانت تعلم جيدا أن تغير الحالة العامّة فى أوروبا لا مناص منه فكان يجب عليها أن تأخذ أهبتها حتى تستفيد من الظروف الطارئة .

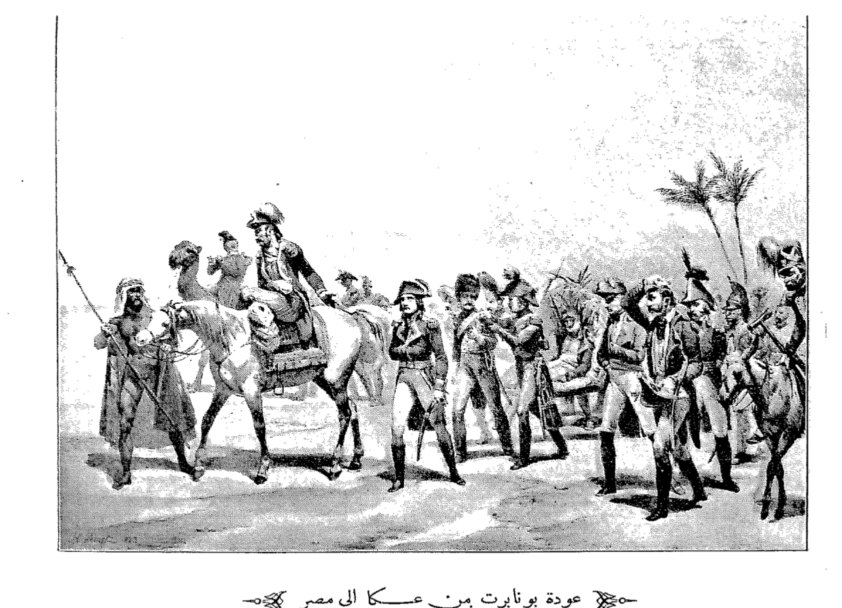
كان هذا رأى الوطنيين وهم الحزب الغالب الذى يعمل على النهوض ببروسيا ونشر الاصلاحات فيها تمهيدا للثورة ضدّ الغاصب وكانت الملكة لويز تشجع هذه الحركة الاصلاحية بينما كان الملك

كثير التردّد والتأثر بآراء الرجعيين من الأشراف الذين كانوا يخشون عواقب الاصلاحات والثورة على امتيازاتهم وكان من رأيهم الخضوع للحكم الفرنسى والاندماج فى "محالفة الرين" .

كان رؤساء الاصلاح بعد يانا ستاين وشارنهوست وجنايزناو، وقد كان الأوّل وزير مالية قبل يانا ولكن خطته لم ترق أولى الأمر فأقصي عن حكومة الدولة حتى أشار نابليون على فردريك غليوم بارجاعه ، وفى الوقت نفسه دعى الضابط شارنهورست لتنظيم الجيش البروسى وكان جنايزناو من أكبر أعوانه .

كان ستاين رئيس وزارة الثورة وكان هو وأعوانه يفهمون أنه يجب أن يمهد للثورة بالاصلاحات العملية فى الجيش والادارة، وان الاصلاحات العسكرية التى ترمى الى تأليف جيش وطنى يحرّر البلاد لا بدّ أن تستند الى اصلاحات اجتماعية عامّة .

كان الجيش البروسى قبل تدهوره فى يانا يتألف نصفه من الجنود المرتزقة وكان نظام الجندية قاسيا للغاية ، وكان الأشراف مستأثرين بجميع وظائف الجيش الرئيسية، ولهم عدا ذلك حقوق وامتيازات كثيرة منها ملكية الاراضى والمعافاة من الخدمة العسكرية واستخدام الفلاحين فى السخرة وأعمالهم الشخصية، وبالجملة كانت مساوئ النظام الاقطاعى فى بروسيا تعوق كل تقدّم حقيقى فى البلاد.



عودة بونابرت من عكا الى مصر

كانت عودة شاقة في الصحراء وقعت الجنود فيها فريسة الآلام والامراض وكادت ترفع لواء العصيان فحمل بونابرت فرسانه على الترجل وترك جميع خيله لحمل الجرحى وسار هو على رأس جيشه وسط رمال الصحراء المحرقة التى تذروها الرياح فملأت بطولته النفوس املا وشجاعة . هذا الرسم تصوير هوراس فرنيه Horace Vernet (١٧٥٨ — ١٨٣٦)

وقد استمدّ المصلحون وحيهم الأول من الثورة الفرنسية لأن الثورة أثبتت لأوّل مرة قوّة "الأمة المسلحة" أو فعل القوى الأدبية فى الانتصارات العسكرية ، فكان ستاين يفكر فى إعداد الجماهير أو الشعب للثورة والحرب ضدّ الغاصب ويرى ضرورة اشتراك جميع طبقات الأمة فى ادارة الشؤون العامة وتكوين روح الجماعة فيها وبذر الأفكار الثورية حتى يتعلم كل فرد كيف تنظم وتساس الحركات القومية .

وكان فون درجولتز يقول : « إن استعمال جميع القوى الأدبية والمادية فى أمة كفيل بعظمتها وإنهاضها اذا أصابها ضعف أو خور » .

وكان شارنهورست يعمل على تدبير ثورة وطنية ضدّ الحكم الفرنسى ، كتب فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٠٧ : « يجب أن يغرس فى الأمة الشعور باستقلالها ، وأن تكسر النظم القديمة الضيقة وأن يترك عمل النهضة حرا فى نموّه وتطوّره » .

وكان جنايزناو فى سنة ١٨٠٧ يقول : « إن السبب فى بلوغ فرانسا هذه الدرجة من المنعة والسلطان هو أن الثورة نبهت جميع القوى الاجتماعية ، وما أكثر القوى الكامنة فى حياة الأمم ! وكم فى نفوس آلاف الرجال من عبقرية ومواهب تخمدها الظروف

الخارجية وتمنعها من الظهور ! وقد حركت الثورة الفرنسية عند الشعب الفرنسى القوّة القومية بحذافيرها ... فيجب أن نسير على مثالها وأن نوجه القوّة الوطنية فى تمامها ضدّ القوى الأجنبية الغاصبة » .

كان جميع أولئك الزعماء متفقين فى الخطة والغاية يعملون فى الخفاء ولا يتردّدون، عند الضرورة، فى سبيل تحقيق أغراضهم الوطنية، فى التظاهر بخدمة المحتل وقبول شروطه حتى اليوم الذى يتمكنون فيه من خيانته وإظهار العدّة الكبرى التى أعدّت فى صمت لليوم المشهود .

كانت بروسيا فى القرن الثامن عشر من دول الطبقة الأولى ولكنها فقدت فى سنة ١٨٠٧ ولاياتها البولندية والوستفالية وصارت من دول الطبقة الثانية يحتلها نابليون بجيوشه ويبتز منها المال بكل الوسائل ولم يعين مقدار دينها الفادح إلا فى اتفاقية باريس (٨ سبتمبر ١٨٠٨) وتقرّر بقاء الاحتلال حتى ينتهى سداد الدين وأن لا يزيد عدد الجيش البروسى على ٤٢٠٠٠ رجل ، وقد ظل فى الواقع الاحتلال الأجنبى فى بروسيا لغاية سنة ١٨١٣ وكان نابليون يفاخر بأنه ابتز منها مليارا فقاسى أهلها أشدّ أنواع البؤس والضنك وعانوا غطرسة الجنود الأجنبية وتدخل السلطات الفرنسية فى حكومة البلاد وإدارتها، وكان لا يمكن للبروسيين أن يسلموا بأن وطن

فردريك الثانى والفيلسوف كانت والشاعرين جوت وشيلر يعيش فى ذل الاحتلال الأجنبى .

الاصلاح الاجتماعى — كانت الوطنية الألمانية فى عصرها الأوّل تمثل فى ستاين وحركته التى كانت خيالية أكثرمنها عملية ، ولقد كان ذلك الوزير بعيد الهمة شديد الجرأة والاقدام يظن فى مقدوره إحداث ثورة عاجلة فى البلاد ناسيا أن الوطنى المستنير لا يمكن تكوينة فى عام أو عامين وانه لا بدّ أن يحسب حساب للحقائق الراهنة، والتقاليد القديمة، والقوى الرجعية الممثلة فى الأشراف وأصحاب الامتيازات فانها كلها كانت تحول دون إجراء أى إصلاح شامل بعيد الأثر فى حياة البلاد الاجتماعية والادارية .

كان ستاين يريد تعويد البلاد الحكم الذاتى وإشراك السواد الأعظم من الشعب فى الحياة العامة لأن الشعب سناد كل حركة قوية فعمل على ترقيته وتحرير الفلاحين من استبداد الاشراف الاجتماعى والسياسى، ونشر المساواة، وتقرير حق ملكية الأراضى للفلاحين الذين كانوا عبيدا للأشراف أو مؤجرين لاملاكا حتى يتمكن من إزالة جميع العوامل التى تعرقل حركة النماء والرفاهية وتقضى على الروح العامّة .

فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ أصدر الملك مرسوما بإلغاء علاقة التبعية الوراثية التى كانت بين الفلاحين والأشراف وتحرير الملكية العقارية من جميع القيود القانونية التى كانت تحرم ملتزميها من حرية التصرف فيها فصارت ٤٧٠٠٠ أسرة فى أراضى الحكومة تمتع بالملكية، أما باقى الأسر فى البلاد فقد منعها الأشراف بذرائع مختلفة من التمتع بحقها .

وفى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ صدر قانون الادارة المركزية الذى لا يزال قاعدة نظام الحكومة البروسية الى اليوم، وحسب هذا القانون انه وطد وحدة المملكة بانشاء وزارة تحل محل الحكومة الشخصية فى إدارة البلاد وبالغاء الوزراء فى المقاطعات ، والقضاء على امتيازات المقاطعات المختلفة ، وتبسيط التقسيم الادارى القديم وإصلاحه . وكان ستاين يفكر فى إنشاء مجالس مديريات وجمعية عمومية ولكن هذه الفكرة لم تتحقق إلا بعد خمسين عاما بسبب معارضة الملكية فى الاصلاح النيابى .

كان ستاين وأعوانه من المصلحين الذين على مذهب كانت من رأيهم ، استغلال جميع القوى المادية بتحطيم القيود الاقطاعية التى كانت تختنق فيها، وجميع القوى الفكرية بانشاء جامعة ونشر التعليم ، وكانت غايتهم من قانون ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ الخاص

"بحرية التصرف فى الملكية" تحرير القوى الفردية التى تدفع الانسان الى السعى وراء الرفاهية والعيشة الراضية .

وقد رأس ستاين الوزارة فى سنة ١٨٠٨ وعهد الى شارنهورست باصلاح الجيش وكان انتصار الاسبان فى ذلك الوقت على نابليون يدفعه الى التفكير فى الانتقاض عليه ولكن البوليس السرى الفرنسى تمكن من الوقوف على خطته فحتم نابليون فى الحال إخراجه من الوزارة (٢٤ نوفمبر) وإلقاء القبض عليه فهرب فى النمسا فروسيا، وقد ظل النظام الإدارى والسياسى والعسكرى الذى أوجده ينمو فى الخفاء بعده .

الاصلاح العسكرى — كان شارنهورست فى مقدّمة المصلحين العسكريين الذين فهموا سر انتصارات فرنسا فى الثورة فكان يرى ضرورة تكوين الجيش البروسى على نمط جديد وبث روح معنوية فيه تدفعه الى الاتيان بعظائم الأمور وتحرّر البلاد خصوصا بعد ما ثبت فساد النظام الآلى الذى يستند الى الرهبة والجبروت والقواعد العتيقة .

كان يريد أن يكون الجيش والأمة سواء وذلك بتعمم الخدمة الإجبارية ، وتنوير الشعب ، وإلغاء الامتيازات التى تضعف القوى المعنوية وتقضى على روح الألفة والاخاء بين الطبقات

والأفراد ، ولذلك كان شارنهورست من أكبر أنصار ستاين وقد شاركه فى مجهوده السياسى والاجتماعى لأنه كان يعلم أن الوطنية الحقة نتيجة التحرير الاجتماعى وانها العامل الأوّل فى انتصار جيوش الثورة .

وقد عوّل شارنهورست على تحقيق خطته الاصلاحية بعد رحيل ستاين ، وكان هاردنبرج خلف ستاين من المعتدلين الذين يعملون على تجنب كل المظاهر التى من شأنها اثارة الفرنسيين والنداءات الى الأمة التى كان ستاين يقترح على الملك اصدارها . ولكن فى عهده اشتدّ ساعد الحزب الرجعى وكان شارنهورست ممثل الحزب الوطنى فى الوزارة يشكو من اعتراض الملك على الكثير من اصلاحاته النافعة كالخدمة الاجبارية التى وضع مشروعها فى سنة ١٨٠٨ ، وكان يتحمل فى سبيل نجاح خطته بعض الاهانات والعمل مع خصومه الذين يعينهم الملك .

كانت الجندية بغيضة الى الجميع ، أقرب الى المهنة منها الى الواجب الوطنى يقوم نظامها على أحكام قاسية ، ولم يكن فى بروسيا بعد تيلست خيول ولامدافع ولابنادق فكانت خطة شارنهورست تسليح الرجال بالحراب فى حالة حرب عاجلة والاشتغال فى الوقت نفسه باحداث اصلاحات عسكرية اجتماعية واسعة تثمر بعد زمن .

وقد عمل فى ساعات اليأس (١٨٠٩ و ١٨١٠) عملا خارقا فى وزارة الحربية فأنشأ مدرسة حربية لتعليم الفنون العسكرية الراقية وتخريج الضباط، وجعل تعيين الضباط يتوقف على امتحان مسابقة يدخله الجميع من أى طبقة كانوا، وخفف من قسوة النظام العسكرى، وألغى نظام الجنود المرتزقة .

ولكن عمله الذى يدل على الوطنية العالية التى تعمل فى الخفاء لطرد المحتل وتخليص البلاد من جوره واهاناته وتصرفه فى البلاد تصرف المالك المستبد هو الاحتيال فى تكوين جيش ضخم رغما من معارضة الملك وحزبه فى الخدمة الاجبارية ورغما من مراقبة المحتلين وعيونهم المبثوثة فى كل مكان .

نصت اتفاقية سبتمبر التى عقدت بين بروسيا ونابليون فى باريس (سنة ١٨٠٨) على جلاء الجنود الفرنسية عن بعض ولايات بروسيا ولكنها حتمت عليها أن لا يزيد عدد جيشها على ٤٢٠٠٠ جندى .

قرر شارنهورست بقاء العدد المعين لكل فرقة من الجيش كما هو ولكنه جعل يدمج فى كل فرقة تحت السلاح نفرا معينا من الاقليم التابعة له يتعلمون أهم التمرينات العسكرية فى مدة شهر ثم يحل محلهم غيرهم، وبهذه الطريقة كانت الفرقة التى لايزيد

عددها عن ٥٥٠٠ تحت السلاح يمكنها أن تضم اليها بعد مضى ثلاث سنوات ٢٥٠٠٠ جندى جديد تلقوا فيها مبادئ التعليم العسكرى .

وكان هذا العدد الاضافى المستترهو الذى مكن بروسيا فى بداية سنة ١٨١٣ من مفاجأة نابليون بجيش لا يقل عن ٣٥٠٠٠٠

جامعة برلين — لا يزال البروسيون الى اليوم يفاخرون بأنهم فهموا فى ساعة المحنة والاضمحلال الصلة التى تربط مصير الأمة السياسى برقيها الأدبى والاجتماعى، وقد حلت محل فلسفة القرن الثامن عشر الخيالية فلسفة عملية تقرن الفكرة بالعمل وتجعل منهما وحدة لا تتجزأ .

روى ارنست لاڤيس فى كتابه عن بروسيا أن الدكتور شمالتز الأستاذ بجامعة هال التى الغاها نابليون بعد يانا قصد ملك بروسيا وكان كلاهما طريدا فعرض عليه نقل جامعة هال الى برلين ولكن مدينة هال كانت ضمت مع دوقية مجد بورج الى مملكة وستفاليا التى كان يحكمها جيروم بونابرت فوعد فردريك غليوم محدثه بانشاء جامعة جديدة فى برلين «لأن الدولة ، فى رأيه ، يجب أن تجد فى القوى الأدبية عوضا عما فقدته من القوى المادية» .

وكان الكثيرون من الألمان بعد يانا يرون أن انشاء جامعة وطنية من عوامل انهاض بروسيا بعد تجزئتها واذلالها حتى تزيد

التربية من قوة المقاومة فى النفوس الألمانية ضد الظلم الأجنبي، وكان الفلاسفة الألمان يعتبرون الهزيمة والاحتلال عارضا من العوارض لأن هناك قوة لا يصل اليها نابليون : تلك قوة الايمان والعلم التى يجب تعهدها بنشر التربية والآداب القومية بين طبقات الشعب .

وكان ستاين يقول فى سنة ١٨٠٨ : « يجب أن نعوّل قبل كل شيء على تربية النشأ وتهذيبه، فان اليوم الذى نكون قد تمكنا فيه من ترقية القوى الأدبية بطريقة مبنية على طبيعة الرجل الباطنة ونشرنا المبادئ التى تتزن بها الحياة، وتعهدنا بعناية واهتمام حب الله، وحب الملك، وحب الوطن، فذلك هو اليوم الذى يبدو فيه جيل جديد يعتز بقوّته العقلية والبدنية و يلوح المستقبل المأمول » .

أنشئت الجامعة بين ١٨٠٨ و ١٨١٠ وقد عين فيها فى بدايتها أربعة أساتذة كان بينهم الفيلسوف فيشت أوّل مدير لها، بدأ فيشت محاضراته "بخطبه الشهيرة الى الأمة الألمانية" وازن فيها بين العبقرية الألمانية والروح اللاتينية وأثنى على جهود الشعب الألمانى وقدرته على العمل وما أداه للانسانية من خدمات بانقاذ المسيحية من الأغلال الكاثوليكية وتذكير العالم بحرية الفكر الفلسفية التى نسيها منذ القدم، وأعلن فيشت أن الطريقة الوحيدة لاسترداد عظمة الشعب الألمانى هى التربية أو « فن تكوين

الارادة عنــد الرجل وتحصينها »، و بينما كان فيشت يخطب كان يسمع قرع الطبول الفرنسية فى الشوارع .

على أن الجامعة لم يتم بناء نظامها ولم يوجد بها العدد الكافى من الأساتذة إلا فى سنة ١٨١٠ بفضل مجهودات الفيلسوف هامبولدت تلميــذ كانت وصــديق جوت وشيلر ووزير المعارف العموميــة فى سنتى ١٨٠٩ و ١٨١٠ ، وقد سعى ذلك الوزير العامل فى اختيار العلماء القادرين من الألمــان وآجتذابهم بكل الوسائل وكان كثيرا ما يختار للمــادّة الواحدة أساتذة مختلفين فى المذهب والرأى حتى « لا يستغل كل واحد منهم العلم فى هدوء كما تستغل المهنة » .

وقد لعبت الجامعة دورا كبيرا فى حركة ســنة ١٨١٣ القومية بفضل الروح الوطنية التى كان يبثها العلمــاء فى دروسهم وابحاثهم، فما كادت الجنود الفرنسية تلقى الهزيمة فى مجاهل روسيا حتى انتقض عليهم البروسيون، كما سنبينه بعد، وكان الطلبة أوّل من لبى داعى الوطنية ، وقد كتب أحدهم الى زميــل له : « ضع ثقتك فى الله وآعلم أن فناء الفرد يتوقف عليه بقاء المجموع ... اننا نريد أن نموت فداء الوطن » وقد صارت برلين منذ ذلك الوقت حاضرة الألمــان العلميــة وكانت تعاليم هيجل بعــد تعاليم كانت من أكبر عوامل النهضة الألمــانية فى القرن التاسع عشر .

٢

الحرب فى روسيا

ان حرب روسيا (١٨١٢ — ١٨١٣) تمثل فى أكمل صورة سياسة المغامرة التى جرى عليها نابليون وكان تاليران يتوقع من جرائها نكبة عاجلة ، والواقع أن المحالفة بين اسكندر ونابليون كانت محالفة غير طبيعية لأن أطماعهما الواسعة كانت متعارضة اذ وسعت اطماع نابليون أوروبا والشرق ، وقد نجح قيصر روسيا فى انتزاع فنلندة من السويد فى تيلست ووضع اليد على البغدان والأفلاق فى ارفورت وبسط حدود روسيا الى الطونة جنوبا ، ولكن اسكندر لم يحقق غرضه الأساسى من المحالفة وهو الاستيلاء على الاستانة جنوبا ووارسو غربا لأن نابليون كون بعد تيلست غراندوقية وارسو فأصبحت سدا فى وجه روسيا ، وأبى صراحة سنة ١٨٠٩ أن يترك الروس يهيمنون على الاستانة والبوسفور .

وكان النبلاء الروسيون وعلى رأسهم أم القيصر نفسها ينددون بالمحالفة الروسية الفرنسية لأن فرنسا بلد الثورة التى حررت الفلاحين وهدمت الامتيازات والنظم القديمة فى حين أن أولئك النبلاء كانوا يتخذون الفلاحين عبيدا لهم وكانوا ينفرون من المساواة .

وفوق ذلك فان الحصار البرى قضى على تجارة الغلال والأخشاب التى كانت تستوردها انجلترا ويجد فيها أولئك النبلاء موردا من أكبر موارد الثروة والايراد .

أخذ اسكندر منذ أواسط سنة ١٨١٠ يعد العدة لمفاجأة نابليون بجيشه فى بولندة ويفاوض انجلترا فى عقد محالفة ، ثم سمح فى أواخر ١٨١٠ لبعض البضائع الانجليزية بالدخول فى روسيا وفرض الضرائب الفادحة على الحرير والنبيذ والبرونز وجميع البضائع التى كانت فرنسا تنفرد بتوريدها إلى روسيا فآلمت هذه الضربة فرنسا لأن الأزمة الصناعية كانت فى أشدّها فيها بسبب الحصار البرى . ومن ثم بدأت العلائق تتوتر بين البلادين حتى أعلنت روسيا الحرب على فرنسا فى سنة ١٨١٢

الائتلاف السادس — كانت انجلترا واسبانيا فى حرب مستمرة مع فرانسا ، وقد تمكنت روسيا من التحالف مع السويد بوعدها بالنرويج عوضا عن فنلندة فتكوّن الائتلاف السادس ، وبقيت النمسا وبروسيا حليفتين لنابليون فى الظاهر حتى رجحت كفة اعدائه فانضمتا إلى الائتلاف (١٨١٣) فأصبح ائتلاف أوربا عاما أدال دولة نابليون فى سنة ١٨١٤

كون نابليون فى المقـدّمة جيشا ضخما من ٣٠٠٠٠٠ جندى كان نصفهم من الأجانب — وفيهم بروسيون ونمسويون — وكان الامبراطور يتوهم أنه سيتمكن من دحر أعدائه عاجلا كما أتيح له فى حروبه السابقة ، ولكن الروس نجحوا هـذه المرة فى جره فى مجاهلهم الواسعة فكانوا يتقهقرون أمامه دون أن يمكنوه من الاشتباك معهم فى موقعة حاسمة حتى امتد ميدان القتال الى موسقو، وهناك حاربوه فانتصر عليهم ولم يتمكنوا من انقاذ المدينـة المقدّسة فأحرقوها حتى إذا دخلها وجدها خرابا (٢ سبتمبر سنة ١٨١٢). وكان لابد له أن يتوغل فى تلك الأرجاء البعيـدة التى تعاديه أهلها وطبيعتها حتى يلحق بالجيش الروسى ويدمره تدميرا ويرغمـه على الصلح ولكن حال دون ذلك أهوال الشتاء القادم ونفاد الزاد والعدة. فلم يسعه إلا الرجوع أدراجه (أكتوبر سنة ١٨١٢) .

ولم يبق من جيشه فى أثنـاء رجوعه إلا ١٠٠٠٠٠ صاروا فريسة الثلوج والبرد والجوع والجند المتعقب، ولم ينج نابليون من الروسـيين إلا بكل مشقة بعـد أن مزقت جيوشه كل ممزق ولم يتمكن من عبور نهر النيامن فى ١٢ ديسمبر سنه ١٨١٢ إلا ١٨٠٠٠ جندى كانوا البقية الباقية .

انضمام بروسـيا — كانت الحرب قد انهكت الجيوش الروسية وكان اسكندر يتردد فى مداومتها ولكن قواد بروسيا وزعماء

الحركة الوطنية فيها حملوا الملك على اهتبال الفرصة ونقض المحالفة المزرية بالشرف الألمانى ، وكان ستاين يدعو الى التطوع فى الجيش النبلاء والكتاب والمحامين والأساتذة والطلبة وجميع الوطنيين المستنيرين الذين تأثروا بالحركة الفكرية فلبوا دعوته سراعا ودفعت الحركة فردريك غليوم الى التحالف مع روسيا وإصدار « نداء الى الشعب » يؤذن بالدخول فى الحرب ضد فرنسا وتعميم الخدمة الاجبارية (١٧ مارس) .

عاد نابليون الى فرنسا فى أثناء ذلك وتمكن بقوة العزيمة والتدبير من تأليف جيش جديد ومهاجمة الروسيين والبروسيين معا فى أبريل سنة ١٨١٣ والانتصار عليهم فى ألمانيا ودخول برسلاو فى الجنوب الشرقى من برلين ، وقد أحس الحلفاء عندئذ انهم بحاجة الى مساعدة النمسا للتغلب على نابليون ولكن النمسا كانت لا تزال تتأهب للحرب فطلبوا هدنة ، وعرض مستشار النمسا مترنخ التوسط فى الصلح رغبة منه فى اكتساب بضعة أسابيع فتقرر عقد مؤتمر فى مدينة براغ لوضع شروط الصلح .

اجتمع المؤتمر فى يوليه وأغسطس سنة ١٨١٣ فعرض مترنخ على نابليون ايطاليا وارجاع حدود فرنسا الى الرين علما منه أن نابليون ستحمله أطماعه على رفض هذا الاقتراح وعلى ذلك يكون

مسؤولا أمام شعبه عن تعنته واستمراره فى الحرب، ولم يكن هذا المؤتمر فى الواقع الا رواية هزلية مثلها مترنخ .

وفعلا رفض نابليون الصلح على هذه القاعدة فبادر مترنخ باعلان انتهاء المؤتمر واعلان الحرب وكان فى هذه الآونة أتم تجييش جيوشه (أغسطس) ، فاجتمع هذه المرة خصوم نابليون انجلترا ، وروسيا، وأسبانيا، وبروسيا، والنمسا، والسويد فى حرب طاحنة "حرب الأمم" فى ليبزك حيث انفصل عنه السكسونيون وانضموا الى أعدائه فدارت عليه الدائرة (١٦ — ١٨ أكتوبر ١٨١٣) فعجل بالرجوع الى فرنسا وسحق جيش باڤاريا الذى كان يريد أن يقطع الطريق عليه ، وقد انحازت المانيا الى الحلفاء وكانت الحرب، كما يسميها المؤرخون الألمان، " انتقام الشعوب " .

حدثت مفاوضات جديدة من غير طائل فى فرانكفورت فغزا الحلفاء فرنسا من كل جانب وعبثا حاول نابليون صد جموعهم ، وكان الملكيون وأنصار الحرية فى فرنسا يرحبون بهم ويقابلونهم مقابلة المنقذين والأعوان فما وصلوا باريس حتى سلمت فى اثنتى عشرة ساعة (٣٠ مارس سنة ١٨١٤) وأقنع تاليران القيصر اسكندر الذى دخل باريس مع جيوش الحلفاء بضرورة إرجاع

أسرة البوربون واقصاء نابليون وذريته عن العرش حرصا على طمأنينة أوروبا وسلامتها .

وعلى ذلك تألفت فى أوّل أبريل حكومة مؤقتة وقرّر مجلس الشيوخ الفرنسى فى ٣ أبريل خلع نابليون «الذى اعتدى على حقوق الشعب بجنـد الرجال وفرض الضرائب بطريقـة مخالفة للدّستور والقانون» فلم ير الامبراطور بدّا من التنازل عن العرش (٦ أبريل)، وأرسل مصحوبا بحرس الى جزيرة الألبا التى كان ضمها الى فرنسا فاستوطن فيها من ٣ مايو سـنة ١٨١٤ الى ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥

معاهدة باريس الأولى ونتائجها (٣٠ مايو) — ردّت تخوم فرانسا الى ما كانت عليه سـنة ١٧٩٢ ولم تستبق إلا سافواى وأڤنيون وتقرّر الجلاء عن البلاد وقبلت الحكومة الفرنسية ترك ٥٣ مدينة محصنة بما فيها من عدّة وذخيرة فى ألمـانيا وايطاليا وبلچيكا وكانت تقدّر قيمة هـذه العدد من مراكب (فى المين) ومدافع وأسلحة بما لا يقل عن مليار ونصف فرنك .

واحتفظ الانجليز بجزيرة مالطة وبعض مستعمرات فرانسا ، وضمت بلچيكا الى هولنـدة لتتألف منها "الاراضى المنخفضة" وتقرر ضم فينيسيا ولومبارديا الى النمسا ، أما باقى الاراضى التى تركتها

فرنسا فقد عهد الى الدول بتوزيعها بعد شهرين فى مؤتمر يعقد فى ڤينا لتسوية جميع مسائل الصلح .

بدأ الفرنسيون يحسون نتائج الهزيمة ووقعها المر فنظروا نظرة احتقار الى الملك الجديد لويس الثامن عشر الذى ارتقى العرش بارادة أعداء البلاد .

ومما ضاعف السخط سوء تصرف الملك فان البوربون كانوا يحيون أشكال الملكية القديمة التى نقضتها الثورة فأنكر لويس الثامن عشر سيادة الأمة وادّعى أنه ملك «بفضل الله» وأبى أن يقبل الدستور الذى أعدّه مجلس الشيوخ وفضل أن «يمنح» مكانه لائحة دستورية (charte) ، ثم أحال الى الاستيداع ٢٢٠٠٠ ضابط وأخذ يعين فى الجيش الضباط المهاجرين، ويحارب رجال ونظم الثورة والامبراطورية معا بكل الوسائل فأخذ الفرنسيون من جديد يعطفون على نابليون وتناسوا وسط الاهانات المتتابعة سياسته الغاشمة .

المائة يوم وموقعة واترلو — وقف نابليون على ميول الشعب والجيش فتسلل من مراقبة الأسطول البريطانى ونزل على ساحل البروفانس الجنوبى ومعه ١١٠٠ رجل فى أول مارس سنة ١٨١٥ فانضم اليه بعض القوّاد والفرق التى أرسلت لمقاتلته ودخل باريس فى ٢٠ مارس فهرب لويس الثامن عشر الى بلچيكا :

وقد حاول نابليون أن يكسب الأحرار من رجال الطبقة المتوسطة فأصدر اللائحة الاضافية الى دساتير الامبراطورية وضمنها أهم قواعد الدستور الذى منحه لويس الثامن عشر .

ولكن الحرب كانت مسألة المسائل لأن نابليون أعلن على ملأ العالم قبول معاهدة باريس ورغبته الأكيدة فى المحافظة على السلم والتمتع بخيراته ولكن الحلفاء الذى كانوا مجتمعين وقتئذ فى مؤتمر فينا أبوا أن يعترفوا به واعتبروه خارجا على القانون فكانت الحرب أمرا محتوما .

جهز نابليون جيشا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل انتقض بهم عاجلا على بلجيكا وكان بها جيش انجليزى بقيادة ولنجتون وجيش بروسى بقيادة بلوخر فقهر البروسيين فى لينى (١٥ يونيه سنة ١٨١٥) ثم التقى بالانجليز والبلجيكين والهانوفريين فى واترلو (١٨ يونيه)، وكان نابليون ترك قائده غروشى لمراقبة بلوخر ولكن القائد البروسى خدع القائد الفرنسى ووصل الى ميدان القتال فحمل على عساكر نابليون وهى منهوكة القوى فتم النصر للحلفاء .

استقال نابليون ثانية على أن يخلفه ابنه (٢٢ يونيو) ولكن الحلفاء دخلوا باريس ثانية وأعادوا لويس الثامن عشر الى عرشه، وقد لجأ نابليون الى انجلترا فعدّته أسير حرب ونفته فى جزيرة



نلسون — تصوير أبوت (Abbott) ١٧٦٠ — ١٨٠٣

هوراس نلسون من أشهر قواد انجلترا البحريين (١٧٥٨ — ١٨٠٣) . بلغ عـــدد الوقائع التى اشترك فيها قبل الثانية والثلاثين من العمر مائة وعشرين . وقدضرب البحرية الفرنسيه فى موقعة ابي قير ضربة فاصلة (١٧٩٨) وقضى على قـوتها قضـاء مبرما في الطرف الاغر (٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٥) حيث لقى حتفه

موقعة ابى قير — كانت موقعة ابي قير حافلة بحوادث البطولة : جرح ابرويز Brueys قائد الاسطول الفرنسى فى الساعة السابعة صباحاً في رأسه ويده فرفض كل اسعاف واستمر فى اصدار اوامره ، وبعد نصف ساعة فقد فخذه الايسر فابى أن يغادر مكانه حتى لفظ نفسه . وجرح احد ضباط ابرويز جرحا بليغافي رأسه على سفينة الاورينت فارتمي ابنه الصغير على جسمه الدامي فحاول



بعض البحارة ابعاده فصاح في وجههم : « لا، لا، اريد أن أموت معه » ولم تمض هنيهـــة حتى نسفت السفينة وغرقت بجميع من فيها . ساد سكون الموت ثم اشتدت الموقعة من جديد . فاستقتل قائد « الاسبارطية » فى الدفاع وقد بلغ الماء في قاع السفينة تسعة اقدام وكان على ظهرها مائتان وعشرون بين ميت ومحتضر ، حتى كسرت ذراعه ووقع السيف من يده فرده اليه القائد نلسون قائلا : « احتفــظ به فأنت جدير بحمله »

وحملت مقذوفة ذراع ضابط « الراعد » اليمني « فهتف : لتحى الجمهورية ! » ثم اطارت اخرى ذراعه اليسرى فصاح : « لتحى الجمهورية ! اطلقوا النار ايها الرفاق » فردد جميع البحارة هتافه وسط حماسة وطنية لامثيل لها ، ثم اطارت ثالثة فخذه فحملوه فقال: « عاهدونى على النصر او الموت وارموا جسمي في البحر اذا استولى الانجليز على السفينة »

يرى القارىء على شماله القائد ولسون وسط المعركة وأمامه السفن الفرنسية المختلفه تنسفها نيران المراكب الانجليزيه فتمزقها وتغرقها رغما من بطولة شجعانها

القديسة هيلانة حيث مضى ستة أعوام ومات فى اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٢١

معاهدة باريس الثانية — أمضيت معاهدة باريس الثانية فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ وكان البروسيون والألمان يريدون الاستيلاء على الألزاس واللورين وبعض المقاطعات الفرنسية ولكن الروس والانجليز لم يروا من الحكمة الجرى على هذه السياسة وقرروا اعادة فرنسا الى تخومها فى سنة ١٧٩٠ فتركوا لها افنيون وانتزعوا منها نيس وسافواى وبعض مناطق صناعية فى الشمال وفرضوا عليها غرامة حربية فادحة — سبعمائة مليون فرنك — وتقرر أن يبقى فى فرنسا جيش من الحلفاء مؤلف من ١٥٠٠٠٠ جندى يحتل الحصون الشمالية والشرقية مدة خمس سنوات وتتولى الحكومة الفرنسية الانفاق عليه فى هذه المدة .

وهكذا كانت عاقبة عودة نابليون من جزيرة الألبا نكبة على البلاد .

٣

مؤتمر فينا

كانت فاتحة تاريخ أوروبا الحديث هزيمة نابليون لأنها حادثة أوروبية مست جميع الدول فى نظمها الداخلية أو فى علاقاتها

الخارجية . كان نابليون يحكم مباشرة الامبراطورية الفرنسية والبلاد التى ضمت اليها : بلجيكا ومقاطعات الرين، وبعض أقاليم سويسرا، وثلث ايطاليا، والأراضى المنخفضة، ومقاطعات ألمانيا على بحر الشمال، والمقاطعات الألّيرية على ساحل الادرياتيك الشرقى — وكانت حكومته فى جميع هذه البلاد حكومة عسكرية مطلقة — وكان يسيطر على الدول المجاورة التى أرغمها على عقد محالفات دفاعية هجومية معه : وهى ممالك أسبانيا، ونابولى، وايطاليا، ووستفاليا التى نصب أقاربه ملوكا عليها، والدول الألمانية فى محالفة الرين، وسويسرا، والدنيمرقة .

وقد اضطر فى سنة ١٨١٢ النمسا وبروسيا الى الانضمام اليه ضدّ روسيا، ولم ينج من سلطانه كما يقول سنيوبوس، إلا الدول الواقعة فى أطراف أوروبا : انجلترا، وروسيا، والسويد، وصقلية، والبرتغال، وأسبانيا الثائرة، وكانت أوروبا كلها شطرين : نابليون وأعداءه .

وقد كانت هزيمة نابليون سببا فى تداعى النظام الأوروبى الذى أقامه فانفصلت منه النمسا وبروسيا سنة ١٨١٣ وانضمتا الى أعدائه فتكون ائتلاف "الحلفاء" من الدول الأربع الكبرى روسيا وانجلترا وبروسيا والنمسا التى عوّلت على سحق نابليون وتمكنت من اجتذابْ الدول الألمانية والأمراء الطليان المخلوعين .

وقد طاردت جيوش الحلفاء نابليون فى سكسونيا فانتصرت عليه فى ليبزك وهيمنت على ألمانيا (١٨١٣) ثم عرضت عليه الصلح (تخوم فرنسا فى سنة ١٨٠٠) فرفض فغزت فرنسا فى أوائل سنة ١٨١٤ ودخلت باريس وقضت على الامبراطورية .

فكر الحلفاء عندئذ فى عقد مؤتمر فينا (أكتوبر سنة ١٨١٤ — يونيه سنة ١٨١٥) لنقض التعديلات التى أدخلها نابليون فى نظام القارة وتصفية حروب الثورة ونابليون ونتائجها وبعبارة أخرى انشاء خريطة أوروبا السياسية من جديد .

وقد كان مؤتمر فينا أهم مؤتمر عقد بعد مؤتمر وستفاليا الذى سويت فيه مشاكل "حرب الثلاثين" ، ولكن هذا المؤتمر استأثرت الدول الكبرى فيه بالأمر وأقام تسويته على مبدأ "التوازن الأوروبى" الذى سار عليه القرن الثامن عشر ووقع فى نفس الغلطة التى وقع فيها نابليون إذ لم يحسب حسابا للزمن وتطوّر الشعوب وانبثاق روح جديدة فى أوروبا كانت الثورة أجلى مظهر لها .

كان النظام الجديد الذى وضعه المؤتمر لأوروبا فى سنة ١٨١٥ ضدّ الطبيعة ، كما قال ديبيدور ، لانه يرمى الى إضعاف وإعقام القوى التى كان نموّها الحرّ يفيد التقدّم والمدنية .

والذى يضاعف من تبعة المؤتمران الألمان، والطليان، والبولنديين وغيرهم من الشعوب قاتلوا فى صفوف الحلفاء طلبا للحرية والاستقلال ولكن المؤتمر أبى إلا أن يحل فى أوروبا دكتاتورية رباعية محل دكتاتورية نابليون وأقام التسوية على مبادئ جامدة ضدّ الحرية وحقوق الشعوب كانت منشأ الحركات القومية والدستورية فى القرن التاسع عشر .

سياسة تاليران — قرّرت دول الحلفاء أن تنفرد بوضع نظام أوروبا الجديد والاتفاق عليه فى محادثات سرية حتى اذا تم افتتح المؤتمر ودعى مندوبو الدول الأخرى للموافقة على قرارات الدول الأربع .

وكانت الدول تريد أن لا تشرك فرانسا فى المؤتمر ولكنها رأت من اللياقة دعوة مندوب لويس الثامن عشر تاليران ومندوب اسبانيا الى حضور الاجتماعات التمهيدية ، وقد تمكن تاليران بدهائه السياسى ولباقته من اكتساب نفوذ واسع فى المؤتمر جعل بلاده المغلوبة على أمرها تشترك مع الدول الكبرى المنتصرة اشتراكا فعليا فى تقسيم أوروبا وتنظيمها .

احتج تاليران منذ الاجتماع الأوّل الذى أبلغه فيه مندوبو "الحلفاء" قرارات الدول على خطتهم وطلب افتتاح المؤتمر رسميا

وتأليف لجنة "الاعداد" المسائل قبل عرضها على المؤتمر الذى يملك وحده حق "الفصل" فيها ، وكان تاليران يريد أن تلتف الدول الصغرى التى يضحى بها حول فرنسا لمقاومة الحلفاء : وقد تقرر فعلا افتتاح المؤتمر فى أوّل نوفمبر وأن يكون ذلك كما طلب تاليران " طبقا لمبادئ القانون العام " .

كان مندوب فرنسا ينادى بمبدأ "القانون العام" و"الشرعية" أو حق الملوك الشرعيين الذين أخرجوا من ديارهم حتى يحول بين الحلفاء وبين التصرف فى البلاد التى فتحوها "لأن الفتح وحده لا يمنح السيادة"، وعلى ذلك كان ملك ساكسونيا فى وقاية فرنسا، وأبى لويس الثامن عشر الاعتراف بمورات الذى اغتصب عرش الملك الشرعى فى نابولى (أحد أفراد أسرة البوربون) .

والواقع أن قدرة تاليران لم تظهر الاحين شرع الحلفاء يتداولون فى حل المشاكل القائمة وتقسيم الأراضى والبلاد فنشأ النزاع بينهم فلعب تاليران دور حكم خصوصا وأنه أعلن أن فرنسا ليس لها مأرب مادى وأنها منزهة من كل مطمع .

أعمال المؤتمر — الواقع أن المؤتمر لم يفتتح قط وقد قرّرت الدول الكبرى التسوية على انفراد ولم تنقسم على نفسها إلا فى مسائل ألمانيا وبولندا :

احتفظت انجلترا بما غنمته من المستعمرات فى حروب الثورة والامبراطورية فأخذت فى أوروبا مالطة والجزر الأيونية وهليوغولند واسترجعت هانوفر التى كانت من أملاك التاج البريطانى وفى خارج أوروبا سانت لوسى وطوباغو فى جزر الأنتلس، وجزائر سيشل وجزيرة إيل دى فرانس فى بحر الهند، والكاب وسيلان من أملاك هولندة .

واستردّت النمسا الولايات الأليرية على ساحل الادرياتيك والبلاد التى ضمت الى باڤاريا وأخذت باڤاريا عوضا على ضفة الرين الغربية، وفقدت بلچيكا التى ضمت الى هولندة فتألفت منهما "الأراضى المنخفضة" تحت صولجان البرنس دورانج، واستردّت فى ايطاليا لومبارديا وجمهورية فينيسيا القديمة — اللتين تكونت منهما مملكة ايطاليا فى عهد نابليون — وبذلك هيمنت على شمال ايطاليا وامتدّ نفوذها فيها بفضل ارجاع الولايات القديمة التى كان أمراؤها — وأكثرهم من أسرة الهابسبورج — خاضعين لها .

وقد ضمت جمهورية جنوة القديمة الى ملك سردانية وعادت الحالة الى أصلها فى ايطاليا .

قام النزاع حول بولندا وألمانيا لأن روسيا كانت تريد الاحتفاظ بغراندوقية وارسو التى كانت نصيب بروسيا فى تقسيم بولندة

سنة ١٧٩٢ و١٧٩٥، ولكن بروسيا رغبت فى التنازل عنها مقابل تأييد روسيا لها فى امتلاك مملكة سكسونيا لأنها بلاد ألمانية أنفع لها فى اتساع النفوذ والسلطان خصوصا وان ملك سكسونيا لم ينضم الى الحلفاء كبقية الملوك والأمراء فى ألمانيا، وكانت روسيا تحقد عليه لأنه قبل من نابليون غراندوقية وارسو و«خان قضية أوروبا» .

وكانت انجلترا والنمسا بوجه أخص تعارضان فى هذا الحل الذى يمكن روسيا من التقدّم فى أواسط أوروبا، وبروسيا من توطيد مركزها بقوة فى ألمانيا ، وتتمسكان ببقاء سكسونيا . ومن ثم تجاذب الفريقان فتذرّع تاليران بحجة الدفاع عن ملك سكسونيا الشرعى ضدّ ادعاءات بروسيا «الثورية» واستفاد من انقسام الحلفاء فانحاز الى النمسا وانجلترا وعقد بينهما وبين فرانسا محالفة دفاعية .

وأخيرا ألف الحلفاء «لجنة الاحصاء» التى اقتطعت أربعة أجزاء من ولايات مختلفة لتعوّض على بروسيا ٣٤٠٠٠٠٠ نفس :

(١) مقاطعة بوزنانيا فى بولندة (٨١٠٠٠٠ نفس) .

(٢) ضفة الرين الغربية (١٤٠٤٠٠٠) .

(٣) وستفاليا (٨٢٩٠٠٠) .

(٤) قطعة من مملكة سكسونيا (٧٨٢٠٠٠)، واحتفظ قيصر روسيا ببقية بولندة ووعد بانشاء مملكة دستورية فيها .

وقد أحاط الحلفاء فرنسا بسياج من الدول الصغيرة لضبطها وتركها فى عزلة فألفوا « مملكة الأراضى المنخفضة » شمالا من بلچيكا وهولندة ، و «التحالف السويسرى» من اثنين وعشرين مقاطعة كفلت الدول استقلالها ، و «مملكة سردانية» من بيمون ، وجنوة ، ونيس وسافواى (التى استردّتها فى معاهدة باريس الثانية) ، ومملكة باڤاريا التى أضافوا اليها لاندو واشبير على ضفة الرين الغربية ووكلوا اليها والى بروسيا مراقبة الشمال الشرقى من فرنسا ، و «الاتحاد الألمانى» من ملوك ألمانيا المستقلين برياسة النمسا .

وبينما كانت الأمور سائرة على هذه الوتيرة علم الحلفاء بعودة نابليون فأسقطوه فى واترلو وأجمعوا أمرهم على أخذ الحيطة الكافية ضدّ فرنسا فاتفق رأيهم على الاحتلال ، والغرامة ، والاستيلاء على أراض جديدة من ممتلكاتها فى معاهدة باريس الثانية وألفوا فى الوقت نفسه «عصبة دائمة» للدفاع عن سلامة دولهم والطمأنينة العامة فى أوروبا ، وتعاهدوا على التآزر اذا مزقت المبادئ الثورية فرنسا من جديد وهدّدت سلامة الدول الأخرى (٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥) .

أوروبا بعد المؤتمر — كان الحلفاء بلسان الساسة والقوّاد ينادون أثناء الحرب فى بياناتهم بالمبادئ الكبرى ، والحقوق المقدسة ، والمحافظة على القانون العام ، واستقلال الشعوب ، ورد الحكومات الشرعية الى مقرها ، وقد وعد كوتوزوف القائد الروسى

فى مارس سنة ١٨١٣ الشعوب الألمانية بالاستقلال ومنحهم دستورا «يساعد ألمانيا الناهضة الموحدة على احتلال مكانة لائقة بين أمم أوروبا جمعاء» .

كان الحلفاء اذن فى حربهم يستندون الى مبادئ الثورة الفرنسية التى انتشرت فى أوروبا ضدّ الاستبداد فى جميع مظاهره ولكنهم ما كادوا يكسرون الطاغية حتى أغفلوا "الحق" و"المبادئ" ونادوا "بحق الفتح" و"المصلحة" فكان الألمان مثلا ، كما يقول المؤرخ صوريل ، يرتجفون كلما خطر لهم ، وهم يطالبون المؤتمر بتحقيق وعوده ، أن نتيجة الضحايا الكثيرة والدماء التى أهرقت تقسيم شعوب ألمانيا بين ملوك وأمراء جدد ، وتوسيع بروسيا .

كانت الروح السائدة فى المؤتمر الممثلة فى اسكندر ومترنيخ رجعية بحتة تقدم المصلحة — كما يفهمها ساسة القرن الثامن عشر — على الحق الذى انتصرت القوّة باسمه .

وقد قسم المؤتمر ممالك أوروبا ووزع شعوبها كما توزع الأسلاب طبقا لمقتضيات "الاحصاء" ومصلحة الملوك لا مصلحة الشعوب فقسم بولندة من جديد بين بلاد وشعوب متباينة ، وضم الى بروسيا سكان الرين الكاثوليك على الضفة الغربية الذين تأثروا بالقوانين المدنية والادارة الفرنسية بدلا من السكسونيين البروتستانت

الذين يجاورونها، وأخضع بلجيكا الكاثوليكية لحكومة الهولنديين البروتستانتية، واعتبر ايطاليا "شكلا جغرافيا" هيمنت عليه النمسا من جديد بعد ان وعد الحلفاء شعوبها بالحرية والاستقلال، وأعاد فى ألمانيا النظام الاتحادى بدلا من تحقيق نظام الوحدة والحرية والاستقلال الذى كان كفيلا بعظمتها، وحرم فرنسا من حدودها الطبيعية وأذلها .

حاول المؤتمر بأعماله نقض نتائج الثورة فانتشر الاستبداد فى نظم الممالك الداخلية وفى العلاقات الدولية، ولم يكن هناك "توازن" فى الحقيقة وانما كان هناك تحالف بين المستبدين الأقوياء على اخماد الحرية بالقوة الغاشمة .

ويمكن القول أن تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر كان نزاعا مستمرا بين الروح الجديدة التى أوجدتها الثورة والروح الرجعية التى تمثلت فى مؤتمر فينا، وهذا هو منشأ ثورات فرنسا ضد الملكية (فى سبيل توطيد حكومة حرة فى الداخل واسترداد حدود الرين)، وثورة بلجيكا على هولندة، وثورات ايطاليا وبولندة .

وقد قضى على أغلب نتائج المؤتمر قضاء مبرما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٧٠ فاستقلت بلجيكا وتكونت مملكة ايطاليا والامبراطورية الألمانية وتوطدت النظم النيابية فى أوروبا .

